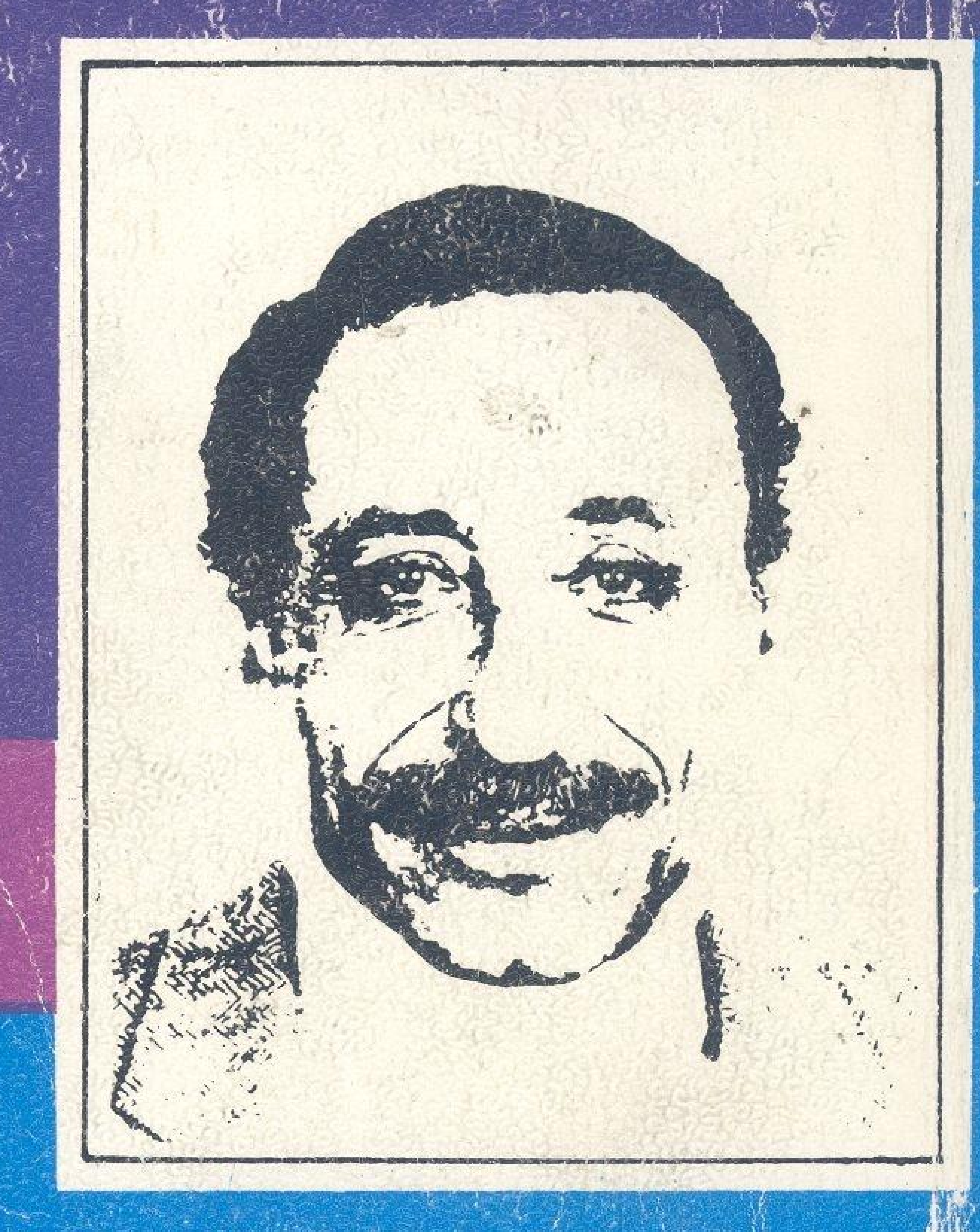
صلاح مرسي

الأعمال الكاملة



# البحار مندي

## وقصص من البحر

الطبعة الثانية

# البحار مندي

## وقصص من البحر

الطبعة الثانية

١٩٨٧ م ○ ١٤٠٨ هـ

الناشر




١٦ شارع البورصه ـ التوفيقية ـ
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح ـ عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

الناشر خارج جمهورية مصر العربية



الدار المصرية للنشر والتوزيع
P.O.Box 8559 Nicosia - Cyprus
Tel (02) 498688 - Tlex 5341
نيقوسيا ـ قبرص ص . ب ٨٥٥٩
ت : ٤٩٨٦٨٨ تلكس ٥٣٤١

رقم الايداع بدار الكتب ٨٧/٥٣٧٤
الترقيم الدولى ٠ ــ ٠٥ ــ ١٦٥٠ ــ ٩٧٧ ISBN

الغلاف تصميم الفنان : عبد الغنى أبو العينين

طبع بمطابع دار المنار العربى ١ شارع العامل الأول ــ إمبابه ت : ٣٤٥٢٢٦٤

# قصة البحار مندى

## الصورة الأولى •

أحكى لكم مغامرات البحار مُندى .

لقد أصبح مندى الآن بحارا مخضرما ، ذا رأس كبير وشارب هائل رمادى اللون ، وشعر كثيف يختفى تحت طاقية من الصوف تحميه من برد الشتاء وحر الصيف ... أصبح مندى الآن أسطورة يتناقلها البحارة فى السفن التى تعبر البحار والمحيطات وتملأ موانىء الدنيا من مشرقها الى مغربها ومن شمالها الى جنوبها ، فما من ميناء فى الدنيا الا وتجد فيه أثرا من آثار مُندى ، أثرا قد يكون امرأة وقعت فى طريقة فأحبته ليومين أو ثلاثة ، ثم ظلت تحكى عنه سنوات فى انتظار أن يعود ، وقد يكون الأثر معركة من تلك المعارك التى اذا ما خاضها مندى صال فيها وجال وحطم وضرب وتلقى الضربات ، غير أنه فى النهاية ، دائما ، ما يخرج منتصراً ... وما من سفينة تمخر عباب المياه الدافئة أو الباردة أو الثائرة الا وعثرت فيها على رجل التقى به مرة ، أو عمل معه مرة ... وعلى مدى ثلاثين عاما ، أصبح مندى الآن أسطورة يتناقلها البحارة فى حب واعزاز ، أو فى غيره من لايستطيع أن يصبح مثله .

غير أن الذين يعرفون حياة مُندى فى هذا العالم قليلون ... ذلك أن

مندى ـــ ابدا ـــ لايقص قصص مغامراته أو حياته ... انه من ذلك النوع من البشر الذى يصنع القصص ولايحكيها ، ذلك أن المرات القليلة التى حكى فيها شيئا عن حياته ، مرات نادرة ... لاتستطيع أن تعثر عليها الا بجهد من يعثر على أبرة فى كومه من القش ، أو سمكة صغيرة فى محيط بلا شواطىء ...

ولقد عرفت مندى هذا .

عرفته قبل أن يصبح بحارا وقبل أن ينبت شاربه الكث الرمادى اللون ، وقبل أن تطأ قدمه ظهر سفينة ، عرفته صبيا يافعا يقطع شوارع الاسكندرية فى حركة ونشاط ، يجوب أرصفة الميناء ليل نهار ، يبيت أحيانا فى قاع قارب ، ويجلس بالساعات ناظرا الى سفينة راسية يتغزل فيها كما يتغزل عاشق فى محبوبه عسيرة المنال ...

فى تلك الأيام البعيدة ، كان مُندى ذا وجه مليح ، وعينين سوداوين تحيطهما هالة سوداء تضفى على نظراته سحرا من نوع خاص ، كان طويلا ، وكان نحيلا ، وكان عنقه من ذلك النوع الذى ينطلق من بين الكتفين كرمح يحمل رأسا ذا تكوين خاص .

فى تلك الأيام البعيدة وقع مندى فى الحب لأول مرة فى حياته .

ولم يكن حبه من ذلك النوع الذى يمارسه الصبية أو الشبان الذين هم فى مقتبل العمر ... بل كان حبا قويا عارما عنيفا ، من ذلك النوع الذى تضطرم فيه العواطف وتستقر وتتحول الى اتون يكتوى به القلب ليل نهار ... ذلك أن مندى ـــ هكذا كان حظه دائما ـــ لم يقع فى حب فتاة عادية كعامة الفتيات اللاتى كنا تقع فى حبهن ونحن صغار ، بل وقع فى حب زُغدانه .

ولقدْ كانت تلك المنطقة المحيطة بميناء الاسكندرية ، فى الأزمنة الخالية ، والتى تمتد من رأس التين بحذاء الشاطىء زاحفة حتى باب سته ،

ثم باب الكراسته ... كانت تلك المنطقة فى الأزمنة الخالية ذات طابع خاص ... كانت الحياة فيها لاتنام ليلا أو نهارا ، وكان البحارة فيها ، من كل جنسيات الأرض ، يسعون سعيهم الحثيث نحو اجتلاب اللذة والنشوة والحب ، كانت منطقة تمور بالحياة وتموج بالأحداث ... غير أنه ، فى تلك البقعة التى تقع فيما بين شاطىء رأس التين وباب واحد ، حيث تقوم مبانى الموانىء والمنائر ، وتتكدس فيها السفن القديمة والمستهلكة ، ويمتد فيها رصيف النورس يحمل فوق سطحه عشرات من بقايا السفن القديمة والمحطمة ... فى تلك البقعة من الميناء ، كان يقوم مقهى « أبو شفه » .

ولقد كان أبو شفة هذا بحارا اعتزل المهنة اثر عاصفة دمرت سفينته ولم ينج منها سوى بضعة رجال تعلقوا ببقايا السفينة الطافية بعد أن ابتلعتها الأمواج ، كان اسم أبو شفة هذا هو « الكومى » ، وفقد الكومى فى العاصفة ذراعا وعينا ، كما شقت شفته العليا نصفين كانت أسنانه تبدو من بينهما ... واعتزل أبو شفة العمل فى البحر . ووجد لنفسه مكانا فوق رصيف النورس بنى فيه مقهى صغيرا من بقايا السفن ، وقبع هناك مع امرأته وابنته ، وراح يبيع الشاى والأطعمة لعمال السفن والبحارة ، وأكتفى من الحياة بتلك البقعة ، يعيش فيها ، ينام فيها ويأكل فيها ويشرب ... وكانت ابنة أبو شفة هى زُغدانة .

فتحت زغدانة عينيها على الحياة هنا ... فى تلك البقعة الصامتة الآسنة من الدنيا ، تحيط بها جثث السفن المحطمة والقوارب المستهلكة . تمتد الميناء أمامها محدودة الوجود بأجساد السفن الرائحة والغادية أو الراسية ، تفتح عينيها فى الصباح على شجار أمها وأبيها ، وتسعى يومها بين الرجال ذوى السواعد القوية والألفاظ الخشنة والأسنان التى تنهش الطعام وتزدرده دون مضغ . تضرب مياه الميناء جانب الرصيف بأمواج مصنوعة من أجساد السفن المارة ... وتداعب أذنها أسراب النورس التى تحط فوق الرصيف عند الغروب صانعة تلك السيمفونية الغريبة من الأنغام ...

فى هذا المكان شبت زغدانة ، شبت لا تحمل من أنوثتها سوى جسد قوى فائر عنيف التكوين . كان أبوها عندما كبرت وانتفض جسدها فى اكتمال مبكرا ، قد أصبح حطاما ، لايملك سوى لسان طويل يلهب به أذنيها كلما رآها ، وعين كانت تسرح الى بعيد ، الى حيث البوغاز ، بوابة الميناء ، الى حيث البحر المتسع والدنيا التى ولت ... أما أمها ، فلقد كانت تقضى يومها فيما بين العمل فى المقهى الصغير ، والذهاب الى حيث السوق لتشترى طعاما أو تتسوق شايا وسكرا ، أو تتاجر فيما يقع بين يديها من فضلات البحارة الذين كانوا دائما مايحومون حول المكان استجلابا لرضاء زغدانة أو شتائمها .

ولقد حدث ماحدث ذات يوم على غير انتظار .

كان الوقت صيفا ، وكان مندى فى تلك الأيام يسعى وراء حلمه العظيم ، أن يجد سفينة — أية سفينة — يرضى قبطانها أن يستخدمه على سطحها ، ساقته قدماه فى رحلة من تلك الرحلات التى كان يجوب فيها أرصفة الميناء الى حيث رصيف النورس ومقهى أبو شفه ... وهناك ، وعند نهاية الرصيف المطل على بوغاز الميناء الصغير المؤدى الى ورش الترسانة البحرية ، التقى مندى بزغدانة .

كان الوقت صيفا ، وكان ظهرا . وحرارة الشمس تلفح الدنيا بلهيبها ، وتدفع الأفكار فى رأس مندى كى يقفز الى المياه ليرطب جسده ، عندما وقع بصره على شيء اذهله .

فعندما هم مندى بأن يخلع ملابسه ، صك سمعه ذلك الصوت الذى ينبيء عن وجود جسد يسبح فى المياه ، التفت الى اليسار فوجد رأسا يبرز من تحت سطح المياه ، ووجها جميلا ، فى جماله وحشية لم يعهدها من قبل فى وجوه الفتيات ، فى الوجه عينان واسعتان تطلقان بدل النظرات شررا . وشعر فاحم ينساب من الرأس ملتصقا بفعل المياه بالعنق ثم الكتفين ...

ولقد ظل مندى لدقائق يحملق فى صاحبة الوجه كما ظلت صاحبة الوجه تحملق بعينيها فى وجهه ... ثمة لحظات قد مرت فى ذلك الوقت المهجور من الزمن ، كانت تحمل فى طياتها بذرة قص حب لم تمت أبدا .

قبل أن يفيق مُندى من المفاجأة ، كان صوت زغدانه يمزق السكون صائحا :

« دور وشك الناحية التانية !»

فى البداية ... ظن مندى أن مايراه ليس سوى عروسة من عرائس البحر ، ولقد كانت قصص عرائس البحر تلهب خياله الصبى ، ولطالما تمنى أن يلتقى بواحدة منهن تحمله معها الى قاع البحر حيث قصور أبيها المصنوعة من الذهب والفضة والمرجان ، صاحت زغدانه فيه لكنه كان كالمنوم ، صامتا جامدا ، محملقا ، مشدوها ... وعندما عادت إلى الصياح مرة أخرى ، لم تكن زغدانة تدرى أنها تنهر من لايحب أن ينهره أحد ... كانت تعلم ، كما كان يعلم كل الرجال الذين تعاملوا مع مقهى أبو شفه . أنها مخيفة . وأنه يكفى لرجل أن يتفوه بلفظ أو يأتى بتصرف حتى تنشب أظافرها فى عنقه وتنهال عليه سبا ولكما ، وقد تقذفه بقطعة من الحديد أو بحجر ملقى فوق الرصيف ، وكانت دائما ماتنتصر .

ولقد سمع مندى عن مقهى أبو شفه كما سمع عنه كل من كان يعمل فى الميناء أو يرتادها ، ولقد سمع مندى أيضا عن زغدانة ابنة أبى شفه هذا غير أنه لم يكن قد رآها من قبل ، لكنه الآن ، أدرك بغريزته ، أنه أمام قدر لامفر له منه ... وهكذا تلقى صيحتها الأولى جامد الملامح ، لكنه تلقى صيحتها الثانية وهى تنهره وتطلب منه أن يدارى وجهه حتى تخرج من المياه ، بابتسامة مستهينة ، وظلت عيناه تحملقان فى عينيها بسعادة كانت تزغرد فى نظراته ... وعندما اقتربت زغدانة من أحجار الرصيف ، كان مندى لايزال حيث كان جالسا ، مدليا ساقيه نحو المياه . حتى اذا ما

أصبحت زغدانة الآن تحت قدميه تماما . نظرت اليه نظرات غاضبة وهى تسأله :

« مش عاوز تدور وشك ليه ؟! »

« وادور وشى ليه ؟! »

« علشان اطلع والبس هدومى !»

وتلفت مندى حوله باحثا بعينيه عن ملابسها ... وما أن وقعت عيناه على الجلباب المكوم هناك فى آخر الرصيف ، حتى برقت فى ذهنه فكرة ... و... ولم تكن زغدانة فى حاجة الى اكثر من هذا ... ففى لمح البصر ، كانت قد غطست فى المياه ثم انطلقت فى الهواء كسمكة مدربة ، وامتدت يدها الى ساقه فجذبته الى المياه ...

كانت هذه لحظات ، مجرد لحظات خاطفة وجد مندى نفسه بعدها يسبح بملابسه فى مياه الميناء ، بينما جسد زغدانة العارى يعدو نحو جلبابها المكوم ، وقبل ان يفيق أو ينتبه كانت قد ارتدت الجلباب ، وسترت نفسها ، ووقفت تنظر اليه ساخرة !

***

هكذا بدأت القصة ... قصة الحب الغامضة فى حياة البحار مندى ، والتى لولاها لما كان كل ماكان فى حياته ، ولما تحولت أحلامه من مجرد أحلام تسعى فى رأسه الى واقع احال حياته الى أسطورة ... وعندما خرج مندى من المياه كانت زغدانه قد اختفت وسط انقاض السفن التى تملأ رصيف النورس ... كانت آخر مرة رآها فيها وهى تقف عند قمة الرصيف وقد التصق جلبابها بجسدها بفعل المياه ، وضحكتها الساخرة تجلجل فى سكون الظهيرة الآسن ، ثم ، وعندما كان يضرب المياه بذراعيه نحو الرصيف ... اختفت زغدانة ... ذابت . وعندما صعد الى الرصيف كانت المياه تتبخر بسرعة من فوق جسده . لكنه كان لاهث الأنفاس ، زائغ العينين ، فى صدره غضب ثائر رهيب لم يدر له سببا ، فراح يسعى

بين انقاض السفن بحثا عنها ... كان الصمت عميقا ، والسكون كثيفا ، لا تبدده الا صفارات السفن التى تنطلق فى عرض الميناء من بعيد .... وكان عليه أن يجد زغدانه . فأين يجدها الا فى مقهى أبو شفه ؟!

***

لايعلم مندى ، وحتى اليوم ، ما الذى حدث له فى تلك اللحظات الغريبة من عمره ، كان ، كلما جلس الى نفسه وتذكر تلك اللحظات ، لايخرج من ذكرياته الا بهذا الاحساس الغريب الذى يمتزج فيه الفرح بالحزن ، والسعادة بالغضب ، والراحة بالتعب ... كان مافعلته زغدانه وكأنه قد فجر فى صدره كل المشاعر التى عرفها وكل الاحاسيس التى مازالت ، وحتى اليوم ، تتأجج فى صدره .

كان سعيه بين انقاض السفن قد استغرق من الوقت ماكان كافيا لان يجفف ملابسه وجسده ... وكان اليأس من العثور على تلك الجنيّة قد بلغ مداه فقرر أن يذهب الى مقهى أبو شفه ، ليقبع هناك فى انتظارها ... وعندما هم بالانصراف ، جاءه صوتها من حيث لايدرى :

« بتدور على حاجة ياشاطر ؟!»

تلفت يمنه ويسرة فلم يجد أحدا ، قفز خلف قارب ملقى على جانبه ودار حوله فلم يجد أحدا ... انسابت ضحكة مرحة فى سكون الظهيرة هذا فارتجف . رفع رأسه الى اعلى وكانت زغدانه تجلس هناك . داخل ذلك القارب الصغير المحطم الملقى فوق ربوة من بقايا السفن ... جمد فى مكانه ناظرا اليها ، ذلك أنها كانت تطل عليه من حيث كانت باسمة الوجه ، براقة العينين ، فى نظراتها تلك التى كانت تطلقها نحوه بريق مخدر ، بريق بدد فى نفسه كل غضب !!

« اسمك ايه ؟!»

« مُندى !»

«بتعمل ايه هنا ؟»

«وانتى مالك !»

«عارف أنا مين ؟!»

«زغدانه بنت أبو شفه !»

«تعرفنى قبل كده ياجدع ؟!»

«سمعت عنك من العيال !»

« سمعت أيه ؟ ! »

«انك بتعضى زى الكلاب !»

برز جسدها الفائر فوق حاجز القارب وانطلقت من عينيها نظرة غضب هائل فاجتاحه السرور فهتف :

«وسمعت ان اللى بتعضيه بياخدوه الاسبتاليه !»

قبل أن يفيق أو يتم حديثه كان جسدها يقفز فى الهواء ليسقط فوقه ... قبل أن يفيق أو ينتبه الى مايحدث وجد مُندى نفسه ملقى على الأرض ، وزغدانه تجثم فوق صدره ، وانطلق من عينيها ذلك البريق المخدر فلم يشعر ، أبدا ، بأية رغبة فى المقاومة ... بل ترك نفسه لشتائمها التى كانت تقذفها من بين شفتين مكتنزتين ، ولفحت أنفاسها وجهه وهى تميل على عنقه فاغمض عينيه فى نشوة ، لكنه ، فى لحظة ، كان يطلق صرخة مدوية ، ذلك أن اسنان زغدانه كانت قد انغرست فى عنقه بعنف آلمه الى حد الصراخ ... وعندما وقفت زغدانه فوق رأسه أحس بدفء الدماء تسيل فوق عنقه ، كان الألم طاغيا ، لكن ثمة هدوءا غريبا كان يجتاح كل جسده ... وجاء صوته ساخرا ليقول :

«يعنى أنا لازم أروح الاسبتاليه بقى !»

وانطلق الشرر من عينى زغدانه مرة أخرى ، لكنها ، وقبل أن تعاود الهجوم عليه ، كان قد قفز اليها ، وهوى بكفه فوق وجهها فى صفعة تطاير

لها شعر زغدانه ، التى ردت على صفعته بلكمة أودعتها بطنه فتلوى من الألم ... وهكذا ... وفى هذا المكان المهجور ، كان جسداهما يلتحمان فى عنف ، وكان كل منهما يضرب الآخر ضربات عمياء ... وكانت الدماء تسيل من عنق مندى ، كما كانت تسيل من فم زغدانه ... حتى اذا أحس كل منهما بالتعب ، حتى اذا وهن منهما الجسدان ارتميا فى ظل القارب وهما يلهثان ... جلس كل مهما بجوار الآخر ، وارتمت أبصارهما فوق صفحة المياه البراقة باشعة الشمس ، ودوت فى الميناء صفارة سفينة كانت قادمة من حيث المجهول ... وتمتم مُندى :

«انا عاوز نركب مركب !»

التفتت نحوه زغدانه ، ووقع بصرها فوق الدماء التى جفت فوق عنقه ، وكان الجلد أزرق متورما ، فابتسمت هامسة :

«علشان تحرم !»

قال مندى :

«أنا جعان !»

هكذا بدأت القصة ...

قصة البحار مُندى الذى أصبح اليوم أسطورة يتناقلها البحارة فى موانىء العالم وفوق ظهور السفن التى تقطع البحار والمحيطات ، قصة حبه لزغادنه تلك ، التى لم يكن يدرى ، أنه قد كتب عليه أن يظل محبا عاشقا ملتاعا ، وأن ... وأن ...

ولكن ... لم نسبق الأحداث ؟!

• الصورة الثانية •

اكتشف مندى ان الطريق الى زغدانة محفوف بالمخاطر ... كما اكتشف أيضا ، أنه كى يصل اليها ، عليه أن يتخطى سدا من شباب الترسانة والبحارة والمتسكعين والصيادين وكل من يحتسى الشاى فى المقهى الصغير ... كان لقاؤه الأول بها عاصفا ، لكنه لم يك يعلم أن حياته معها سوف تكون عاصفة ، وحتى النهاية !

وهكذا ، ومنذ أن التقى مندى بزغدانه فى ذلك اليوم الآسن الحرارة ، تغيرت حياته تماما ، أصبح ، اذا ماغادر بيته فى الصباح ، يتبع ساقية اللتين كانتا تسعيان الى حيث رصيف النورس ، هناك حيث مقبرة السفن وبقايا الآلات وأقدام الرجال تسعى خارجة أو داخلة ... وكانت زغدانه اذا مارأته برقت عيناها الخضراوان ببريق غريب ، وارتسمت على ملامحها تلك الابتسامة الغامضة التى لاتفصح عن نفسها ، وراحت نظراتها تتبعه أينما ذهب واينما حل ... وكان ، فى بعض الأحيان ، يقترب كثيرا ليجلس فوق عمود رفاص علاه الصدأ ، وراح يعبث فى أتربة الرصيف بقدمه وهو يطلب « شئ بالحليب » ، وعندما فعل هذا فى المرة الأولى جاءه صوت أمها الصارخ :

«انت ابن مين ياوله !»

«ابن حوا وآدم!»

رفعت المرأة رأسها اليه ورمته بنظرة غضب غير أنه لم يكن فى انتظار نظرة الأم ، بل كان غارقا فى عينى زغدانة التى كانت هناك ، عند حافة الرصيف ، تغسل الأكواب والأبريق وقد انثنى جسدها فى ليونة فجرت فى جسده عشرات المشاعر المضطربة المضطرمة ... ارتدت المرأة ببصرها حيث كانت عيناه معلقتين فرأت ابنتها وهى ترميه بتلك النظرة التى كانت تعرف ، بخبرتها ، ماذا يمكن أن يكون وراءها ... صرخت :

«ماتيالله يابت يازُغدانه !»

«حاضر يا أمه !»

ومن « حاضر ياأمه » هذه ، عرفت المرأة كل شىء ، ذلك أنها كانت تعرف ابنتها حق المعرفة ، تعرفها منذ ولدتها — على حد قولها — عندما كانت تكشر عن انيابها كلما اقترب منها انسان ، وكأنها خلقت لتشاكس الناس ... غير أن زغدانه ، وأن كانت شراستها لاتزال عالقة بنظراتها ، الا أن ظل الابتسامة هذه قد حدّث قلبها بما سوف يكون فيما هو قادم من أيام .

فى ذلك اليوم وقع فوق رصيف النورس حادث جلل ... ذلك أن السلطة الانجليزية فى الميناء ، قد سحبت احدى السفن الحربية الى الرصيف وتركتها هناك ...

هكذا بلا مقدمات ودون أن يعرف أحد من الرجال ماهية الأمر ، أطلق «التج» — وهذا اسم جرار السفن فى الميناء — صفارته العريضة وهو يسحب تلك السفينة الخالية الا من بضعة رجال . وتركوها هناك .

يومها انقلب الحال فوق الرصيف ، وتعالت الصيحات بين الرجال من الصيادين والعمال . وضرب الجميع اخماسا فى أسداس عن ماهية الأمر دون أن يصلوا الى حقيقة ماحدث ... السفينة معطلة ، المدافع فوقها ،

وعلى أجنابها الحبال والجنازير وكل شيء كل شيء ، ثم لاأحد هناك سوى ثلاثة من البحارة الانجليز . كان أحدهم يضع على ذراعه شريطين ، ويرسم عليه وشما ملونا هائلا . ولاشيء هناك سوى هذا .

«هالو جونى !»

لكن جونى ـــ على غير العادة ـــ لم يرد هذه المرة ...

كان يكفى ، فى تلك الأيام ، أن يهتف واحد من المصريين لأى انجليزى بهالو جونى هذه حتى يرد جونى بطلب ما من تلك الطلبات التى تعود جنود الاحتلال المغتربين عن أوطانهم وبيوتهم لأسباب لايعرفونها ان يطلبوها ... لكن الجنود الانجليز الثلاثة لاذوا بالصمت . فقط : كانوا يصيحون فى صلف « جو أواى » ، أى اذهب بعيدا ...

وهكذا أعلنت حالة الطوارىء بين الناس فوق الرصيف .

وارتبكت أحوال المقهى قليلا فلقد آثر بعض الرجال الابتعاد عن موطن الخلاف أو الشرور ... وكل الرجال ، كل الرجال بلا استثناء راحوا يتساءلون عن سبب مجيء هذه السفينة الى رصيف النورس ، ماعدا اثنين ممن كانوا هناك فى ذلك اليوم وشاهدوا الحدث العظيم ، هما زغدانة ومندى !

***

كان جزء من النهار قد انقضى ومندى لايفعل شيئا سوى التسكع بين حطام السفن والنظر من بعيد نحو زغدانه التى كانت تلبى طلبات الزبائن الذين قلّ عددهم ، وتستمع الى دعوات أمها الضارعة بالخراب المستعجل على الانجليز والسلطة واليوم الذى رأوهم فيه ، غير أنها ، وطول تلك الفترة ، كانت هى الأخرى تبحث بعينيها دونما رغبة منها ، عن ذلك الذى زرع فوق الرصيف ، وبدا وكأنه لن يغادره أبدا .

حتى حانت تلك اللحظة التى ظل مندى ينتظرها طوال اليوم ، عندما تسللت زغدانة من جوار أمها وراحت تخوض وسط الاطلال الصدئة

الملقاة فوق الرصيف ، تصعد جبلا من الحديد وتغوص تحت ألواح هائلة وآلات مازال الشحم يغطى أجزاء منها رغم مرور الشهور والسنوات ... وهناك ، فى فجوة وسط الانقاض كانت فى الأصل غرفة قيادة قارب بخارى كبير ، وجد كل منهما نفسه أمام الآخر .

«طب أنت عاوز إية دلوقت ؟ »

هكذا سألته ، وهكذا وجد نفسه أمام حقيقة بدت له غريبة كل الغرابة ... هو أن ذلك الحوار الذى كان يدور فى مخيلته منذ الصباح مع زغدانه ، لم يكن حوارا من طرف واحد ، بل كان حوارا متصلا بينه وبينها ، وعندما سألته عما يريد كان الرد جاهزا على لسانه :

«أيه حكاية الوله حوده ؟!»

«وانت مالك . اسم الله !»

تقصعت وهى تقذفه بالرد فى وحشية ... كان حودة هذا عاملا من عمال الترسانة ، كان طويلا عريضا مفتول العضلات قوى الذراعين ذا شعر أسود خشن يحيط برأسه وكأنه عمامة ، ولم يكن مندى يعرف ، أن حودة هذا بالذات الذى نطق لسانه باسمه دون كل الشباب الذين زاروا المقهى وشربوا فيه شايا وتبادلوا الحديث مع زغدانة وأمها ، لم يكن يعلم أن حوده هذا بالذات ، قد تحدث مع أم زغدانة فى أمر زواجه منها ، وأن الامر لم يتم لسبب لم يعرفه أحد !

«وأنا مالى ازاى بقى ؟»

«اسمع لما أقول لك ، ابعد عن سكتى أحسن لك !»

«لما تشوفى حلمة ودنك !»

«حاقول لحوده !»

«ماتقولى أن شاء الله للجن الأزرق !»

«واذا قعصلك تحت أيده زى مافعص غيرك ؟!»

قال مندى :

«ومقام المرسى لاكون فاتح دماغه !»

كانا الآن يجلسان على أرض الكابينة المائلة ويسندان ظهريهما الى الجدار المحطم ، فبدت جلستهما وكأنها نوع من الاسترخاء لم يقصدا اليه ... غير أن مندى ، ما ان فاه بما فاه به ، حتى استرخت زغدانة فعلا ، واسندت رأسها الى الجدار ، وأطلقت من عينيها الخضراوين تلك النظرة المشعة التى تعود مندى ، منذ أن أطلقتها عليه لأول مرة ، أن يصاب بنوع غريب من الخدر يحول ثورته الى استسلام ، وغضبه الى طوفان من الحنين كان يتفجر من أعماقه بلا ارادة منه ... ساد الصمت لثوان وجاءه صوتها مبحوحا هامسا :

« بتحنبى ياوله ؟ ! »

«وانا ايش عرفنى !»

ابتسمت زغدانه هذه المرة ابتسامة صريحة ، فازداد جمالها حتى ارتجف مندى أمام ذلك الوجه الذى اضاءته الابتسامة بنور بدا وكأنه يشع من الداخل ... وجاءته كلماتها فى صوت متكسر :

«أمال انت عاوز منى ايه ؟!»

احس مُندى بالعجز ، بشىء يكبله ، تململ فى جلسته . دمدم وتمتم وتلاعب بأطراف سرواله ولاعب أصابع قدميه الحافيتين القذرتين ... وعندما استحثه صوتها وهى تسأل :

«ماتقول !»

عاد يقول متبرما : « وأنا ايش عرفنى !»

لم تبتسم هذه المرة . بل ضحكت . كانت ضحكتها مثل تغريد طيور النورس ساعة صيد الاسماك الزاحفة فى أسرابها حول الرصيف . نظر اليها مندى فى غضب ولم يدر لم الغضب رغم أن قلبه قد رقص فرحا لضحكتها ... غير أنه ، وهو فى ذروة الغضب ، فوجىء بما لم ينتظره ،

تسمر ، جمد ، تحول الى لوح جامد من ألواح سفينة معطوبة ، فلقد مالت عليه زغدانة ، وطبعت على وجنته قبلة ، ثم همست :

«أصل حودة خطيبى ياعبيط !»

***

مالت الشمس نحو الغروب فى ذلك اليوم وهما لايزالان جالسين فى تلك الفجوة بين الانقاض والتى كانت فى الأصل غرفة قيادة لسفينة صغيرة يقف فيها القبطان آمرا ناهيا فيطاع أمره ونهيه ... كان الصمت بعد أن طبعت زغدانة قبلتها فوق وجنته خفيفا كغلالة رقيقة تحميهما من حرارة الصيف فى ذلك الظل ، ومن فتحة الكابينة كان سطح المياه فى الميناء يترقرق تحت اشعة الشمس المائلة ، وثمة تيار من الهواء الرطب يخترق الفتحة لينفذ من النافذة فيبعث الخدر فى الأوصال ... حتى اذا ماتحسس مندى مكان العضة فى عنقه ، جاءه صوت زغدانه متكسرا نائما : « لسه زعلان !»

ولم يرد !

ذلك أن الأمر بدا له محيرا كل الحيرة . فلقد آلمته عضة زغدانة ، لاشك فى هذا، سالت من لحمه الدماء وجفت وصنعت مع الوقت قشرة غير أنها تورمت وتحول لونها الأزرق الى لون أسود ، كانت تؤلمه نعم ، غير أنه كان يشعر مع الألم بلذة غريبة ، لذة حقيقية كتلك اللذة التى اجتاحت جسده لحظة أن التصقت شفتا زغدانة المكتنزتين بوجنته ... مالت زغدانة ، وقد طال صمته ، نحوه ، فلفحت أنفاسها الجرح فى أسفل عنقه فسرت فى جسد مندى رعشة واجتاحه الخدر عنيفا ...

«بتوجعك ؟!»

«آه ... لأ ... »

ضحكت ضحكة خفيفة ... قالت :

«أمى سألتنى عنك !»

التفت نحوها فاذا أنفاسهما مثل عاصفتين تهبان من اتجاهين مختلفين ، واذا دوامة من الأنفاس المختلطة تدور بين وجهيهما ، واذا لحظات سكرى تجتاحهما معا ، واذا هى تهمس :

«آنى بنحبك ياوله !»

«حبك برص وعشرة خرس يابنت أبو شفة !»

هكذا انفجر الصوت غليظا غاضبا ... وامتدت الى الداخل ذراع قوية لتقتلع مندى دون أن ينتبه من مكانه فكأن عصفور أمسكته يد عملاق ... وجد مندى جسده يسبح فى الهواء خارج الكابينة ، وذراع أخرى تحمله من ساقيه ، وجسد حوده يخطو به فوق الانقاض حتى اذا هبط التل الحديدى وأصبح مستقرا فوق الرصيف ، هوى بجسد مندى الى الأرض فى عنف وهو يصرخ :

«لو هوبت ناحيتها تانى حانجيب اجلك !»

تمرغ مندى فوق أتربة الرصيف وارتطمت رأسه بقطعة من الحديد فسالت دماؤه وانتابه الدوار ، حاول النهوض فحجبت الدماء السائلة فوق عينيه الرؤية ، غير أن شبح حوده كان ينتصب جبارا فوق رأسه ، وصوته يزأر ليملأ الرصيف بالصياح والصراخ :

«تعالى شوف بنتك يابوشفة !»

مسح مندى الدماء من فوق عينيه وهو ينهض مترنحا عندما فوجىء بجسد زغدانة يقفز من فو تل الحطام لتتعلق بعنق حودة وهى تصيح :

«مالها بنت أبو شفه ياصايع ياضايع !»

قبل أن يرد حودة كانت زغدانة قد انشبت اسنانها فى عنقه ، فتح حودة فمه ليصيح غير أن الصرخة كانت أسبق من الكلمات ، تجمع الرجال والشباب وبدا وجه أبو شفه بين الجميع بعينه الواحدة وشفته المشقوقة وذراعه المبتورة ، واندفعت من وسط الجميع أم زغدانه وهى تولول :

«مالها بنت أبو شفة يابن نفيسة !»
كانت زغدانة قد قفزت الى الأرض صارخة .
«أوعى تهوب ناحيتى تانى الا ومقام المرسى أجيب أجلك !»
«مالك ومالها ياحودة !»
وزمجر صوت أبى شفة مدمدماً :
«اية العبارة ياجدع !»
وقبل أن يرد حودة على أحد منهم ، كان جسد مندى يقفز فى الهواء ليرتطم بجسد حودة القوى ، وارتفعت يده تحمل قطعة من الحديد غير المنتظم لتضرب بها الرأس فتهشمه ، لولا صرخة زغدانة :
«مُندى !»
وتوقفت اليد فى الهواء ، وكانت تلك هى اللحظة التى ينتظرها حودة ، فطوح بجسد مندى الى بعيد مرة أخرى ، وقبل أن يفيق مندى كانت زغدانة تصرخ فيه :
«انت عاوز تودى نفسك فى حديد علشان بغل زى ده !»
«أنا بغل يازغدانة ؟!»
هكذا هدر صوت حودة .
«امال انت ايه ؟!»
«انا حودة يابت ... أنا حودة اللى مفيش منه اتنين فى المينا لسه ... أنا حودة اللى مالوش كبير واللى يجر أجدعها مركب لوحده ... نسيتى حودة يازغدانه ؟!»
«لا مانسيتشى خيبتك لسه !»
وانطلقت الضحكات من الجمع الذى كان يحيط بمكان الحادث ... وقبل أن يفيق أحد لما كان يحدث ... علا صوت واحد من الجنود الثلاثة من فوق السفينة التى كانت ، حتى ذلك الوقت ، تبدو مهجورة :

«جو اواى »
كانت الصيحة معززة بمدفع رشاش سدده الجندى الى الجميع فساد الصمت .
«جو اواى !»
علمتهم تجارب السنوات التى عاشوها فى الميناء ، ان جنود الاحتلال لايتورعون عن شيء ... بدأت أقدامهم تتحرك فى كل اتجاه وفى لا اتجاه ، وكل العيون ، كل العيون كانت تنظر الى فتحة المدفع الضيقة ، التى كان من الممكن أن ينطلق منها الموت فى أية لحظة !

***

عندما انساب آذان العشاء فى سماء الميناء يكبر باسم الله ، كان كل شيء فوق الرصيف قد هدأ ، وكان الكوخ الصغير الذى صنعه أبو شفة من بقايا السفن وحطامها تضيئة شعلة غمست نهايتها فى الكيروسين ، وكانت ترسل مع الضوء الخافت المتلاعب ، سيلا لانهاية له من الدخان .

وكان الرجل مازال صاحيا يتساءل :
«بكره يقولوا لنا شيلوا القهوة من هنا !»
« طب وحانروح فين يا أبو زغدانه ؟! »
وكانت زغدانة ترقد فى ركن المكان متظاهرة بالنوم ، غير أنها سمعت الحديث ، وكان ذهنها غائبا تماما ... كانت تفكر فى مندى ...
لكنها أبدا ، لم تكن تعرف ما الذى يفكر فيه مندى فى ذلك الوقت بالذات .

بل ... لم تكن تعلم مايخبئة لها وله القدر من أحداث . لم تكن تعلم ، ان هذا الانجليزى بالذات ، سوف يكون أول ضحايا حبها الذى راح ضحيته العديد من الرجال .

## • الصورة الثالثة •

كان لوقع الحادثين اللذين وقعا على رصيف النورس فى ذلك اليوم أثر كبير فى من كان يحيا فى المينا ويسترزق منها قوت يومه .

تعالت أصوات الصيادين من قواربهم وهم يلقون الشباك فى المياه أو يمسكون بالسنانير يحكون حكاية حوده والواد مندى ، ثم حكاية الانجليزى الذى أمر الجميع بالرحيل .

فى قيعان السفن حيث كان عمال الترسانة يعملون ملطخى الوجوه والأذرع والأجساد بالزيت والشحم ، كان الجميع يتبادلون الأحاديث ..

أما فى تلك السفينة التى كان يعمل بها حودة بالذات ، فان الحديث كان قد أخذ مسارا آخر ... فرغم قوة حودة الأسطورية ، ورغم خوف الجميع منه ، الا أنه لم يخل من منافس فى القوة ربما ، أو فى الحب لايدرى أحد ... وكان هذا المنافس هو الأسطى مصطفى .

«أيه العبارة دى ياحودة !»

كان الرجال يعملون فى غرفة الآلات . تلك الغرفة المتسعة التى تتشابك فيها المواسير والآلات فى غابة صغيرة من الحديد تجعل للصوت صدى يتردد فيصل الى كل ركن والى كل اذن ... وكان الرجال هناك كثيرين ، قد تناثروا بين المواسير وأذرع الآلة البخارية كالقروذ ، وكانت

صيحة الأسطى مصطفى واضحة عالية ساخرة ... وقد وصلت الى أذنى حودة بجلاء فلم يستطع تجاهلها !!

كان حودة الآن محنيا فوق ذراع «كرنك» الآلة الهائل فاستقام تاركا للذراع الحديدية فرصة الحركة كبندول الساعة ، كان الغضب ينبثق من عينيه وهو يصيح :

«عبارة أيه دى يامعلمى ؟!»

ساد الصمت وكف الدق وسكنت الحركة وأرهف الجميع السمع فلقد ايقنوا أن المعركة آتية لاريب فيها .

«اية عبارة الولة اللى اسمه مندى ده ؟!»

«عيل وغلط يامعلمى وأهو اخد اللى فيه القسمة !»

« بيقولوا ان زغدانه عضتك !»

لم يكن حودة يخشى شيئا فى الدنيا قدر خشيته أن يخوض الحديث فى موضوع زغدانة ... ابتلع لعابه ، والقى المفتاح الهائل من يده الى الأرض الصلبة فصنع المفتاح دويا زاد من عمق السكون فى غرفة الآلات . ساد الصمت لثوان جاء بعدها صوت حودة !

«محدش له دعوة بزغدانة . هى كلمة !»

اقترب منه مصطفى ساخرا وفى يده مفتاح حديدى مشرع فى الهواء !

« بلاش نسألوك ياجدع على اللى حصل ؟»

«أيوه بلاش يامعلمى !»

«يبقى فيه حاجة تكسف !»

«طب انت عاوز ايه على الصبح ؟!»

«عاوزك تأخد وتدى معانا ياجدع ، هو احنا برضك مش أهل !»

«وهم الأهل يقولوا قواله زى دى برضك ياجدع !»

«طب نعملوا ايه اذا كان اللى شاف بيقول ان الواد مندى كان حايفتح دماغ البعيد لولا زغدانة هى اللى حرصته لأجل مايروحش فى حديد !»

كانت هذه هى الذروة . وتوتر الجميع قبل أن يقبض حودة على خناق مصطفى صارخا :

«وبعدها لكم يامعلم مصطفى . تحب تشوف !»

وقبل أن يفتح مصطفى فمه ، علا فى المكان ذلك الصوت الموسيقى الذى تعوده الجميع فى مثل تلك الساعة من الصباح ، عندما تأتى زغدانة اليهم بالصينية الصدئة وفوقها أكواب الشاى اللزجة بفعل السكر المنثور على حافتها ... وصوت الملعقة يقلب الشاى مرتطما بجدران الأكواب صانعا ذلك النغم الرقيق ، والذى يسيل له لعاب الرجال . ذلك أنهم جميعا ، وبلا استثناء ، كانوا يعشقون الشاى من يد زُغدانة ، وكانوا ، جميعا ، يدهشون لذلك الطعم الغريب الذى يبعث بالنشاط الى أجسادهم كلما احتسى أحدهم كوبا صنعته أم زغدانة .

فى خفة كانت زغدانة تهبط السلم الحديدى المستقيم وهى تحمل الصينية فى يد ، وتسند جسدها المعلق بالسلم باليد الأخرى ، تقف بين الفينة والفينة ، كأنها لاعب اكروبات ماهر ، لتدور بساقها حول جانب السلم فتحمى نفسها من السقوط ، وتدير الملعقة فى الأكواب ، وتصيح بصوتها الناعس :

«صباح الفل ياجدعان !»

وكان صوتها هذا ايذانا للمعركة بأن تنتهى ... وكان أيضا ، ايذانا للعاب الرجال أن يسيل ولعيونهم أن تلتهم جسد زغدانة ووجهها وهى تدور بينهم بالأكواب مرددة تحية الصباح بوجه باسم ، وعينين تشعان ببريق سعادة لايخفى .

«صباح الفل يامعلم مصطفى !»
«مرحب زغدانة .. اية عبارتك يابت !»
«اللى يسأل مايتوهش يامعلم .. نهارك نادى ياشاكوش !»
همس شاكوش وهو يأخذ كوبه فى لوعة :
«نهارك أبيض يازغدانة !»
وكان حودة هناك عندما وقفت زغدانة أمامه تقلب له كوب شايه :
«صباح الخير ياأسطى حودة !»
«ازيك يابت !»
«نحمدوه على اللى ياخده ، ونحمدوه على اللى يجيبه ، كده رضا !»
من بين أسنانه وفى صوت هامس قال :
«وبعدها لك فى اللى انتى فيه ده !»
استدارت زغدانة دون كلمة ، ومضت فى طريقها يشق جسدها سبيله وسط عشرات العيون التى كانت تتطلع اليها . الصينية فى يدها خالية والملعقة بين أسنانها ، ويداها وقداماها تخطفان درجات السلم قفزا سريعا .

***

قال أبو شفة لزوجته :
«البنت اتأخرت فى المركب !»
«من امتى بتقلق عليها ياكومى !»
«آنى مش قلقان عليها ياولية ... آنى قلقان من المركب الانجليزى الملقحة هناك دى !»
«احنا مالنا وماهم !»
«امبارح قالوا جو أواى من هنا .. بكرة يقولوا جو أواى من الرصيف كله !»

«انت حا تقدر البلا قبل وقوعه ليه ؟»
«البت اتأخرت !»
والتفتت اليه المرأة فى خوف :
«مالك ياكومى !»
فى حزن حقيقى وغامر ، تمتم الرجل :
«الانجليز مايعرفوش ربنا ياأم زغدانة !»
وكانت جملته هذه ، انذارا دق له قلب الأم ... و ... وكانت دقات القلب على حق !

***

فى ظل ريشة هائلة لرفاص سفينة عملاقة ، كان مندى يقف الآن فى انتظار خروج زغدانة من السفينة ... ذلك أنه ، وبعد ماحدث بالأمس ، قد جاء الى الرصيف قبل أن تشرق الشمس ... خوف غريب كان قد غزا قلبه على زغدانة ، لا مما فعله حودة ، ولكن من ذلك الرجل ذى الوجه الأحمر والشعر الأصفر والعينين الزرقاوين والأنف المدبب ، ذلك الرجل الذى كان يحمل فى يده مدفعا رشاشا له فوهة ينطلق منها الموت ، والذى أمر ، فأطاع الجميع ، ونهر ، فصمت الجميع ... ذلك الرجل بالذات هو الذى بعث بالخوف الى قلب مُندى ... ذلك الرجل بالذات رأى فى عينيه نظرة تضم زغدانة الى جفونة . رآها . دونا عن الجميع ... رأى النظرة فدق قلبه . ولم ينم الليل . وساورته الشكوك ، وعرف مندى ، لأول مرة فى حياته ، طعم الغيرة !

... ... ... ...

... ... ... ...

وها هى زغدانة تغادر السفينة وهى تتلاعب بالصينية الفارغة فى يدها ... ها هى ذى تقترب منه وهى تعرف مكانه منذ أن مرت به فى طريقها الى السفينة ، وعندما حاول منعها نهرته متسائلة ان كان يريد منها أن

تكف عن العمل والكسب وأكل لقمة العيش بالحلال ... ها هى تقترب ، حتى اذا ماضاقت المسافة بينهما ، كانت عيناها تتلفتان يمنه ويسره ، وبسرعة ، قفزت داخل ركام السفن وذابت ، ولم يكن أمام مندى بد من العودة ... كان يعرف الطرق بين اطلال السفن ، فراح يسعى ويسعى ، حتى التقيا فى ظل جدار سفينة امتلأ بالاعشاب والقواقع والديدان .

«صباح الخير يازغدانة !»

«اية اللى جابك بدرى كده ياجدع !»

«دانى مانمتش طول الليل !»

ورغم انها ــ أيضا ــ لم تكن قد نامت طوال الليل ، الا أنها شهقت صائحة :

«ليه بقى اسم الله !»

«زغدانة !»

فى تأفف قالت :

«عاوز ايه منى !»

«مش عاوزك تهوبى ناحية الانجليز !»

صمتت زغدانة تماما وهى تحملق فيه .

عادت فأرسلت من عينيها تلك النظرات المشعة التى تصيبه بالدوار والخدر ..

سألته وصوتها يتبدد مع الرياح التى كانت تخترق الفجوات بين الاطلال :

«ايه اللى خلاك تقول حاجة زى دى ياجدع !»

«مش عارف !»

«وهم الانجليز بيشربوا شاى ؟!»

«لأ ... بس بياكلوا البنات !»

و ... وكانت هذه هى المرة الأولى التى تشعر فيها زغدانة بخوف حقيقى . وأكد حديث مندى نظرة الخوف تلك وتعرف عليها . دق قلبه وانطلق لسانه مجلجلا :

«اللى حا يمد ايده عليكى بعد النهاردة آنى حانجيب أجله !»

ضحكت فى سخرية وهى تقول :

«زى ماجبت أجل حودة امبارح !»

«انتى اللى قلتى لى لأ يابت !»

«وسمعت كلامى ليه ؟!»

اجتاح الغيظ مندى اجتياحا حتى راح يجز على أسنانه ، لكن ابتسامة زغدانة كانت تتسع فى سعادة وقد أدركت كم يحبها ... قبل أن يفتح مندى فمه لاحقته زغدانة بكلمة أخرى :

«وانت حاتفضل صايع لامتى ؟!»

«مانى مش لاقى مركب نطلع عليها !»

«اسم الله . اللى عاوز يدور !»

«دورت يازغدانة !»

راحت تردح له وقد نسيت نفسها فكأنها زوجة تؤنب زوجها :

«دورت فين يادلعدى . على رصيف النورس »؟!»

«قلت لك دورت !»

«تحب أجيب لك شغلانة ؟»

«فين ؟!»

«على المركب اللى بتتصلح دلوقت !

«ازاى ؟!»

«قبطانها يعرف أبويا . والعمرة حاتخلص بعد جمعتين ولو حضرت

أوراقك من النهاردة ها تلحق وماتبقاش لك حجة بعد كده . قلت أيه ؟»

« انتى عاوزه تطفشينى يازغدانه ؟! »

« لأ . بس مش عاوزة نتجوز عواطلى ! »

***

بدا مندى فى تلك اللحظة وكأن أبواب الجنة قد فتحت له ... لقد سمع أن الرجال هم الذين يطلبون الفتيات والنساء للزواج ، غير أن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها فتاة تقرر الزواج من رجل ... اجتاحته سعادة لانهاية لها ، ارتجف بفرحة طاغية ، امتدت يده الى يد زغدانة فضغط عليها واستكانت يد زغدانة لضغطة يده .

«بتحبينى يازغدانة ؟!»

«دهدى . مانى قايلة لك ديك النهار !»

«يعنى بتحبينى ؟»

«أنا اتأخرت على أبويا وأمى !»

تململت فى محاولة للخروج من الشق الذى كانت تجلس اليه فيه . ضغط على يدها أكثر .

«وحودة ؟!»

«ماله حودة ياجدع ؟!»

«مش بتقولى انه خطيبك ؟»

«هو اللى عاز .. وآنى قلت يفتح الله !»

هتف مُندى فى فرح طاغ :

«آنى من بكرة حانطلع مركب !»

«وتغيب عنى بالسنين ياجدع !»

وقع مندى فى الحيرة . هاهى تطلب منه العمل . وهاهو الحزن يطل فى عينيها لأنه سوف يبتعد عنها اذا ما سافر ...

«وبعدها لك ؟!»

«فى أية ؟»
«نسافر والا مانسافرش ؟!»
«والله مانا عارفة .. سيب ايدى !»

***

وهكذا تركته زغدانة تحمل هذه المرة نظرة حزينة فى عينيها الخضراوين ، انطلق منهما ذلك البريق المخدر وراحت تزحف بين الانقاض وفى الشقوق حتى اختفت وتركته وحيدا فى جلسته ، ولم يشعر مندى فيما تقدم من سنوات عمر ، ولا فيما جاء بعد ذلك من سنين ، بمثل ماكان يشعر به الآن من راحة وسعادة وحب ... فجأة ، أحس أنه يحب زغدانة . يحبها حتى الموت ، يحبها ولا يستطيع أن يحيا يوما واحدا بدونها ... وهكذا ، وفى لمح البصر . تنازل مندى عن حلم أحلامه ، تنازل عن السفر ، وقرر أن يعمل فى الميناء ، حتى لايغيب عن زغدانة .

غير أنه لم يكن يعلم مايخبئة له القدر ، لم يكن يعلم أنه سوف يسافر مرغما ... وان قصته فى لوح القدر ، كانت تسير فى طريق آخر !

## • الصورة الرابعة •

نستطيع أن نقول ، دون أن نبالغ فى القول ، ان القصة الحقيقة ، قصة زغدانة ومندى ، قد بدأت فى ذلك الصباح الذى طلبت فيه زغدانة من مندى أن يعمل لأنها لاتحب أن تتزوج عاطلا ..

كان مندى نشوان بكل هذا الذى حدث بينه وبين حودة من ناحية ، وبينه وبين زغدانة من ناحية أخرى . ولقد انطلق ذلك اليوم الى أرصفة الميناء يدفعة ذلك الحماس الطاغى الذى يسرى فى عروق الرجل اذا ماأحس ان امرأته تريد منه شيئا ... غادر رصيف النورس ومضى لايلوى على شيء وان كان قد ألقى على السفينة الانجليزية نظرة خاطفة . وطافت بخياله أشياء اقشعر لها بدنه ، غير أنه طرد الوساوس من رأسه ، ومضى فى طريقه دون أن يدرى أن زغدانة هى الأخرى . قد سقطت فى بئر الحيرة .

«مالك يابت ؟!»

هكذا سألتها أمها فردت :

«مفيش ياأمة . حضرى طلبات الواغش احسن كانوا بيندهوا علىّ !!» .

وصاح الكومى من حيث كان يجلس :

«اتآخرتى ليه يازغدانة فى المركب !»

«آنى مااتأخرتش فى المركب يابا ؟»

«أمال كنتى فين ؟!»

«هه ؟!»

كانت هذه هى المرة الأولى التى تتردد فيها زغدانة فى الرد على سؤال كهذا ... ولذا فلقد تبادل الكومى مع زوجتة نظرة ذات معنى . مسح الرجل عينة المصابة وتحرك متململا فى مكانه . واعاد سؤاله فى الحاح . فانفجرت زغدانة :

«كنت مع الوله مُندى ؟!»

صاحت الأم :

«انت ايه عبارتك مع مندى يازغدانة ؟!»

«عاوزة نتجوزه !»

هكذا كانت زغدانة دائما . هكذا كانت . تعبر عن نفسها ببساطة بالغة ، وتقتحم المعانى دون وجل . وساد الصمت فى الكوخ الصفيحى . وازت ذبابة راحت تدور فوق الرءوس صانعة ذلك النوع الخانق من الضجيج . غير أن احدا من الثلاثة الذين كانوا هناك . لم يعرها أى اهتمام ، ووجدت الذبابة لنفسها مخرجا فى ثقب كانت أشعة الشمس تتسلل منه ...

«الطلبات يا امه !»

قال الكومى لابنته :

«هو اللى قال لك ؟!»

«لأ .. آنى اللى قلت له ؟»

خبطت المرأة على صدرها الهائل المكتنز باللحم :

«قلتى له أيه ياللى تنشكى فى لسانك !»

«قلت له انى بنحبه وانى مانحبش نتجوز عواطلى !!»

هكذا ، بوضوح ، ودون لف أو دوران ، طرحت زغدانة الأمر ، فعاد الصمت مرة أخرى ، غير أن الكومى قطعه وهو يدس تحت لسانه قطعة من المخدر الأسود الذى تعود عليه منذ ما حدث له الذى حدث ...

«حضرى لها الطلبات ياأم زغدانة !»

وكانت المرأة تعلم زوجها حق العلم ، لذا فلقد رفعت الابريق الكالح اللون وراحت تصب الشاى فى الاكواب القذرة ، بينما اخذت زغدانة تفرغ فى الأكواب كمية من السكر تكفى لكيلا يتذمر أخد من الزبائن ... وما لبثت ان حملت الصينية ونهضت مغادرة المكان .

***

ماهى الا ساعة وبعض الساعة حتى وجد مُندى وظيفة شاغرة فى قهوة شلوفة . وعندما مال الفتى على المعلم شلوفة هامسا فى اذنه بانه « على باب الله » ، حتى استدار الرجل نحوه ورفع حاجبيه الكثيفتين وراح يحملق فيه غير مصدق :

«انت يامندى عاوز تاكل لقمة ؟!» .

«بالحلال!» .

«اشمعنى ؟!»

«أصلى ـــ لامؤاخذة بعنى ـــ ناوى نتأهل !»

جلجلت ضحكة الرجل فى سعادة حقيقية ، فلقد كان المعلم شلوفة صديقا لأبى مندى ، وكثيرا مابدى الأب قلقه لأن «الواد» يحب الصياعة ولايفكر فى العمل أو الزواج ، وكثيرا ماقال شلوفة لصديقة ان الأوان سوف يأتى لاريب فى هذا ، ولقد صدق حدسه ، فضحك ، وكانت ضحكته عالية حتى التفت كل الزبائن من الصيادين وعمال الميناء . وكانوا فى مثل هذا الوقت قليلى العدد فهؤلاء هم سيئو الحظ الذين لم يجدوا فى الصباح عملا فراحوا يقضون يومهم بلا عمل أو وفى انتظار عمل !

«وله ياسلامه !»

وقفز سلامة الاعرج ، جرسون المقهى ، من حيث كان عند النصبة ، مخترقاً الموائد والمقاعد والدكك وهو يصيح بصوت منغم :

«عنيه يامعلمى !»

«خد مندى وعلمه الصنعة !»

«ياألف مرحب !»

قالها سلامة بمرح مصطنع ، وخوف حقيقى على لقمة عيشه ... والمسألة بالنسبة لسلامة هو الآخر كانت عويصه ، فهو أعرج منذ ولدته أمه ، لايدرى سبباً لعاهته ولم يسأل ، تلطم فى كل حرفة وكل عمل حتى استقر مع المعلم شلوفة منذ خمس سنوات مات فيها أبوه وأصبح هو العائل الوحيد لأمة واخته ...

«تعالى يامندى معايا !»

لكن مندى لم يشعر بما كان يدور فى خيال سلامة من خوف عربيد على لقمة عيشة ... فانطلق معه تدفعه حماسة بلا نهاية ، ووقف يرقب يدى سلامه الحاذقتين وهى ترتب الصوانى والأكواب وتغسل الملاعق ، ويستمع الى صوته وهو ينادى على الطلبات ...

تقدم مندى ليساعد سلامة ، ونجح ... من يومة الأول نجح ، وأصبح من السهل عليه أن يحمل الصينية ، فى آخر النهار وقد امتلأت بالأكواب ، وأن يهرول بها هنا وهناك ، وأن ينادى ويلعلع وينغم وكأنه ولد جرسونا ...

مندى لايعرف من أين جاءته هذه الموهبة التى أدهشت المعلم شلوفه وأسعدته فى نفس الوقت ... وعندما نادى المعلم على مندى ذات لحظة :

«ياأسطى مندى !»

كان هذا ايذانا منه بأنه قد ثُبت فى عمله وأُعتمد ...

هرول اليه مندى دون أن يلحظ نظرات سلامة التى كانت تنفث لهبا وخوفا ...

«ايتها خدمة يامعلمى !»

«نزل شاى على حساب المطرح للمعلم جابر !»

والتفت مندى فورا الى حيث تعود أبوه أن يجلس خارج المقهى ، على ذلك الصندوق القديم الذى أصبح وكأنه ملك له لكثيرة ماجلس عليه واستراح ، وراح يحملق بعينيه النفاذتين فى الأفق ، عبر الميناء وجبال السفن الداخلة والخارجة والراسية ، الى مبنى باب البوغاز ، هناك ، عند التحام البحر العريض بالميناء الهادئة ، هناك ، حيث تتلاطم الأمواج وتضطرب صيفا وشتاء وربيعا وخريفا ... اندفع مندى الى حيث النصبه صائحا :

«واحد شاى على حساب المعلم للمعلم جابر وصلحه !»

قال هذا وهو يجذب صينية راح يجففها مما علق بها من مياه . ثم يختطف كوبا ملأ ربعه بالسكر ، وكوب مياه استقر فوق الصينية ، وحبل الشاى ينساب من البراد الكبير أسود اللون ذا رائحة نفاذة ، ومالبث أن اختطف الصينية وهرول بها حتى وضعها بجوار أبيه :

«مسا التماسى ياأسطى جابر !»

رفع الرجل عينيه النفاذتين الى ولده :

«ازيك يامندى ؟!»

«نحمدوه يابا !»

«خلاص يامُندى؟!»

تراجع مُندى خطوة وقد ادهشته رنة الحزن فى صوت ابيه !

«خلاص ايه يابا ؟!»

«نويت تكمل نص دينك من غير ماتقول لى ؟!»

خطف مندى نظره من خلال الجدار الزجاجى للمقهى الى حيث كان المعلم شلوفة يجلس خلف البنك العالى جلسته التى تبديه وكأن قاعدته قد التصقت بالمقعد الى الأبد ، وتذكر كل شىء وارتبك .

«يابا ... »

«من غير ماتقول لى يامندى ؟!»

«ماهو انى يابا كنت ..... »
«من غير مانفرح بيك انا وأمك ياوله ؟!»
«يابا ومقام المرسى آنى كنت ....... »
وتوقف مندى مشلولا أمام نظرات أبيه . تلك النظرات الغريبة النافذة التى تحمل فى أعماقها آلاف المشاعر المتضاربة والتى تحولها الى شىء مخيف .

«حقك على يابا . غلطة ومش حاتعود !»
ادار الرجل رأسه الى الناحية الأخرى قائلا فى اقتضاب :
«والا أنت ... ... ..»
ووصلت الرسالة الى مندى ببساطة . كان غضب أبيه قد طرده من البيت ، وأيقن فى لحظة ، أنه أصبح بلا مأوى ، وأن عليه أن يبحث عن مكان يبيت فيه ... كان مندى يعلم من هو أبوه اذا ماقال شيئا ، لذا فلم يجادل ... استدار منسحبا عندما جاءه صوت أبيه :
«خد ياجدع !»
وتسمر مندى فى مكانه . لم يعمل حسابا لمثل هذه المصيبة ، كان يعلم علم اليقين أن أباه عندما ناداه بياجدع ، فلقد انقطعت بينهما الصلة حتى الأبد .
عاد اليه مدحورا :
«نعم يامعلمى !»
«شيل الصينية دى من هنا وخلى سلامة هو اللى ينزل لى الطلب !»

فى صمت ، انحنى مندى وحمل الصينية ، وفى منتصف الطريق الى النصبه التقى به سلامه :
«ايه العبارة ياأسطى مندى ؟! »

«المعلم جابر عاوز الطلب من ايدك أنت ياسلامة !»

اختطف سلامة الصينية فى فرحة لم يستطع اخفاءها . وربما ، لأول مرة منذ دخل مندى الى المقهى ، يشعر وكان كابوسا قد انزاح من فوق صدره ... غادر المقهى الى حيث كان المعلم جابر يجلس مقطب الجبين مهموم الملامح ، وكان يحجل راقصا وهو يصيح :

«أحلى تماسى على أحلى معلمين فى الشط كله !»

وضع الصينية وراح يقلب السكر غير المذاب فى الشاى قائلا :

«مساء الخير يامعلم جابر !»

لكن جابر لم يرد التحية .

وكان مندى ، فى نفس اللحظة ، يغادر المقهى بعد أن اعتزل أول أعماله الى الأبد !!

هذه هى دنياه ...

هنا فقط يستطيع مندى أن يستريح ، داخل انقاض السفن الخشبية والحديدية ، تحت ظلال أجسادها الصدئة وغابات القواقع والأعشاب البحرية التى التصقت بها ... وكان الوقت غروبا ، والشمس تميل هناك ، عند نهاية الأفق ، لتصبغ لون البحر ، وأصوات طائر النورس تتصاعد فى صرخات مرحة ربما ، أو غاضبة ربما وهى تبحث بعيونها عن الأسماك تحت سطح المياه ...

هنا فقط ، أحس مندى أنه أمضى يوما بلا حياة ...

ورغم جسامة ماحدث بينه وبين أبيه ، الا أنه كان ، وهو فى هذا المكان ، يشعر بالراحة تغمره حتى النخاع ... غير أنه سرعان مااستدار نحو باب البوغاز ، نفس المكان الذى ينظر اليه أبوه ، واجتاحت نفسه رغبة عنيفة فى الرحيل ، يريد هو أن يتخطى هذا الحاجز الى حيث الدنيا

واسعة بلا حدود . أحلام العمر فى النوم واليقظة معا ... فكيف ، كيف يستطيع؟!!!

صكت أذنيه خطوات قدمين حافيتين ، فالتفت من مكمنه وعرف صاحبة القدمين ... وقبل أن تصل اليه ، برز لها من تحت القارب المرفوع والذى كان قد قرر أن يتخذه بيتا ... قفزت زغدانة الى الخلف محملقه فيه ، ارتسمت على وجهها ابتسامة سرعان ماابتلعتها ملامحها لتنفث عيناها غضبا بلا حدود :

«كنت فين ؟»

«طب قولى مساء الخير يازغدانة ؟»

«كنت فين ياللى ماتتسمى ؟!»

« بنشتغل !»

توقفت غير مصدقة ! ... تقدمت منه فى بطء ، هبطت اليه فزحف الى الداخل مفسحا لها مكانا فزحفت خلفه ، والتصق ذراعها بذراعه فاشتعلت فى جسده النار !

«كنت بتشتغل فين ؟!»

« فى قهوة شلوفه ! »

فى استنكار رهيب قالت :

«جرسون ؟!»

صفعته الكلمة فهتف :

«أمال انتى بتعملى أيه ؟»

كالقطة المتوحشة استدارت نحوه :

«مالكش دعوه بيه !»

«وهو انتى بس اللى ليكى دعوة بيه !»

انتفضت من مكانها استعدادا للرحيل فى غضب :

«فتك بعافيه !»

امسك بذراعها ولم يدر أن قبضته كانت قوية :

«رايحة فين ؟»

«مالكش دعوه !»

«طب مش ناخد وندى !»

«سيب ايدى ؟»

«لأ ! »

فى لمح البصر كانت تميل باسنان مشرعه نحو يده غير أنه كان أسرع منها ، كانت الدماء تتفجر فى عروقة مزغردة . أمسك بشعرها فى عنف ، رفع رأسها نحوه ، عيناها الخضراوان ترسلان .ليه ذلك السحر الذى يذيب كل شىء ، ويحوله هو ، الى قطعة من العجين بلا حول ولا طول ، غير أن فمها المفتوح ، وأسنانها المشرعة كوحش يستعد للافتراس . وشفتيها المكتنزتين دفعت به نحوها . فقط . اقترب منها مندى بوجهه ، وكان باسما .

همست :

«سيب ايدى !»

احس مندى بذراعها يستسلم لقبضته ، وبرأسها يترك نفسه لجذبته ...

«أبويا طردنى من البيت !»

«معاه حق !»

«علشانك !»

كان الليل قد ظلل الدنيا ، وصوت الحياة يصل اليهما مثل موسيقى حالمة . وكانا معا ، راقدين فى قاع القارب الذى جهزه مندى ببعض ألواح من اخشاب تجعل الرقاد لينا ، وكانت عيونهما نحو السماء ترسل الاحلام فى كلمات هامسة :

«آنى مش عاوزاك تسافر !»

«طب ونشتغلوا ايه هنا !»

«الشغل للى يدور عليه !»

«وترجعى تقولى لى كانى ومانى ؟»

هبت جالسه :

«آنى اتأخرت !»

«وآنى حانبات هنا !»

التفتت اليه . ونظرت اليه . وأحست زغدانة أنها ترى مندى لأول مرة فى ضوء النجوم ، وأحست بما لم تشعر به أبدا . بذلك الفيض المخيف من الاحساسيس يجتاحها اجتياحا ... غير ... غير أنها زغدانة ، وما كان ينبغى لها أن تفعل مالايجب أن تفعل . وفى لمح البصر ، كان جسدها يطير فى الهواء قافزا من فوق القارب الى الرصيف ... وسمع مندى فى رقدته النشوى ، صوت قدميها الحافيتين وهما تخطوان فوق الأرض المبدورة ببقايا السفن ... ثم ذابت الخطوات .

ولم تمض دقيقة .

ربما أقل .

ربما دقيقتان ... حين اندبت فى قلب مندى صرخة عاتية ملتاعة ...

قفز واقفا كالمجنون ، فهذا صوت زغدانة .

فى الظلام لم ير شيئا غير أن صرخة أخرى جاءته :

«يامندى !»

وقفز فى الظلام يتخبط بحثا عن صوت زغدانة وقد ألم به الجزع حتى أصبح يرتجف .

## • الصورة الخامسة •

هكذا تحدد مصير مندى فى تلك الليلة الغريبة من ليالى الخريف فى ميناء الاسكندرية فوق ذلك الرصيف الذى يُعرف حتى الآن ، ومنذ تلك السنوات البعيدة ، برصيف النورس ... فما أن شقت الظلام صرخة زغدانة ، حتى قفز مندى من مكمنة كالمجنون بحثها عنها ... كان الظلام يسود كل شيء ، كل شيء ، لاضوء الا تلك الأضواء التى ترسلها السفن العابرة فى بطء أو الراسية هنا أو هناك ... انطلق مندى لاهثا لايلوى على شيء ، لايعرف الى أين يذهب ، فلقد عم الصمت مرة أخرى وساد ووجد مندى نفسه يتوقف كالمجنون قد شُل عقله تماما ... وزحفت عيناه ، دون أن يقصد ، نحو السفينة الانجليزية الراسية على اليسار ، هناك ... كان ثمة مصباح أزرق ينير سلم السفينة القصير ، وعند السلم ، كان واحد من الانجليز يجلس ــ كالعادة ــ بجوار سلاحه ، وفى يده زجاجة خمر كان يرفعها بين الحين والحين الى شفتيه وهو ينظر نحو الأفق ...

اقترب مندى من السفينة الانجليزية وراح يتحسس كل شيء بعينيه وأذنيه لكن شيئا غريبا لم يلفت نظره ، هم الجندى فى مكانه ، وبلسان ملتو صاح وهو يضع يده فوق البندقية :

«جو أواى»

هكذا كانوا دائما ، ما أن يقترب أحد من سفينتهم الغامضة تلك حتى يصيحوا فيه أن يذهب بعيدا ، ولقد ذهب مندى بعيدا غير أن شيئا ماكان قد برق فى ذهنه ، أم يطلب منهم هؤلاء الإنجليز الابتعاد عن السفينة ، كانت سفنهم الحربية تملأ الميناء وكان الرجال يبيعون لهم ويشترون ، كانوا يصيحون فى المصريين أن يبتعدوا اذا ماظهر القبطان بوجهه الأحمر وأنفه المتعجرف فوق ظهر السفينة ، غير أن هذه السفينة بالذات ، ومنذ أن جاءت الى هنا ورست على رصيف النورس ، لم يكن فيها سوى هؤلاء الجنود القليلى العدد ، لم يكن هناك قبطان ولم تكن هناك حركة أو عمل ... يظهر البعض منهم على ظهر السفينة ويختفى البعض الآخر فى داخلها ... ولكن أين زغدانة ، ولم صرخت ؟!

أطلق مندى لساقيه العنان وراح يجرى بكل قواه نحو عشه الكومى ، كان المصباح الغازى يرسل لهبه الواهن مع شريط نحيل مرتجف من الدخان عندما اقتحم مندى المكان على الرجل وزوجته ... كانا راقدين متجاورين ، وكانت النار قد اطفئت . والأكواب قد صفت وهجع كل شيء ... قفزت أم زغدانة جالسة فى فزع :

«بسم الله الرحمن الرحيم . مين ؟!»

« أنا ياخالتى أم زغدانة ! »

كالفهد ، وبذراع واحدة ، كان الكومى قد قفز ممسكا بتلابيب مندى فى عنف اذهل الشاب الذى كان يرى فى الكومى رجلا اكتع أعور محطما ...

«ايه اللى جابك هنا يوله ؟!»

«زغدانة ياعم كومى !»

صاحت الأم :

«مالها زغدانة ؟!»

«سمعتها بتصرخ على الرصيف طلعت نجرى وندور عليها لقيتها زى فص ملح وداب !»

«يعنى ايه الكلام ده !»

«زى مابنقول لك كده !»

وهكذا انقلب الليل الى نهار ، زحف الكومى ومعه مندى وأم زغدانة وكل منهما يطلب منه اعادة ماحدث ، قلبوا الرصيف رأسا على عقب ، نقبوا فى كل مكان ، وركض مندى ليجمع الرجال ، حودة والرجال ، وامتلأ الرصيف بالخلق . بحثوا عن زغدانة فى كل مكان ، ولهثت الأنفاس ، وتضاربت الأقوال .. واستقر الرأى على أن زغدانة قد غرقت فى مياه الميناء !

***

لا أحد يعرف كيف طلع النهار . لا أحد فلقد امتلأ الرصيف بالخلق ، بالرجال ، كل الرجال الذين يعرفون النورس وسفن النورس والكومى وزوجته وابنته التى ألهبت مشاعر الجميع ، غير أنه مع طلوع النهار ، ومع شروق الشمس ، كانت زغدانة تأتى من هناك ، من ناحية سفينة الانجليز ، كانت تأتى ممزقة الملابس مهوشة الشعر حمراء العينين ، كانت تزحف ولا تسير ، كانت منكسة الرأس لاتصيح فى الرائح والغادى ، وكان أول من رآها هو الكومى ، رآها بعينه الواحدة قبل الجميع ، صاح باسمها فالتفت بعض الذين كانوا من حوله ، وتراجع الذين كانوا يستعدون للغوص فى المياه بحثا عنها ، وهرول الجميع نحوها ...

«ايه الحكاية يازغدانة ؟»

« ايه اللى حصل يابت !»

«مالك ياضنيايا ؟»

«يابت انطقى !»

الجميع . الجميع بلا استثناء راحوا يمطرونها بالأسئلة عدا مندى ،

هو الوحيد الذى وقف متسمراً فى مكانه ، وقد أحس وكأن شرخا هائلا قد حدث فى صدره فقسمه الى نصفين ... وظلت زغدانة صامتة تحيطها تلك الكرة البشرية التى كانت تفتح أفواهها فى أسئلة بلا نهاية ، حتى اذا ما رفعت زغدانة رأسها ، والتقت عيناها الخضراوين الدامعتين بعينى مندى ، حتى انفجرت فى بكاء عميق ، وهى تهوى الى الأرض متمرغة فى التراب وبقايا الحديد والحصى !

***

لم يكن هناك مايمكن أن يقال أو يعرف ، فلقد اختطف جنود السفينة الانجليزية زغدانة ، وأبقوها معهم طوال الليل . طوال الليل . طوال الليل .

***

قبل أن يتجمع الرجال ، وقبل أن تثور فى صدورهم تلك الثورة التى يعرفها جنود الامبراطورية البريطانية ، كان الرصيف قد امتلأ بالجنود ، وكانت الأوامر قد صدرت باخلائه من المصريين جميعا ، وكان مدخله الشرقى قد أغلق بحراسة مشددة . أما قمته المطلة على البحر ، فلقد رسا عندها لنش مسلح ... وبات أهل الميناء تلك الليلة ، يحكون حكاية زغدانة !

***

قدر لمندى أن تبدأ حياته بداية جديدة فى تلك الليلة المشئومة ، وهو ، فى ذلك الوقت ، وفى ذلك العمر ، لم يكن يدرى ما الذى كان يمكن أن يفعله ، ولقد أمضى يومه وليلته وهو يضرب على غير هدى ، اختفت العشة الصفيح وهدمها الانجليز ببساطة والقوا بمحتوياتها ، بكل مايملك الكومى للقمة عيشه ، الى المياه ... وأصبح الرصيف مهجورا ، حتى تلك السفن التى كان راسية عليه للاصلاح ، توقف العمل فيها وفرضت عليها الحراسة ...

ذهبت زغدانة الى حيث لايدرى مندى ، اختفت مع أبيها وأمها ، وقال البعض أنهم يسكنون مع خالتها فى غرفة واحدة ، وقال البعض أن المعلم جابر أخلى غرفة فى بيته ... وقيل وقيل وقيل ... ولكن ، لاأحد قد رأى مندى فى تلك الأيام ، فلقد اختفى الفتى هو الآخر فجأة ولم يعد يراه أحد ، وتساءلت أم مندى عن ولدها ، وزمجر المعلم جابر الذى كان قد أخلى غرفة بالفعل فى بيته للكومى وزوجته وابنته المنكوبة ، زمجر ولم يرد على زوجته وان كان الفأر قد لعب فى عبه ؛ فهاهى الفتاة التى أحبها ولده وقرر الزواج منها تُغتصب علنا أمام الجميع وأصبحت فضيحتها بجلاجل ، ولاأحد يعرف من الفاعل ، فلقد اختفى الانجليز الثلاثة الذين يقطنون تلك السفينة الغريبة الصامتة ، اختفوا خلف أسوار الحراسة التى فرضتها السلطة على الرصيف الذى أصبح خاويا بعد أن سحبوا كل السفن من حوله ... زمجر المعلم جابر وان كان خوفه على ولده بدأ يتصاعد ، حتى لقد همس لبعض رجاله أن يبحثوا عنه دون جدوى ، فلقد كان مندى وكأنه فص ملح وذاب فى مياه الميناء المترامية هنا وهناك ... وراح خوف الرجل يتصاعد كلما مرت الأيام ... وبدأت الأقاويل والشائعات تتناثر هنا وهناك ... فأين ذهب مندى ؟!

كان هذا هو السؤال الذى لم يعرف أحد له جوابا ، حتى لقد سرت شائعة تقول أن الانجليز قد اختطفوه هو الآخر وقتلوه واخفوا جثته فى قاع الميناء بعد أن ربطوا اليها ثقلا حديدا يمنعها من الطفو !!

***

غير أنه ما كان للأيام أن تمضى على وتيرة واحدة ... فلقد أصبح اختفاء مندى شيئا عاديا ، كما خرجت زغدانة الى الحياة منكسة الرأس ... كانت هى الوحيدة التى تعرف أين ذهب مندى ، وكانت هى الوحيدة التى تعرف ما الذى حدث له ساعة أن رآها ممزقة الملابس مهوشة

الشعر منكسة الرأس ... وعندما كانت تغادر البيت فى أيامها الأولى كانت تغادره مع أمها ــ بعد الغروب حتى لاتلتقى ولا يلتقى بها أحد ــ كانت تذهب مع أمها لزيارة قريبة أو صديقة ، لكنها فى كل مرة كانت تعود ممزقة الاعصاب باكية ، كانت نساء الحى يعاملنها برفق وحنان معا . لكنهن أيضا كن يخفين عنها بناتهن ... وكانت الأم تعلم ، كما كان الأب يعلم مايجرى لابنتهما ... حتى اذا جاء يوم بدا لهما وكأنه يوم الفرج ... عندما تقدم حودة ، بشهامة أكبرها فيه كل أهل الحى ، الى الكومى يطلب يد زغدانة .

جلس حودة على المقعد الوحيد فى الغرفة بينما كان الكومى جالسا تحت النافذة القرفصاء وهو يرشف من كوب الشاى الأسود ويلوك فى فمه مرارة المخدر الذى قال عنها أنها أخف من مرارة الدنيا ...

«آنى جاى نطلب القرب ياعم كومى !»

برقت عين الكومى الوحيدة وكانت الأم وزغدانة تجلسان خارج الغرفة عند الباب المغلق ... نظر الرجل الى الشاب طويلا وهمس بصوت زاحف :

«عاوز زغدانة ياأسطى حودة ؟!»

«على سنة الله ورسوله !»

«انت عارف اللى حصل لها يا ابنى !»

«زغدانة بنت حتتى وفى عنيه الاتنين !»

«واذا جه يوم وعايرتها ياحودة ؟»

«عيب تقول الكلام ده ياعم كومى !»

ساد الصمت بين الرجلين لثوان ، ثم رفع الكومى رأسه نحو حودة قائلا :

«طب سيبنى نشاور العيال !»

«وآنى تحت أمرك !»

قال حودة هذا وقد انتهى من كوب شايه ووضعه جانبا ونهض مصافحا الرجل مستأذنا .

غير أن زغدانة رفضت !

لم ترفض زغدانة كما تعودت الرفض ، بل رفضت باكية ، متوسلة ..

وكان الأمر بالنسبة للأب مخيفا ، وبالنسبة للأم كارثة ، فمن أين يأتيان بعريس يستر ابنتهما التى اغتصبها الانجليز ... لم يكن حودة قد أخفى الأمر عن اصدقائه ، وكان الأصدقاء قد رحبوا بالخطوة ، وعارض أهله ، وعرف الحى فى تلك الأيام معركة عائلية من تلك المعارك التى تصبح بين يوم وليلة حديث الجميع ... ذلك أن رفض زغدانة قد شاع هو الآخر ، وأحس حودة أن المسألة قد أصبحت مسألة كرامة ، وأنه لابد وأن يتزوج زغدانة ، ذلك ان الجميع علل رفض الفتاة بخجلها من عارها ... وكلما أوغلت زغدانة فى الرفض ، كلما أوغلت عائلة حودة فى الاعتراض ، وسعى الأصدقاء بين هؤلاء وهؤلاء ، سعوا بالخير والاقناع ، خاصة عندما أعلن الكومى فى المقهى الزجاجى ذات ليلة أنه سيزوج ابنته لحودة سواء رضيت أم لم ترض . وعندما دخل حودة الى المقهى وقد قارب الليل أن ينتصف ، ناداه الكومى ، وقرأ معه الفاتحة أمام أهل المقهى جميعا .

فى تلك الليلة حددوا موعد عقد القران فى الخميس القادم .

وفى تلك الليلة بلغ الحماس بحودة أن نهض مستأذنا لدقائق . ذهب الى بيته واقتحم غرفته ، وفتح الدولاب ، وأخذ تحويشة العمر ، وصاحت أمه :

«رايح فين ياحودة !»

«حاندفع مهر زغدانة !»

وبدلا من الزغرودة ، أطلقت المرأة صرخة عاتية وكأن عزيزا لديها قد مات .

فى المقهى ، دفع حودة للكومى أمام الجميع خمسة وعشرين جنيها مهرا غاليا لزغدانة ، ودفع الكومى للأسطى سيد النجار نفس المبلغ ليصنع لابنته سريرا ودولابا وكنبة ... ووعده بتسديد باقى ثمن «الشوار» خلال الشهور القادمة ...

وسهر الرجال فى تلك الليلة فى المقهى على فرح . الا جابر . المعلم جابر الذى كان يجلس منزويا ، لايعلم أين ذهب ولده ، ولايعلم ما الذى آل اليه مصيره ... كان ، كان قد تحول الى قطعة من الصخر تربض فوق ظهر الأرض فى انتظار نبأ مهول .

وقد وقع النبأ .

ففى يوم الخميس المحدد لزفاف زغدانة على حودة ... كانت أمها ، وبعض الجارات ، قد لففن يديها وقدميها بالحناء رغما عنها ، وكانت هى لكثرة ماقاومت وبكت وقطعت شعرها ولحم وجهها لطما ، وبح صوتها صراخا ، كانت قد استسلمت ، وبدا كل شىء فى ذلك الصباح عاديا تماما فى الميناء ، لكن شيئا غريبا بدأ يحدث . سيارات السلطة الصفراء تقتحم الميناء والأرصفة والجنود يملأون كل مكان ، والبوليس يقبض على كل الشباب والرجال بلا استثناء ..

يومها ... عرف الناس ان الساكنين الثلاثة فى السفينة الانجليزية قد وجدوا قتلى فى الصباح ... وجدوا مذبوحين تماما .... وجدوا أجسادا بلا رءوس !!!...

وهكذا دخل حودة فى ليلة زفافه السجن مع عشرات من الرجال والشبان !!

وانقلب الفرح الى مأتم . وعندما غربت الشمس كانت كل البيوت تدمع لمصير رجالها وأولادها وشبابها ... فى تلك الساعة التى يهجع فيها كل شىء فيما بين غروب الشمس وآذان العشاء ... دق الباب على الكومى

وزوجته وابنته الحزانى ، وارتعدت المرأة . وصاحت :

«مين ؟!»

وجاءهم صوت ، ما إن سمعته زغدانة حتى قفزت كالمجنونة نحو الباب وفتحته ... وكان مندى هناك ، فهتفت زغدانة مزمجرة فى غضب :

«كنت فين ؟!»

خطا مندى الى الداخل ، وقد بدا رجلا مكتمل الرجولة ، وكأن عشرين عاما قد مضت به فى تلك الأسابيع القليلة التى مضت . خطا الى الداخل ، وأغلق الباب وواجه الجميع قائلا :

«كنت بناخد بتارك يازغدانة !»

## • الصورة السادسة •

اهتزت الميناء من اقصاها الى اقصاها ، بل اهتزت المدينة بأسرها لهذا الحادث الذى انقلبت له المحافظة وادارات الأمن وامتلأت شوارع الاسكندرية برجال البوليس الحربى الانجليزى ، وسدت منافذ ، وسمح لمنافذ بالمرور منها ، وألقى فى السجن بعدد لابأس به من الشبان المشتبه فيهم ... لكن أحدا لم يفكر للحظة واحدة ، أن صبيا مثل مندى ، فى مثل سنه وعمره ، يمكن أن يقوم بهذا العمل الذى أطلقت عليه صحف تلك الأيام «اجرامى بشع !!»

ولقد وقع الخبر على الكومى وزوجته ، كما وقع على زغدانة ، وقوع الصاعقة حقا ، ذلك أن الثلاثة ، بعد أن كانوا واقفين فى استقبال مندى ، جلسوا دون وعى منهم بالجلوس ، انما هم جلسوا لأن سيقانهم لم تقو على حملهم ... كانوا يعرفون ، كما كان يعرف الجميع ، نتيجة هذا الذى فعله مندى ... وكان مندى لايزال واقفا فى مكانه بجوار الباب حاد النظرات صلب الملامح ، والصمت يسود الغرفة الكابية الضوء . عندما جاء صوت زغدانة :

«عملت أيه يامندى!»

ابتسم مندى فى مرارة أحس بها تتسلل الى حلقة ، ثم قال :

«طب أعملوا لنا كباية شى نبل بها ريقنا !»

وهبت الأم ، على غير وعى منها تسأل :

«انت أكلت ياضنايا ؟!»

«من يومين مانزلتش جوفى لقمة توحد الله !»

قفزت زغدانة فاصطدمت بأمها فى منتصف الغرفة لكنها شقت طريقها الى رجلها فى لهفة لم تحاول ان تخفيها :

«قول لى عملت ايه ياجدع ؟!»

حتى الآن لم ينطق الكومى حرفا . كان يجلس مسندا رأسه الى الحائط ، ناظرا بعينه الواحدة نحو الشاب النحيل الصلب العود الواقف هناك أمامه ، والذى ذبح ثلاثة رجال من الجيش الانجليزى وأخفى رءوسهم أمعانا فى التنكيل بهم ... كان صدره يغلى بالمشاعر ، ومن عينه الواحدة الباقية كان ثمة بريق اعجاب ينبثق منها معلنا عن رضاء وسعادة وفخر . وعندما جاء صوته أخيرا ، جاء واضحا أشد مايكون الوضوح :

«ماتقعد يا أسطى . واقف ليه ؟!»

كانت الدعوة صريحة من رجل البيت ، كما كانت كلمة يا أسطى اعلانا لايخفى عن احترام الأب للشاب الذى يريد الزواج من ابنته .

و .... وجلس مندى ..

و ... وقدمت له أم زغدانة طبقا مليئا بالأرز تجملة قطعة من السمك المقلى البارد وملعقة صدئة .

و ... وعندما كان مندى يلتهم الطعام التهام من لم يذق طعاما منذ أيام ، كانت زغدانة تضغط كباس وابور الغاز حتى تزيد من شعلته ، وتغلى المياه ، وتصنع بيديها ، أحلى كوب شاى شربه مندى فى حياته .

***

كان الليل قد أوغل والكل جلوس فى مكانهم صامتين محملقين

ذاهلين لما يحكيه مندى ...

كانت البداية عندما شاهد مندى زغدانة وهى تغادر السفينة ممزقة الملابس مهوشة الشعر معتدى عليها ... كان قد ظل طوال الليل كامنا فى مخبأ من تلك المخابىء التى يمتلىء بها رصيف النورس ، والتى يصعب على أعتى الباحثين ، العثور عليه ... كان هذا المخبأ هو غرفة الطعام فى اللنش النصف غارق فى المياه بجوار الرصيف ، وكانت المياه قد وصلت فى تلك الكابينة الى منتصفها وتوقفت هكذا منذ سنوات لايدرى لها أحد عددا ... وكان لتلك الغرفة نافذة مفتوحة تحت سطح المياه ... اكتشفها مندى ذات يوم وهو يغوص بحثا عن القواقع البحرية من الجندوفلى وبلح البحر والريتسة ذات البطارخ الحمراء ، وجد أمامه كوه فنفذ منها ، غير أنه فوجىء بها وقد امتلأت بالمياه حتى منتصفها ... فاذا ماجاء المد ، غرقت النافذة تماما . أما فى أوقات الجذر ، عندما يختفى القمر من السماء ، فان جزءا يسيرا من النافذة كان يتعرض للهواء فيتجدد هواء الغرفة دائما .. ومع الأيام ، كان مندى قد استطاع ، بلوحين تائهين فوق المياه ، ان يصنع لنفسه هاهنا مكمنا يرقد عليه ، ومخبأ يضع فيه كنوزه من صناديق السجائر التى كان يدخنها سرا لصغر سنه ، وبعض علب البولييبيف والجبن والمربى التى كان يحصل عليها من الجنود ذوى الوجوه الحمراء ... هنا اختبأ مندى منذ أن رأى زغدانة ، ظل ليوم كامل ، يرقد فى مكانه مبلل الملابس ، يحملق فى الجدار المائل للكابينة والذى كان يصنع لعينيه سقفا ، وكان كل مايفكر فيه ، من الذى فعل هذا ؟! .. من من الثلاثة ؟!

كان ثمة «سارجن» غليظ الملامح غليظ الصوت لايكف عن ايذاء المصريين وأمرهم بالابتعاد عن السفينة ... وكان مندى يكره هذا السارجن بأنفه الأحمر وشفتيه الحادتين ... وعندما مرت ليلة ، قرر أن يقتل هذا السارجن ... وعلى هذا ، قرر الخروج من مكمنه ، لعله يجد لذلك طريقا .

صمت مندى وهو يرقب الكومى وقد دس بين شفتيه سيجارة وحمل المشعل الصغير الذى يرسل خيطا من الدخان كان يتكاثر فى سماء الغرفة فيصنع فيها سحابة سوداء . وما أن نفث الكومى الدخان من بين شفتيه حتى قال مندى :

«ادينى سيجارة لا مؤاخذة يامعلمى !» .

لمعت عينا الرجل وهو ينظر الى الصبى الذى عاشره رضيعا وطفلا وصبيا ثم ها هو يراه رجلا يقتل من يلمس حبيبته بسوء ، دس يده فى جيبه وقدم لمندى سيجارة أشعلها هذا فى شغف واضح ، ثم أسند رأسه الى الحائط وراح يقص بقية ماحدث .

... ... ... ...

... ... ... ...

خرج مندى من الكوه سابحا تحت سطح المياه دائرا حول اللنش استعدادا للصعود الى الرصيف عندما فوجىء بما لم ينتظره على الاطلاق ... كان الرصيف خالياً من البشر تماما ، ولكن كان هناك جنود يبدون فى ملابسهم العسكرية وكأنهم جاءوا من عوالم أخرى ، كانت أمنية مندى أن يذهب ذات يوم الى بلاد الانجليز ، أن يرى هؤلاء الناس وكيف يعيشون ، وهو ، ومنذ أن فتح عينيه على الدنيا ، يراهم قساة غلاظ القلوب يأمرون فيطاعون ، وينهون فيمتنع الجميع ، كان حقا يريد أن يرى بلاد الانجليز ، لكنه فى هذه اللحظة أحس بأن مفاصله كلها قد تيبست وأصبحت عظامه وكأنها خاوية ، كان الضوء حول السفينة قويا . والحراسة أقوى والأحاديث المتبادلة بالانجليزية ، فماذا يفعل .

لم يجد مندى أمامه سوى العودة الى مكمنه فعاد ! .

تبلغ ببضع من الطعام المخزون ودخن سيجارة لكن حلقه بدأ يجف فليست هناك مياه .. وعندما حل الظلام التالى كان العطش قد بلغ به درجة لم يعد فى استطاعته أن يحتملها ... غطس فى المياه ونفذ من الكوه

وأخرج رأسه وسبح فى بطء فى الاتجاه المخالف ... كان هذه المرة يسبح نحو النصبة التى كان الكومى وزوجته قد صنعا منها مقهى صغيرا يبيعان فيه الشاى ... وما أن وصل الى مكانها حتى عرف كل شيء ... فلقد هدمت النصبة ودمرت تماما ، اقترب مندى من الرصيف ليلتقط أنفاسه فلمح الى جواره ، فوق صخرة من صخور الرصيف ، صفيحة صدئة خيل اليه أنه يعرفها من قبل . مال عليها فوجد بها بعض المياه ، مد يده فغرف من المياه قليلا وتذوقها بلسانه وكانت مياها حلوة ... أمسك بالصفيحة وشرب كل ما فيها ..

بعد لحظات ... كان ذهنه قد صفا ... وعاد يفكر فيما أزمع عليه .

قبل أن يبدأ التفكير ، انطلق فى الهواء طلق نارى ، تبعته عدة طلقات ... ثم ، أصوات صيحات وأقدام تهرول ناحية مدخل الرصيف ..

لم يكن مندى يعلم ما الذى يسوقه اليه القدر ، غير أنه ، عندما توارى خلف جدار سفينة ورفع رأسه ليرى ماذا يحدث ، كان الرصيف قد امتلأ بالجنود ، وكانت فوهات بعض المترليوزات مازالت تطلق طلقات الى بعيد ، وابتعدت الطلقات مع ابتعاد الجنود الذين كانوا — بالقطع — يطاردون أحداً ... التفت مندى نحو السفينة ، ولم يجد فوقها سوى ذلك «السارجن» ذى الأنف الأقنى والشفتين الحادتين ... وسرعان ماغطس فى المياه ، وكما تسبح الضفدعة ، سبح مندى ، كان يعلم أن المشوار طويل ، وأنه كى يدور حول الرصيف ، ثم يصل الى السفينة الانجليزية على الناحية الأخرى ، لابد له من بذل مجهودات غير عادية ، كان يعلم أن أى صوت يصدر عنه جدير بارساله الى عالم الأموات برصاصاة تصيب رأسه ... وكان يعلم أن عليه أن يتجنب الأضواء الكاشفة و... و... ولكن ذهنه خلا تماما من كل شيء ، عدا هذا الهدف الذى راح يسعى اليه تحت المياه حينا ، وأحيانا يرفع رأسه ، فقط ، كى يستنشق بعض الهواء .

ولابد أن القدر كان يقف بجوار مندى فى تلك الليلة ، ذلك أنه ما أن وصل الى جانب السفينة وراح يبحث عن حبل أو سلم يصعد اليها عن طريقه ، حتى عاد اللغط الى الرصيف ، وقد أمسك الجنود بحوده الذى بدأ وجهه ملطخا بالدماء ، ومن حوله كان عشرات الجنود يصوبون اليه بنادقهم ومسدساتهم ، وهاهو حوده يسير وسطهم رافع الرأس صامتا تماما ...

عند مدخل السفينة التفوا جميعا حول حوده .

بعد دقائق جاءت سيارة البوليس المصرى .

وفى تلك اللحظة ، رفعت يد خفية مندى الى أحد الحبال فراح يتسلقه كما الجرذان ، فى سهولة ويسر ، وعندما أصبح فوق سطح السفينة المشتعل بالأضواء كانت عيناه تبحثان عن مخبأ ... ثمة باب هناك جرى اليه ، وكان يعلم أن آثار المياه المتساقطة من ملابسه وجسده سوف تظل الى حين ، نفذ من الباب وهبط سلما ضيقا ، ما أن وصل الى نهايته ، حتى وجد غرفة واسعة عرف فيها غرفة الطعام . وقف لثوان حائرا يتلفت هنا وهناك . ثمة باب على اليمين اتجه اليه وفتحه برفق فوجد نفسه فى غرفة غريبة ، مليئة بالأدوات والعدسات والأنوار الملونة والآلات الغريبة ... وكان يصدر عن هذا الجهاز الذى ملأ الغرفة بأكملها ، أصوات تأتى من بعيد ، وصفارات وازيز ... لكنه قبل أن يتحرك أو يفكر ، سمع صوت خطوات قادمة ، قفز قلبه بين ضلوعه ، وهتفت زغدانة مقتربة منه بحنان لم يعهده فيها من قبل :

«حاسب يامندى !» ..

فابتسم مندى قائلا أنه لم يجد مكانا يختبىء فيه ، أن أى حركة منه كانت كفيلة بأن تشى بمكانه ، وقعت عيناه على «مفك» كبير ذى نصل حاد ملقى فوق أحد الأجهزة .. اختطف المفك وقفز الى ما خلف الباب الذى فتح فى عنف ودخل واحد من الثلاثة ، لم يكن هو السارجن ، هكذا قال مندى ، وانكب على الفور فوق أحد الأجهزة وراح يضبطه

فتعالت الأصوات والصفير ، وضع الرجل سماعتين فوق أذنه واستغرق فيما هو فيه ... استغرق تماما ، حتى لقد خيل الى مندى ، أنه ظل مستغرقا فى عمله ، حتى بعد أن نفذ المفك كله فى ظهره وكأنه لم يشعر به ...

بعد لحظة استمع مندى الى خطوات أخرى فأيقن أنه هالك ..

لم يدر ما الذى يمكن أن يفعله . فهاهى الجثة أمامه ملقاه بلا رأس ، وهاهو الرأس فى يده ، وها هو صاحب الخطوات يقترب والباب يفتح ، ويخطو الرجل نحو الداخل ليفاجأ بمندى وقد حمل رأس زميله أمام عينيه ، كان الرجل هذه المرة هو السارجن الذى حملق فى الرأس مذعورا . واستبد الفرح بمندى عندما رأى هذا الذعر فى عينى الرجل الذى كان يفتح فمه يريد الصراخ أو الكلام لكن مندى لم يعطه الفرصة ، فلقد انغمس المفك حتى آخره فى صدر الرجل . فشهق . ومد يده نحو مندى فتراجع هذا ، ترنح . حاول أن يخطو فسقط على ركبته ، فى لمح البصر مد مندى يده ليختطف المفك من صدر الرجل ، ثم ... ثم يجهز عليه ..

عندما دخل الرجل الثالث كان غاضبا لتأخير زميليه ، ولم يكن من الصعب أن يجهز عليه هو الآخر ..

***

استطاع مندى أن يجد جوالا وضع فيه الرءوس الثلاثة ..

واستطاع ، بمزيد من الغل ، أن يدمر بعضا من تلك الأجهزة الغريبة التى امتلأت بها الغرفة ..

كما استطاع أن يعود ادراجه دون أن يراه أحد ، فلقد كان الانجليز قد عادوا من مطاردتهم بشاب أخر أوقفوه بجوار حوده الذى كان الحديد يكبل يديه ..

وكانت رحلة العودة مفعمة بالراحة . هؤلاء بالذات هم الذين اغتصبوا زغدانة !!

«مش كده يابت ؟!»

قالها مندى بلهجة رجل صارم يسأل امرأته .. هزت زغدانة رأسها موافقة ! .

«فيه حد غيرهم ؟!»

«لأ ياسى مندى !»

وكانت كلمة «سى» مندى هذه ، ايذانا بموافقة العروس على أن تكون زوجة لهذا الرجل ! .

«طب والعمل ؟!»

هكذا سأل الكومى ، فرد مندى :

«أنا رجعت بالروس الثلاثة وحطيتها فى الكابينة ، الشوال باللى فيه ، وربطتهم تحت الميه كويس !» .

«والمفك ياجدع ؟!»

«عيب يامعلمى» ..

هكذا قال مندى وهو يرشف من الكوب الثانية للشاى ، وينفث دخان السيجارة الثانية . ثم استطرد :

«المفك معايا آهو !»

دس يده فى عبه وأخرج المفك الطويل الحاد النصل .

فساد الصمت بين الجميع ! .

انقضى الليل فى أحاديث متناثرة ... اتخذ الأب قرارا بأن يبيت مندى معهم فى نفس الغرفة ورفض اقتراحا بأن تبيت زغدانة وأمها عند قريبة لهما ... كان لابد من الصمت والكتمان والا ضاع الفتى فى لمح البصر ... غير أن ثمة شيئا كان يؤرق مندى طوال الليل : «ماذا عن الرجال الآخرين الذين ألقوا بهم فى السجون !» ..

قالت الأم : «كل واحد ياخذ نصيبه !»

وقالت زغدانة : «طب وانت حاتعمل لهم ايه ؟»
وصاح الكومى : «محدش عارف بكره حايحصل فيه ايه .. الصباح رباح !!»
غير أن زغدانة عادت تسأل :
«طب وانت نويت على أية يامندى!»

فى صوت واضح . حاد الملامح . قال مندى :
«حانطلع البحر !»
فساد الصمت ..
وكان شيئا غريبا قد زغرد فى صدر مندى بألف فرح وفرح . أنه لمح فى عينى زغدانة دمعة ! .

## • الصورة السابعة •

مضت أيام لم يغادر فيها مندى غرفة الكومى ، كان الرجل وزوجته وابنته يسعون الى رزقهم بالتناوب ، وظل هو فى الغرفة قابعا لايغادرها ، يستمع الى الأخبار التى كانت ترد له من الخارج عن طريقهم ، وكان اللغط قد ساد الشاطىء كله حول اختفاء مندى ، وبلغ أبوه الشرطة عن غيابه ، قال البعض انه القاتل ولذا فلقد اختفى ، وقال البعض أنه صعد على ظهر سفينة أبحرت قبل ليلة الحادث ، وقال آخرون أنه «هج» من الشاطىء بعد ماحدث لزغدانة . لكن أحدا لم يعرف حقيقة الأمر سوى الكومى وزوجته وابنته !

وحملت الأيام القليلة التى تلت ذلك مفاجآت بلا حصر ، فلقد أفرجت النيابة عن حوده وزميله ، أفرجت عنهما بعدما ثبت أنهما كانا فى المقهى وقت وقوع الحادث ، واستشاط القائد الانجليزى غاضبا ، وتحدث الناس عن زيارته للمحافظ ، وسيارته التى اقتحمت المبنى وفيها جنود مسلحون ، وخلفها سيارتان هبط منهما أكثر من عشرين جنديا ... كان الافراج عن حوده وزميله فرحا اهتز له الشاطىء اهتزازا ، غير أنه ــ فى نفس الوقت ــ بعث بالخوف الى قلوب الشباب من أهل الشاطىء ، فلقد كانوا يعلمون علم اليقين أن الدور سوف يأتى عليهم أن آجلا أو عاجلا ،

ولذا ، فلقد صحا الشاطىء ذات صباح ، ليجد الناس أن كل الشباب ــ بلا استثناء ــ قد هجروه الى حيث لايدرى أحد .

***

ولم يكن أحد يدرى أن أهل الاسكندرية جميعا سوف يغادرونها بعد أسابيع قليلة ، فلقد اندلعت الحرب العالمية الثانية ... ورغم الأحاديث الكثيرة عن الحرب التى سبقت اعلانها ، فان أحدا من أهل الشاطىء لم يتصور ــ لكثرة ماقيل عن هتلر وتشمبرلن وموسولينى وغيرهم من تلك الأسماء التى بدت للناس فى تلك الأيام وكأنها آلهة تتحكم فى كل الدنيا ــ ولم يتصور أحد أن الحرب ستقوم ، ولكنها قامت . وفوجىء الناس بالطائرات ذات الأزيز المتقطع ، وهى تلقى بالحمم من السماء لتهدم البيوم وتقتل الناس وتدمر السفن وتفعل بالبشر ماكان يتصور البعض أنه حلم ..

ومثل جميع أهل الشاطىء ، قرر الكومى أن يرحل عن الاسكندرية الى احدى القرى مع زوجته وابنته ... لكن مندى قال : «لأ!»

وحتى اليوم ، ورغم مرور كل تلك السنوات ، لم يدر أحد لم قال مندى : لا ... حتى مندى نفسه لم يدر لم قال : لا . كانت المدينة قد امتلأت بالدبابات والسيارات المصفحة ، كانت تبدو لمن بقى فيها من أهلها وكأنها مدينة خرافية تسكنها الأشباح والجنود ، يمضى نهارها آسنا بلا عمل ولا حركة ، ولا صوت سوى السيارات والدبابات وأوامر جنود الامبراطورية وهم يمنعون هذا ويمنحون ذاك ... ويأتى ليلها ، كل ليلة ، بالجحيم ينصب على البشر من السماء ، وأصوات الانفجارات والطلقات والصرخات ، ولهيب النيران يندلع هنا وهناك ، والأخبار تترى عن أماكن هدمت ، وعن معجزات حدثت ... غير أن أشهر تلك الحكايات على الاطلاق ، كانت حكاية «سيدى أبى الدرداء» الذى يقسم البعض ، أنهم شاهدوا القنبلة وهى تهوى مزغرده من السماء ، وانه ــ سيدى أبى الدرداء

ـــ الراقد فى مقامه هذا حيث يدور الترام من حوله وينحنى الشارع احتراما له ... شاهدوه وهو يخرج من القبر ليلتقط القنبلة بيديه ، ثم يوسدها الطريق دون أن تنفجر !

عشرات ، هؤلاء الذين شاهدوا القنبلة الملقاه بجوار المقام فى أمان ، وعشرات غيرهم نقلوا الأخبار ، وعشرات غير هؤلاء وأولئك شاهدوا خبراء المفرقعات وهم يخلون المنطقة ، ويرفعون القنبلة بعد أن نزعوا مفجرها .

حكايات وحكايات ، ولقد تأخر الكومى وزوجته وابنته كثيرا عن الرحيل حتى لم يبق فى الحى عداهم سوى عدد قليل من الصيادين أرسلوا عائلاتهم الى ريف مصر ومدنها الآمنة ، وفضلوا هم البقاء على الشاطىء لايغادرونه ..

لكن الكومى رحل مع زوجته وابنته أخيراً !

قال مندى : «طب مش نكتبوا الكتاب يامعلمى قبل ما تتوكلوا ؟!»

وساد الصمت الغرفة .

كان الوقت عصرا عندما انتهى الحديث الى أن هذه هى الليلة الأخيرة التى سوف يقضيها الكومى فى الاسكندرية ... وعندما ساد ذلك الصمت كانت عينا مندى معلقتين بعينى زغدانة . ولم ترخ زغدانة عينيها أمام عينيه كما تعودت أن تفعل منذ أن قتل مغتصبيها ، ومنذ ذلك الحادث وزغدانة تشعر فى أعماقها أن ثمة شيئا قد شرخ فى صدرها أو انكسر فى نفسها ، ثمة شيء غريب كان قد حدث فى قلبها ، أحست ، بعد ماحدث ماحدث ، أنها لم تعد تقوى على الحياة ، ولم تعد تحبها ، شيء مخيف تغير فى داخلها كان يدفعها ليل نهار لان تفكر فى الموت ... ولولا وجود مندى ، ولولا نظراته تلك الحانية التى كان يغمرها بها ، لكانت الدنيا قد أصبحت ظلاما يكتنفه الظلام من كل جانب ! .

بعد ساعة عاد الكومى من الخارج لاهثا ، لم يجد فى المدينة كلها مأذونا واحدا !

قال مندى :

«خلاص . نيجى معاكم مطرح ماانتم رايحين ، نكتبوا الكتاب ونرجع تانى !»

قال الكومى :

«وهو احنا عارفين احنا رايحين فين ؟!»

«كلها بلاد الله !»

«طب مانقسموا البلد نصين !»

«انت مش عاوزانى نيجى معاكوا ليه ؟!»

وهتفت زغدانة كالقطة المتوحشة لأول مرة منذ زمان طويل :

«ولما حد يشوفك من اللى مايتسموش !»

«كل الخلايق بتشوفنى دلوقت !»

«اللى بيحصل هنا غير اللى هناك ؟»

وكان هذا حقا ، فان الناس قد نسوا قصة الجنود الثلاثة الذين قتلوا ، ورحل القائد الانجليزى ، وتغيرت معالم الدنيا فى أسابيع قليلة ، وأصبح مندى يخرج ويدخل دون أن يثير هذا انتباه أحد . كان أبوه قد رحل مع أمه واخوته ، وكان قد علم من بعض الذين صنعوا من أنفسهم جسرا بين «المهاجرين» — كما أطلق عليهم أهل القرى والمدن الصغيرة — وبين الذين بقوا فى المدينة ، كان قد علم انهم استقروا فى قرية اسمها «صفط الملوك» .

هناك ... فى تلك القرى والمدن الصغيرة ، كان أهل الاسكندرية قد استقروا يلتقطون رزق يومهم بالاسنان والأظافر . وتخصصوا فى بيع «الحليب» وقلى «الفلافل» وكثير من المهن التى كانت تعرفها تلك القرى أو لاتعرفها ... وكانت أغلب العائلات تعيش بلا رجال ، ذلك أن الرجال

الذين كانوا مرتبطين بوظائف حكومية كان عليهم الافتراق عن ذويهم لكسب القوت حتى ولو بقوا فى الاسكندرية ، كان مندى يعلم علم اليقين أنه سوف يلتقى بمن يعرفه ، وأضاف الكومى بأن احدا لابد وأن يبلغ أباه لان مسير الحى أن يلتقى ، وصاحت زغدانة أنه قد يلتقى بواحد من جنود الامبراطورية فيعاوده الحنين الى القتل ، وأضافت أم زغدانة ، أن أولاد الحرام فى هذا العالم كثيرون ، وأن أحدهم قد يبلغ عنه !

كانت الحقيقة غير هذا تماما . فان احدا لم يذكر مندى بعد الحادث ، ولا حامت حوله الشبهات ، ولم يفكر انجليزى أو مصرى فى القبض عليه ... وزغم الحادث وبشاعته ، فان اختفاء مندى علل بين أهل الشاطىء جميعا ، بالخلاف الذى نشب بين مندى وأبيه عقب اعلانه رغبته فى الزواج من زغدانة ... ولكنه الخوف الغريب الكامن فى صدور هؤلاء الأربعة . ذلك الخوف الذى سببه انهم هم فقط ، يعرفون أن مندى هو القاتل ! .

***

«خلاص يامعلمى .. نقروا الفاتحة !»

لم يذكر الكومى ، ولامندى ، ولازغدانة ، ولاأمها ... تلك الفاتحة التى قرأها الكومى مع حوده فى المقهى أمام الجميع ... كانت الأحداث قد شغلت الناس عما كانوا فيه ، وكان حودة قد هاجر مع من هاجروا وكأنه ــ بعد القبض عليه ــ قد نسى هو الآخر حكاية الفاتحة التى قرأها ــ شهامة ــ مع الكومى ...

وقرأ الرجلان الفاتحة . وقال الكومى :

«خد زغدانة وانزلوا اتمشوا على البحر شويه !»

وهتفت أم زغدانة :

«بس ابعدوا عن الميناء يا ابنى !»

ومشطت زغدانة شعرها ، وارتدت ذلك المنديل ذا اللون الأصفر الذى تزينه وردات من خيط ملون . وارتدت جلبابا نظيفا ووضعت فى قدمها شبشبا كانت أمها تحتفظ به منذ سنوات لتهديه لها ليلة الزفاف ... وانطلق الخطيبان الى الطريق .

فى تلك البقعة المسماه بالانفوشى ، شاطىء رملى ضيق ، تضرب الأمواج حوافه فى رفق مهما علت . ذلك أن صخرة رأس التين ، حيث يقوم قصر الملك هناك شامخا مظلما كما هى العادة فى أيام الحرب ... فى تلك البقعة المهجورة الآن تقريبا ، وعلى هذا الشاطىء الذى افتقد أرجل الناس وهم يسعون الى رزقهم أو يتنسمون هواء العصر الندى ... جلس مندى وزغدانة ليضعا دستور حياتهما الجديد .

«ايه اللى انت نويت عليه ؟!»

«مانى قلت لك . حانطلع البحر !»

«وليه ماتجيش معانا ؟!»

حملق مندى فى زغدانة باسما . كانت هى هى التى صاحت فيه منذ أقل من ساعة خوفا عليه من أن يراه أحد أو يشى به أحد ... وأرخت زغدانة عينيها ، وتلاعبت أصابعها برمال الشاطىء وغمغمت بعد أن اكتشفت خطأها :

«آنى عارفة بقى !»

«حانوحشك يابت ؟!»

ورفعت زغدانة عينيها اليه ، لم تنطق حرفاً ، ولم تتفوه بكلمة . ولكن كل خلجة فى وجهها كانت تصرخ بآلاف الكلمات ، وتجمعت هذه الصرخات فى دمع راح ينهمر فجأة من عينيها بغزارة .. وذهل مندى ، ذلك أنه لم يكن يتصور أن زغدانة من الممكن أن تبكى أبدا . ولكنه برغم ذلك كان سعيدا كل السعادة ، ولقد أدهشته سعادته دهشة بالغة ..

هاهى زغدانة تبكى ، وهو يحب زغدانة ، يحبها حتى القتل ، فكيف يسعد لبكائها ؟!

«آنى حانكسب لى قرشين ونحوشهم ونرجع لك !»

«البحر مالوش أمان يامندى !»

«ومن امتى البحر كان له أمان يابت الناس ؟!»

«بس الأيام دى فيه غواصات وطيارات وحرب !»

«والأيام دى بيدوا للنفر جنيه فى اليوم !»

« آنى مش عاوزه فلوس ! »

« وآنى مش عاوزه ندخل السجن وننشنق ! »

عادت ملامحها الى الارتجاف من جديد . راحت تحملق فيه لثوان :

«حاتغيب على يامندى ؟!»

«قولى يارب !»

«حاتبعت لى جوابات ؟!»

«مش لما نعرف عنوانك !»

«يادى الحوسة .. دنية اية دى !»

هكذا صرخت زغدانة فجأة . وهكذا انفجرت فى بكاء مرير ، لقد اكتشفت فى لحظة غريبة ، كما اكتشف مندى ، أن عليهما أن يفترقا . لا الى حين معلوم ، ولكن الى مالا يعلم الا الله ..

«زغدانة !»

من بين الدموع والشهقات جاءه صوتها نائحا :

«أصلى بنحبك يابن الناس . بنحبك أكثر من عنيه !»

وعندما كان آذان العشاء يأتى من بعيد يرسله شيخ فى زاوية رفض أن يغلقها ويهاجر مع من هاجروا ، وكان يؤذن لمدينة خالية ، ويصلى وحده ، فى ذلك الوقت من ذلك اليوم ، امتدت يد مندى لتقبض على يد زغدانة . وعلى الفور ، سرت فى جسده رعشة ، وأحس بالنيران تلتهم كل

أوصاله ... واغمضت زغدانة عينيها ضائعة ، ووجد مندى نفسه يميل الى الأمام ، لم يقصد اليها بل جاءت وحدها تلك القبلة الغريبة الدافئة التى جمعت الشفاه لدقائق لايدريان كم طالت . لكنهما آفاقا ..

وكان لابد لهما أن يفيقا .

كانت الرمال مبللة بالمياه .. وكان الليل حالك الظلام ..

فى صبيحة اليوم التالى ، رحلت العائلة وكان الوداع قصيرا ..

ركب الجميع الترام الخالى من باب ستة حيث ينتهى شارع وكالة الليمون .

وهبطوا من الترام فى «محطة مصر» ، ووجدوا لأنفسهم مكانا فى احدى عربات الدرجة الثالثة ، وكان الكومى قد قطع ثلاث تذاكر الى بلدة تدعى «كفر الزيات» ، لم يدر لم اختارها . ولم تسأله زوجته عن سر اختياره لها ... ولم تفكر زغدانة فى الامر نهائيا .

تحرك القطار مختفيا فى الأفق ..

وبقى مندى وحده فى المحطة لساعات . جالسا ، لايفكر ، ولايعيش .

كانت زغدانة قد رحلت الى بعيد .

وكان عليه هو أن يرحل الى ماهو أبعد ! .

## •الصورة الثامنة •

مضت بضعة أيام قبل أن يشعر مندى بالوحدة ، أيام قليلة تلك التى مرت كان يبيت فيها فى غرفة الكومى دون أن يسأله أحد أجرا عن شيء ، كانت المدينة قد أصبحت مهجورة ، لا أحد هناك سوى الموظفين الذين اضطرتهم وظائفهم للبقاء وحدهم بعد أن سافرت عائلاتهم فى هجرة بددت أهل المدينة فى جميع بلدان الوجه البحرى وقراه ... وكانت الغارات تنهال على المدينة فى عنف بالغ فتدمر البيوت والعمارات وتخرب الشوارع ، ويوما بعد يوم ، تعود الناس على هذا ، تعودوا على صوت صفارة الانذار ثم ازيز الطائرات الألمانية المتقطع ، وصوت المدافع المضادة السريعة ... بل وصل الأمر الى الحد الذى جعل الناس خبراء فى أصوات الطائرات وماركاتها وأصوات المدافع وأنواعها ... غير أن مندى ، وقد أصبح من الصعب عليه أن يظل مختبئا حتى الأبد ، اكتشف أيضا أن أحداً لم يكن يبحث عنه ، وأن حكاية الانجليز الذين ذبحوا قد طويت فى الأوراق ودثرتها انقاض الحرب ، فى البداية كان حريصا على الخروج قبل الغروب ليتسوق ما يلزمه من طعام . ولقد اغلقت مقهى شلوفة أبوابها ، وعزت كباية الشاى وأصبحت نادرة ، وشحت النقود فى يد مندى وكاد يصبح مفلسا تماما عندما خرج ذات نهار يبحث عن رزق ... ولم يكن يعرف لنفسه طريقا

غير الميناء .

استطاع أن ينفذ من باب جانبى حتى يبعد عن الجنود ، غير أنه ما كاد يستقبل الرصيف الذى اكتظ بجنود الامبراطورية وسفهم وسياراتهم ورطانتهم ، ما كاد يفعل هذا حتى واجهه الشاويش عبد العزيز ... ولوهلة ، كاد مندى يطلق لساقيه الريح لولا نداء عبد العزيز ... لم يكن نداء من هذا النوع الذى يخشاه المجرمون من جنود الشرطة ، وانما هو نداء صديق مغموس فى حرارة الشوق :

«مرحب ياشاويش !»

«انت فين يابنى !»

«بنلقط رزق »

«ده أبوك واخواتك هاجروا من غير مايشوفوك !!»

قالها عبد العزيز فى عتاب شديد فخفض مندى رأسه :

«معلش ياشاويش»

«أبوك دور عليك فى كل حتة !»

«ماهو اللى ماكانش ... ... ...»

«ماكانش ايه ياجدع . هو أبوك لما يقول لك آنى مش عاوز نشوفك ، يبقى برضك مش عاوز ؟!»

«ماهو ....»

«على العموم اذا حبيت تشوفه . حاتلقاه فاتح دكانه مانيفاتورة فى كفر الزيات !»

«كفر الزيات ؟!»

هكذا هتف مندى وكأنه يقتلع قلبه . قال الشاويش عبد العزيز :

«انت رحتها قبل كده ؟»

«ولاعمرى شفتها !»

«على العموم لما توصل حا تلقى ألف مين يدلك !»
صمت مندى منكسا رأسه ...
«مالك ياوله ؟!»
«أصلى بندور على شغلانه !»
«الشغل على قفا مين يشيل . دول مش لاقيين حد فى البلد !»
«طب ماتدلنى على شغلانه ياشاويش !»
«وانت ايه اللى يقعدك هنا !»
«أصل ...»
«يابنى الغارات مش مخليه الناس تعيش والبمب والطوريد ماهمش عينين !»
«ماهو .... »
«روح كفر الزيات لأبوك واقف معاه فى الدكان خليه يدعى لك !»
«آنى عاوز نطلع البحر !»
بدأ الشاويش عبد العزيز فى تلك اللحظة وكأنه رأى شيئا مفزعا . همس :
«بحر ؟!»
«أيوه !»
«بحر ايه يابنى !»
«أهو آنى بقى عاوز ننزل الميه !»
«دى المراكب اللى بتطلع ما بترجعش !»
«الأعمار بيد الله !»
«وليه يابنى الناس ما ....»
«تقدر تساعدنى ؟»
«أبوك يتقهر عليك !»

«ربنا يجيب العواقب سليمة !»
«يابنى اهتدى بالله !»
«واذا حلّفتك بالمرسى ؟!»
صمت عبد العزيز طويلا ، واشعل سيجارة نفث دخانها فى وجه مندى . ثم زفر زفرة طويلة وهو يقول : «تعالى ورايا !»

.

لم تكن الميناء ، بعد تلك الأسابيع القليلة التى مضت ، هى الميناء التى عرفها مندى . كان كل شيء قد تغير ، ومعظم الرجال قد هجروا أعمالهم وهاجروا الى قرى مصر هربا من الموت المقذوف كل ليلة من السماء كأنه غضب من الله ، وكان الوجه الأحمر هو الوجه السائد فى الميناء ، وجه جندى الامبراطورية الذى يضرب فى الأرض وكأنه ملكها وما عليها ومن يسعى فوقها ... كان الطريق طويلا من باب ستة حتى باب ١٤ حيث تقف السفن التجارية وسفن الركاب ، وكان لابد من تبادل الحديث :
«اكن انت كنت فين المدة ده كلها يا جدع ؟!»
بدأ عبد العزيز يعامل مندى على أنه رجل فخلع عليه لقب جدع . رد مندى :
«من بلاد الله لخلق الله !»
«دى ماكانتش كلمة اللى قالها المعلم !»
«معلش . كل شيء نصيب» .
«فيه مركب يونانى مضروبة طوربيد بيصلحوها فى الحوض الجاف !»
«كارجو والابانسجيرى ؟!»
كان يقصد ان كانت السفينة سفينة بضاعة أو ركاب ! . رد عبد العزيز :
«مابقاش فيه مراكب باسانجيرى اليومين دول !»

«خالص ؟!»
«واللى فضل منها السلطة خدته وعملته كارجو !»
«فيه شغل ؟!»
«واليومية تلاتة جنيه !»
«حته واحدة ؟!»
«سمعت عن اللى حصل بعد أنت ماهجيت من البلد !»
«خير !»
«واحد ابن حلال طلع المركب الانجليزى اللى كانت واقفة على رصيف النورس وجز رقابى ثلاثة عساكر !»

دق قلب مندى بعنف . وجاء صوته مشروخا وهو يقول :
« مين اللى عمل العملة دى ؟! »
«لحد دلوقت محدش يعرف مطرحه ، ولامطرح رءوسهم !»
«هو خد رءوسهم معاه ؟!»
«دى حكاية كانت عجب . والمينا اتقلبت . لكن الحرب جت بقى وبلعت كل حاجة !»
«يعنى ايه ؟!»
«العبارة اتنست من ساعة ما طقت أول رصاصة فى بلاد الانجليز !»

وتنفس مندى الصعداء . لأول مرة ، شعر مندى بالراحة تغمره ... ولأول مرة ، كان يسير بجوار الشاويش عبد العزيز وهو يتلفت يمنه ويسره .. كان ، كان يريد أن يراه كل الناس ، وأن يرى كل الناس ، حتى لقد فكر فى السفر الى كفر الزيات .

ولكن ...

ولكن مندى وجد نفسه أمام السفينة المصابة فى الحوض الجاف .
كان الشاويش عبد العزيز قد مر على بضع سفن وعاد خاوى الوفاض ... ذلك أن بعض البحارة عادوا من المهجر بعد أن فشلوا فى الاعمال التى أسندت اليهم ، أو ، وهذا ينطبق على معظمهم ، لم يستطيعوا الابتعاد عن البحر مدة أطول من هذه ... وهكذا ، كانت أزمة البحث عن بحارة تخف يوما بعد يوم ... لكنهما عندما خرجا من الميناء وركبا الترام ولم يأخذ الكمسارى منهما أجرا اكراما للشاويش ، ونزلا عند الحوض الجاف فى حى الورديان ، حتى كان باب الفرج قد انفتح أمامهما على مصراعيه !

:

كان القبطان سكيرا يونانى الأصل يعرف اللغة العربية :
«انتى اشتغلتى فى مراكب قبل كدة ياولد ؟!»
رد الشاويش :
«ده مولود فى الميه ياقبطان !»
«يعنى بتعرف فى شغل البحر ؟!»
«بنقول لك مولود فى الميه !»
«فيه باسبور ؟!»
«يطلع فى يوم وليلة !»
«خلاص . روح أنت طلع الباسبور بتاعه . وسيبه هو للشغل هنا !»
«فين ؟!»
دس القبطان يده فى جيبه وهو يمطر السفن والبحر بعشرات الشتائم القبيحة ، مد يده بخمسة جنيهات اعطاها للشاويش عبد العزيز الذى التفت الى مندى متسائلا :
«معاك صورة !»

«لأ .»

«يبقى لازم تيجى معايا لاجل ما تتصور !»

فى المساء كان كل شيء هاجعا تماما . كان البحارة قد غادروا السفينة وقد علم بعضهم أن شابا قد انضم اليهم ... وكان الباشريس — كبير البحارة — مصريا «اسمه خليل» ، كان رجلا ربع القوام قصير القامة قوى الجسد يحمل فوق فمه شاربا هائلا . وتخرج من بين شفتيه كلمات لها وقع القنابل ، وقد نظر الى مندى بازدراء وقال للقبطان !

«الود ده عمره ماطلع البحر !»

رطن القبطان باليونانية ، وكان واضحا أن الباشريس خليل يعرفها جيدا ، رطن القبطان طويلا . ثم لوح بذراعه تاركا مندى مع الباشريس خليل ، الذى وقف مائلا بجذعه الى الخلف ماسحا جسد مندى من أعلى الى أسفل ، ثم قال :

«شوف يابن الناس . البحر ، ما هواش لعب . آه» .

مضت لحظة صمت لم يرد فيها مندى :

«والمراكب ماهياش فلايك . آه !»

والتزم مندى الصمت أيضا .

«وآنى هنا بقى الباشريس . آنى الكل فى الكل . آه !»

شعر مندى بغصة فى حلقه لم يجد لها سببا !

«واللى أقوله يمشى من غير أحم ولا دستور .. قلت ايه ؟!»

«آنى تحت أمرك يا باشريس !»

قالها مندى فى استقامة ووضوح أدهشا الباشريس خليل . غير أنه سرعان ماابتلع تلك الدهشة وهو يتمتم :

«كده يبقى كويس . آه ... تعالى ورايا !»

وجد مندى نفسه أمام حلمه وجها لوجه ... ذلك العنبر الكبير الواسع فى بطن السفينة ، والذى رصت فوق أرضه صناديق تبدو كالتوابيت ، وكان كل صندوق يستعمل كدولاب لملابس البحار وأغراضه ، ويستعمل كفراش ينام عليه ..

«ده سريرك !»

كان الفراش فى ركن قصى من العنبر متلصق بجدار السفينة البارد ..

«روح هات هدومك وحطها فيه وحصلنى على فوق !»

«معنديش هدوم !»

«وحاتشتغل بأيه ؟!»

صمت مندى تماما .

«تعالى نديك وردروبه اياك يطمر فيك !»

استدار الباشريس خليل بقامته الربعة وسار نحو السلم فى خطوات كان جسده يتمايل لها يمنه ويسره شأن من تعود السير فوق الموج ، هم بصعود السلم الحديدى عندما التفت نحو مندى صائحا :

«ولو أنه مش حايطمر فيك . آه .»

وتسلم مندى الوردروبه ، وهى بدلة العمل ، وأصبح عليه أن ينتظر حتى الصباح كى يبدأ العمل ... فلقد حل الليل وحرمت اضاءة الأنوار ... خلت السفينة من البحارة وسادها السكون حتى من ضربات مياه البحر . فلقد كانت لاتزال معلقة فى الحوض الجاف حتى يجرى اصلاحها وسد الثقب الذى أحدثه الطوربيد فى جانبها الأيمن !!

رقد مندى فوق فراشه الخشبى الجديد ، سرح بأفكاره ... هكذا يتحقق أغلى الاحلام غير أنه بلا طعم . هكذا أحس . فكيف يسعد وزغدانة بعيدة عنه فى بلدة اسمها كفر الزيات لايعرف أين هى ولابد أن الطريق اليها كان طويلا ... ولقد غفت عينه لساعات أو لثوان لايدرى ...

كل مايعلمه انه استيقظ على ضجيج وصراخ وزعيق ... وعندما فتح عينيه . كانت هناك ثلاثة من الوجوه تطل عليه ... كانت الوجوه لرجال من رجال السفينة ، وكانت الأفواه باسمه ورائحة الخمر تفوح منها . فارتعد وهو يقفز من مكانه !

## • الصورة التاسعة •

كان الذى دفع مندى الى القفز من فراشه هو هذا الاحساس الذى يطلق عليه علماء النفس اسم غريزة البقاء ، وهو احساس غامر بالخوف من خطر مجهول . لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها مندى رجالا سكارى ، وكان يعلم أن اشد الرجال خطرا اثناء السكر هم الاستراليون ... وعندما امتلأت الاسكندرية ذات يوم بألوف الألوف من جنود الامبراطورية البريطانية ، كان فيهم الهندى والأفريقي والكندى والاسترالى ... كان الجنود الاستراليون يبدون لأهل مصر فى تلك الأيام مثل الثيران الهائجة ، فما أن يشرب الواحد منهم كأسا حتى يسير مترنحا محطما كل مافى طريقه ومن فى طريقه ... غير أن الذى يعرفه مندى عن المصريين الذين يتعاطون الخمر لم يكن يتعدى بضعة من رجال الميناء كانوا اذا احتسوا الخمر ترنحوا مستندين الى حيطان البيوت فى الشوارع ، وبعضهم كان الناس يتندرون برقدته على الرصف فى انتظار نور الصباح ... لكن الذى رآه فى تلك الليلة ، وكان الرجال الثلاثة مصريين ، كان مخيفا الى الحد الذى دفعه الى أن يقفز من فراشه مسرعا الى حيث لايدرى .

وربما ... ربما كانت تلك الحركة المذعورة بالذات ، هى السبب فى كل ماحدث بعد ذلك !

فما أن غادر مندى فراشه فى تلك القفزة السريعة حتى وجد نفسه معلقا فى الهواء ... وكان الذى أمسك بياقة الوردروبه ورفع مندى فى الهواء عملاقا اسمه «شبيطة» ، كان له اسم آخر ، وكان جميع من فى السفينة ، حتى القبطان اليونانى ، يعرفون ان له اسما آخر فى أوراق السفينة وفى جواز سفره ، غير أن واحدا من هؤلاء لم يهتم على الاطلاق بهذا الاسم الحقيقى . ولأحد يدرى من الذى اطلق على «شبيطة» اسم «شبيطة» أو لماذا ، ربما لأنه كان سريع الغضب كثير الشجار ، ولقد كان شبيطة سكران فى تلك الليلة حتى النخاع ... كان فى السفينة عندما هاجمتها الغواصة الألمانية وأطلقت عليها ذلك الطوربيد الذى صنع فى جانبها الأيمن ذلك الثقب الهائل الذى أشعل النيران فى عنبر ٣ وكاد شبيطة يروح فيها لولا ستر الله ... مات من زملائه ستة ، احترق اثنان وغرق أربعة أمام عينيه ، ورغم حزنه الشديد ، الا أنه ظل يضحك طوال الأيام التى قضتها السفينة فى البحر حتى وصلت الى الميناء ، ثم ظل يشرب الخمر ليل نهار ، ويتعارك ، ويبكى أحيانا .

لم يكن مندى يعلم هذا عن شبيطة ولم يكن يعلم شيئا عن الآخرين ، غير أنه عندما وجد نفسه معلقا فى الهواء بهذه الصورة المهينة ، وعندما ضج الجميع بالضحك ، انتابه غضب جامح ، غضب دفعه الى محاولة التخلص من مأزقه هذا فازدادت ضحكات الرجال ...

ثوان هى وامتلأ العنبر بالرجال . وأضيئت الأنوار الزرقاء لتلقى بالضوء على الوجوه الشاحبة الخائفة فتحيلها الى أشباح مرعبة . كان شبيطة ، بقوة ساعد خارقة ، يحمل مندى ويسير به فى العنبر مرورا بالرجال ، وكان الغضب قد تملك مندى فراح يسب ويلعن ويحاول دون جدوى ... غير أن فرصته حانت عندما أداره شبيطة الى ناحيته وراح يضحك فى وجهه فيندفع تيار أنفاسه معبقا برائحة خمر نفاذة اشعلت

نيران الغضب أكثر ، نظر اليه شبيطة وقد هدأت ضحكاته :

«اسمك أيه ياشاطر !»

«وانت مالك !»

«ذنبك على جنبك !»

«نزلني !!»

«مش لما نعرفوا الأول اسمك ايه ؟!»

تكورت قبضة مندى فى عنف استعدادا للانطلاق نحو وجه شبيطة ، غير أن هذا كان قد تنبه الى مايفعله البحار الصغير ، وما أن انطلقت القبضة حتى مال شبيطة برأسه الى الخلف فطاشت ضربته ، وأصبحت الضحكات فى العنبر كالجنون ذاته . وأحس مندى أنه أصبح أضحوكة حتى لنفسه ... ولكن ، عندما رفع شبيطة يده اليسرى ليلطم بها وجه مندى فى دقة جعلت رأسه يدور ، كان شبيطة يقول :

«ماتعملش كده تانى ياشاطر !»

ظن مندى فى لحظات عصيبة مرت به ، ان الامر كله ليس سوى كابوس أو حلم ثقيل ، لكن الضحكات والأصوات ودماءه التى كانت تغلى أقنعته جميعا بأنه مستيقظ ، وأنه ثمة رجل ما يلعب به أمام الناس كما يلعب بدميه . فقرر قتله !

هل كانت هذه هى البداية ؟!

بداية ذلك الطريق الذى شقه مندى فى بحار الدنيا وموانيها جاعلا من نفسه أسطورة يتحدث بها الجميع ؟! ..

لاأحد يستطيع أن يجيب على وجه التحديد ، غير أن ثمة شيئا شديد الأهمية قد حدث فى تلك اللحظات فى رأس مندى ، فلقد تذكر ، مع قراره بقتل شبيطة ، زغدانة !

فى شارع ضيق يبدو مثل شق وسط المبانى فى مدينة كفر الزيات ، وجد الكومى غرفة فى بيت من تلك البيوت الكبيرة الهائلة الحجم . والتى كانت ، فى تلك الأيام التى ليست ببعيدة بعدا ساحقا ، تبنى كى تسكنها العائلات الثرية ، فاذا البيت كله ، أخوات وأولاد عم وأخوان وبنات خالة ... وكان الطابق الأرضى من هذه البيوت ، عادة مايخصص للخدم ، فاذا به مجموعة هائلة من الغرف ، تزيد فى بعض الأحيان على العشرين ، تحيط بفناء رطب يمتلىء بالأطفال والنساء ــ نساء الخدم فى البداية ثم نساء المهاجرين بعد قيام الحرب ــ اللاتى كن يغسلن الغسيل أمام أبواب حجراتهن ، أو يطبخن طعاما تفوح منه رائحة نفاذة ... فلقد كان السكندريون يعشقون الطعام ، خاصة اذا كان سمكا !

فى هذا الشارع الضيق الذى يطلق عليه حتى اليوم فى كفر الزيات اسم «شارع همازين» ، وجد الكومى غرفة فى فناء بيت الحمامصى دفع لها أجرا قدره عشرون قرشا فى الشهر ، وبدأ يبحث لنفسه عن عمل ، كما بدأت زغدانة ، بدورها ، تفكر فى عمل شىء تساعد به أسرتها .

كانت الأيام الأولى شاقة وقاسية . حاول الكومى فيها أن يجد لنفسه مكانا ينصب فيه نصبته لبيع الشاى للناس ، فوجد بدل المكان ألف مكان ، لكنه لم يجد من الزبائن مايكفى للاستمرار ، انتقل من رصيف الى آخر . من مكان الى آخر . من عند محطة السكة الحديد حيث الحمالون وعربجية عربات الحنطور ، الى موقف الاتوبيسات الذاهبة الى طنطا عند المزلقان الذى يغلق ويفتح لمرور القطار ، وسيارات التاكسى التى تختفى أجسادها تماما تحت أجساد الناس الذين كانوا يركبون كل موضع قدم فيها نظير قرش صاغ يدفعه الراكب نظير رحلة خطرة فى طريق غير معبد يمر بعشرات القرى التى تحيط بالمدينة الصغيرة ! .

كان بعض الاسكندرانية قد وجد أعمالا شتى فى بيع اللبن وتجارة

الخبز وما الى ذلك ، وكان بعضهم قد وجد عملا ثابتا فى مصنع الصابون القائم فى أطراف المدينة ، والذى كان يملكه رجل يونانى سرت الشائعات فى المدينة وأصبحت مثل حقيقة غريبة لكنها ثابتة ، انه كسب المصنع بعماله وآلاته ومبانيه وبيوت موظفيه الحمراء ذات اللون الكابى ، فى لعبة ميسر كان المفروض أن يكون أحد كروتة خمسة ، لكنه لم يكن يملك سوى كارت به أربعة فقط ، فما كان منه الا أن عض أصبعه حتى ادماه . وطبع بالدم مكان القلب الأحمر الناقص ، قلبا بدمائه ... ومن ثم كسب المصنع !

سمع الكومى هذه الحكايات الغريبة فى كفر الزيات عن صاحب مصنع الصابون الذى لم يره أحد . فالخواجات . وأى أجانب كانوا فى مصر خواجات فى ذلك الزمان ، ولهم هيبة ، كما سمعت زغدانة نفس الأسطورة ، وصدقاها تماما ، فلم يكن هناك مايبرر ألا يفعلا ... بل ربما صدقاها لانهما كانا مشغولين تماما بلقمة العيش التى كانت ، فى تلك الأيام السوداء التى كان لون الخبز فيها قد أصبح أسود مثلها ، وقد بلغت جولات الكومى وابنته حتى وصلا الى مستشفى الانكلستوما الكائنة على الشاطىء الآخر من ترعة الملوانية التى كانت تشق المدينة الصغيرة نصفين فى تلك الأيام ... وهناك ، استقرا لبعض الوقت ، فلقد وجدا زبائنهما من الفلاحين الذين كانوا يتوافدون على المستشفى للعلاج من البلهارسيا والانكلستوما بشكل منتظم وغزير وطوال أيام السنة .

وكان العمل مرضيا . والحمد لله على كل شيء . لكن الذى كان يعيبه ، هو أن الفلاح لم يكن يستطيع أن يشرب الشاى قبل الحقنة . حتى اذا أخذها ، كان عليه أن ينتظر طويلا . ذلك أن حقنة الطرطير كانت تقلب معدة الرجال فيرجعون مافى جوفهم ... وكان على الكومى أن ينتظر حتى تغيب الشمس عندما تنقطع القدم من هذا الطريق الموازى لترعة الملوانية ، والذى يصبح البقاء فيه خطرا ! .

غير أن حادثة وقعت ذات يوم .

فلقد كانت أم زغدانة تجلس أمام باب غرفتها تقلى بعضا من أقراص الطعمية التى يطلق عليها السكندريون اسم «فلافل» ، والتى يتقنون صنعها فى نفسه الوقت . وتصادف مرور أحمد الحمامصى ، الابن الاصغر لصاحب هذا البيت المهول فشم رائحة الطعمية ، فما كان منه الا أن عاد الى أمه . وطلب أن يتذوق هذه الطعمية ، وسرت أم زغدانة سرورا بالغا لهذا الطلب الرخيص ، وأرسلت الى صاحبة البيت عددا من الاقراص ، دفعت السيدة الى طلب المزيد منها صباح كل يوم ، على أن تدفع فى القرص مليما كاملا .

فى المساء كان الحديث داخل الغرفة بين أفراد الأسرة ، الكومى وزوجته وابنته ، هامسا خوفا من الحسد ، ومن سماع الجيران بما حدث ، فلربما قام احدهم أو احداهن بالخدمة . ولهف الرزق الآتى على غير موعد أو ترقب .

كانت الحسبة تقول أنه من الممكن أن تكسب الأسرة من هذه الصفقة قرشا كاملا فى كل يوم !

كانت أقراص الطعمية تباع كل أربعة أقراص بمليم . وها هو رزق ، على غير توقع ، يفتح بابا فى السماء ، لتكسب منه الأسرة قرشا اذا أضيف الى مايكسبه الكومى من الشاى صنع دخلا يكفى لستر حاجتهم تماما .

ولكنهم فى تلك الليلة ، لم يكن أحدهم يدرى مايخبئة لهم القدر من أحداث ، لم يكن أحدهم يعلم ، أن قرص الطعمية هذا الذى طلبه شاب وسيم ومدلل لعائلة ثرية ، واسمه أحمد ، سوف يكون سببا فى تغيير حياتهم كلها !!

***

فهل كان مندى يعرف مايحدث ؟!

كان مندى فى ذلك الوقت راقدا فى فراشه مريضا بعد أن أصابته لكمات شبيطة بكدمات وأورام لاحصر لها انتثرت فى جسده وجعلت بقاءه فى أى وضع ، أمرا غير محتمل !

كانت السفينة الآن فى عرض بحر ، كانت تحمل شحنة من القمح المصرى ، وكان عليها أن تقطع البحر الأبيض ، وأن تعبر مضيق جبل طارق ، وتنحرف بحذاء الساحل البرتغالى الذى كان يميل الى الالمان رغم أنه لم يدخل الحرب ، ثم يصعد الى الشواطىء الانجليزية وسط بحر من الالغام كان يهدد السفينة فى كل وقت .

كان مندى راقدا فى فراشه فى ذلك اليوم الغريب .

وكانت المعركة التى بدأت بينه وبين شبيطة فى تلك الليلة الأولى له على السفينة لم تنته بعد ... فلقد هزم مندى ، ولكنه صمم على الأخذ بالثأر ... وكلما حانت له الفرصة دخل معركة مريرة مع شبيطة ، وفى كل مرة ، كان يتلقى من الضربات مايوجع جسده ... غير أنه كان يتحامل ، عنادا منه . ويقاوم الألم ويتظاهر بالعافية ... حتى كانت تلك المرة وكانت السفينة تقترب منذ الصباح من مضيق جبل طارق . حيث الموت يترصد السفن العابرة فى كل ثانية . فغير الالغام التى بثها الحلفاء فى هذا المضيق ، كانت هناك الغواصات الالمانية التى كانت تأتى بالعجائب ــ هكذا كان يقول الرجال ــ وتخترق أى حقل من حقول الالغام المزروعة فى البحر . لتصيب سفن الحلفاء فى مقتل ، ويبتلع البحر بين يوم وآخر عددا لابأس به من جثث البحارة .

فى تلك المرة كان السبب شيئا عاديا لايدفع للعراك . غير أن مندى انشب أظافره فى عنق شبيطة ، فما كان من الأخير الا أن لقنه درسا هذه

المرة وهو يقول :

«علشان تحرم بقى ولاتقربش منى !»

وعندما صرخ الباشريس خليل فى شبيطة ان مافعله سيجازى عليه . وانهم فى حاجة الى الرجل ... صرخ شبيطة :

«طب ماتقول له يحل عنى ... حايبقى هو والالغام !»

ذلك أن الخوف من الالغام كان عارما ... وعندما جن الليل ... وسارت السفينة فوق سطح المياه فى بطء وحذر ، كان مندى راقدا فى فراشه . عندما دوى فى الكون انفجار هز السفينة هزا عنيفا . وطار جسد مندى فى الهواء وسقط على الأرض . وتمايلت السفينة وانطلقت صفارة الانذار وسمع مندى وهو يغادر العنبر عدوا ، صوت واحد من الرجال وهو يصرخ :

«طوربيد . انصبنا . المركب بتغرق !!»

## • الصورة العاشرة •

كان السكون يسود الدنيا مع الظلام فى تلك الليلة التى وقع فيها هذا الذى وقع ... كانت معركة مندى مع شبيطة لم يمض عليها سوى ساعات معدودات ، وكان مندى ــ لفرط احساسه بالمهانة ــ يقف فى مؤخرة السفينة ، يرقب هذا الظلام الساكن ، وسطح المياه اللامع تحت أضواء النجوم ، ووجبل طارق يبدو شامخا فى السماء مثل شبح مظلم ، تتألق فيه بين الحين والحين لمبة زرقاء أو ضوء جاء على سبيل الخطأ ... كان مندى فى تلك اللحظات قد أحكم خطته ، وقرر ، أن يقتل شبيطة فى لحظة ما ، أن يجره الى مشاجرة ويطعنه فيها بسكين وليكن بعد هذا مايكون .

من الداخل بدأ شبح الباشريس خليل وهو ينفذ الى السطح ، توقف الجسد الربع بعيدا عن مندى لكنه كان من الواضح أنه ينظر اليه ، شعر مندى بظهور الباشريس فالتفت نحوه وتعرف عليه فى الظلام ، توقف الباشريس وهو ينظر اليه طويلا فأحس هذا بوقع نظراته عليه ، ساد الصمت الا من صوت المياه تحتك بجسد السفينة المتقدم عبر البوغاز فى بطء بالغ حتى ليخال المرء أنها ثابتة لاتتحرك . عاد شبح الباشريس يتقدم

من مندى فى خطوات بطيئة حتى أصبح على بعد أمتار قليلة فعاد الى التوقف ... أحس مندى بالحرج والغيظ والضيق فى نفس الوقت ... كانت هزيمته عصر ذلك اليوم أمام شبيطة هزيمة منكرة ، ظل يوجه اليه اللكمات والضربات ولم يستطع مندى أن يدافع عن نفسه ... جاء صوت الباشريس عبر سكون الليل هامسا :

«شبيطة طيب !»

كان مندى يعرف التعليمات جيدا ، ان عليه ، اذا ما كان واقفاً فوق السطح فى الليل فلابد له من الحديث همساً . قالوا له أن المياه موصل جيد للصوت فلم يفهم ، قال له رجل من البحارة أن المياه تنقل الصوت الى بعيد بعيد وكأنها سلك كهربائى فصدق وأن لم يقتنع أو يفهم ... قال الباشريس ماقال فلم يرد عليه مندى ... عاد الصمت يسود المكان لثوان لكن همس الباشريس قطعة وهو يقول :

«بلاش تحط رأسك برأسه !»

هم مندى بالحديث لكن لسانه التصق بسقف حلقه . نظر الى وجه الباشريس خليل فى الظلام ولم يحر جوابا . تململ فى وقفته برهة ، ثم انطلق الى العنبر لايلوى على شىء ... لم يكن أمامه سوى أن يلقى بجسده فوق الفراش ويدفن رأسه فى الوسادة وكانت الدماء تغلى فى عروقه . ثم ... ثم دوى ذلك الانفجار الذى هز السفينة هزا عنيفا ... طار جسده فى الهواء ولمح من خلال الباب الذى فتح بعنف السنة لهب كانت قد اشتعلت حيث لايدرى ... تعالت الصرخات والصيحات وتمايلت السفينة وانطلقت صفارة الانذار وكان مندى راقدا فوق الأرض يحاول أن يخلص نفسه من دولاب خلعه الانفجار من الجدار ليلقى به عليه ، وسمع مندى فى تلك اللحظات صياح مذعور :

«طوربيد . انضربنا . المركب بتغرق !»

***

الصيحات والصرخات والدماء والأذرع المبتورة والعيون الجاحظة والأجساد الممزقة والأجداث الملقاة فى الممر والسنة اللهب وقد نالت من كل السفينة ... ركض مع الراكضين وتزاحم مع المتزاحمين ، وجاءه صوت القبطان يصرخ :

«كل واحد فى مكانه ... كل واحد فى مكانه !»

وصل مندى الى مؤخرة السفينة وسمع صيحات القبطان تتبدد فى الهواء ، ورأى أجساد البحارة وهى تقفز فى ذعر الى المياه ... وعاد صوت القبطان الى الصراخ :

«كل واحد فى مكانه ، المركب لازم تطلع من البوغاز !»

لم يفهم مندى شيئا ، ولم ير فى تلك اللحظات شيئا ، وهو ، حتى تلك اللحظات التى كان يقص فيها ما-تدث ، لايدرى لم ترك الرجال يهربون الى المياه ، ولم اندفع بقوة غريبة يصعد سلما ، ويعدو متخطيا السنة لهب كانت تعترض طريقه ، ليصعد سلما آخر ، الى حيث غرفة القيادة :

«أيوه ياقبطان !»

كان القبطان يقف فى غرفة القيادة كالمجنون وهو يصيح فى الميكروفون :

«كل واحد فى مكانه . كل واحد فى مكانه !»

كان هذا الرجل اليونانى ذو الوجه الصلب والكلمة التى لاترد . والذى كان مندى يظن فيه أنه بعيد المنال عما ينال البشر ، كان يقف صارخا مذعورا هو الآخر ... وكان ثمة رجل يقف خلف عجلة القيادة ... والقبطان يصرخ فى ضابط صغير بدا عليه الهلع :

«كل السرعة للامام ... كل السرعة للامام !»

وصرخ الضابط فى بوق صغير مرددا أوامر القبطان الذى التفت نحو مندى صارخا :

«انتى واقف هنا بتعمل ايه ؟!»

ولم يحر مندى جوابا . كان فقط ، يشعر بسائل ساخن ينزلق من رأسه الى وجنته ... مد يده اليه ونظر فيها وعرف أنه كان ينزف دما ... لكن صوت القبطان لاحقه :

«روح البروه بسرعة . اجرى ساعد شبيطة !»

فى لمح البصر ، كومضة برق ، مرقت الفكرة فى ذهن مندى ، لكنه كان الآن ينطلق الى حيث مقدمة السفينة ، وكان شبيطة هناك !

رغم الظلام والسفينة التى مالت على جانبها فى عنف ، رغم الذعر والهلع والرعب ، فلقد جاءه صوت شبيطة واضح النبرات :

«تعالى هنا يامندى وخليك جنب جنزير الهلب ياجدع !»

جاءه صوت شبيطة وكأنه يد حانية حازمة تدفعه لكى يطيع ، ولقد أطاع ...

اندفع نحو محبس الجنزير وقبض عليه بكلتا يديه ، وكان شبيطة يقفز الآن الى حيث امتد اللهب من الونش الهائل الكامن فى مقدمة السفينة ، صاح :

«لو جرى لى حاجة مالكشى دعوه بيه !»

دهش مندى . كان شبيطة يقفز مثل غوريللا هائلة من مكان الى مكان ... اختفى لثوان وعاد ومعه رجل آخر وكانا يحملان خرطوما للمياه ... سلطا الخرطوم نحو النيران ، واندفع شبيطة ليفتح صمام المياه لكن المياه لم تنفذ من الخرطوم

فجأة ... دوى انفجار آخر ...

وفى لمح البرق كانت مؤخرة السفينة تغوص فى المياه ...

دوى هذا الانفجار وأحس مندى أنه يطير فى الهواء ، بل ، يسبح

فى الهواء ، شيء كالغيبوبة هى ، كالإغماء . كاللاشيء هذا الذى أحس به مندى حتى أنه ترك نفسه فى نشوة غريبة لهذا الاحساس الذى أيقظته منه برودة المياه الشديدة فشهق ... وتدفقت المياه الى حلقه ، فلقد كان الآن يغوص فى لجة فائرة بالأمواج والانفجارات والخطر ... وتحت المياه . حيث كانت الدنيا تبدو وكأنها دنيا مسحورة . دوى انفجار ثالث ، لكنه مكتوم ، وومض ضوء باهر . تحولت بعده المياه الى شيطان لا اتجاه له . وأحس مندى أنه يغوص ويغوص . ولقد حاول . حاول أن يصعد الى أعلى دون جدوى ... كان صدره الآن يضيق بحثا عن نسمة هواء ، وكان جسده مثل قشة تتلاعب بها أمواج شيطانية ... وراح خدر غريب يتسلل الى عظامه . حاول . حاول مندى أن يفكر ، أن يكون . أن يرى . دون جدوى ، كان ... كان يضيع ، الخدر يتسلل الى كل جسده مسببا آلاما رهيبة ... آلاما مثل نصال حادة تمزق صدره ... لكنها ، رغم شدتها ، كانت محتملة ... ذلك أن شيئا آخر كان يحدث فى هذا الوقت ، كان النوم يزحف اليه ، لم يكن نوما . لا ... هو يعرف النوم جيدا . كان ... كان لاوعيا يجتاح جسده كله . فأحس ، وهو يدوز مع المياه الى حيث شاءت أمواجها وتياراتها تحت السطح ، براحة غريبة تجتاحه .. راحة ترك بعدها نفسه ، فلا زمان ولامكان .

***

عندما فتح مندى عينيه كان المكان يبدو له شديد الغرابة ، كوخ خشبى ذو نوافذ زجاجية طلى زجاجها باللون الأزرق ، صوت الأمواج يأتى من بعيد . تحركت عيناه من السقف البادى أمام عينيه الى ماحوله فوجد أسِرّة مرصوصة بطول الكوخ الخشبى ، انجلى سمعه فأتته أنات رجال من هنا وهناك . رائحة الدواء النفاذة تملأ الهواء ... حاول أن يحرك جسده فأحس بآلام فى ظهره الزمته السكون مرة أخرى ، أغمض عينيه محاولا أن يتذكر ماكان فلم يفلح ، اختلطت كل الذكريات واجتاحت رأسه دوامة

من الصور لم يميز من بينها شيئا ... عندما فتح عينيه كان ثمة وجه أشقر فى ملابس بيضاء يطل عليه باسما :

«هل استيقظت ؟!»

كانت تبتسم ، وكانت تتحدث فى انجليزية بسيطة تعود مندى أن يسمع مثلها فى الميناء من بحارة السفن وجنود الامبراطورية ...

«أنا فين ؟!»

قالها بالعربية فابتسمت صاحبة الوجه الأشقر وأمسكت بيده وراحت تقيس نبضه ... انتبه مندى بعد جهد واستجمع ذاكرته وسأل بانجليزية ركيكة :

«أين أنا ؟!»

«فى جبل طارق !»

وتذكر كل شىء مع ذكر الاسم ... الانفجار والنيران والمياه والسفينة الغارقة ... هم بالجلوس فانتشرت الآلام تمزق ظهره ... وضعت صاحبة الوجه الأشقر يدها فوق كتفه وأعادته الى رقدته :

«لابد لك أن ترتاح !»

شرخ السكون صوت غليظ ما ان سمعه مندى حتى انتفض !

«خليك نايم وبلاش معاندة !»

التفت نحو اليسار فوجد شبيطة يرقد فى الفراش المجاور . اجتاحته الحيرة وعيناه تلتقيان بعينى شبيطة ... كان شبيطة جالسا فوق حافة الفراش المجاور . وكان يبتسم .

«ايه اللى حصل ؟! »

« طوربيد تانى ؟! »

هم مندى بالسؤال مرة أخرى غير أن ذات الوجه الأشقر وضعت يدها فوق شفتيه وتمتمت بكلمات ترجمها له شبيطة على الفور :

«بتقول لك ماتتكلمش كتير !»

تدحرجت عينا مندى نحو شبيطة وكانت ابتسامته لاتزال هناك ...

كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها شبيطة مبتسما . ولم تكن ابتسامته من ذلك النوع المرسوم على الشفاه ، بل كانت ابتسامة نابعة من القلب . ابتسامة جذبت من شفتى مندى ابتسامة أخرى وكأنهما يتصافحان .

مضت ذات الوجه الأشقر بعد أن تمتمت بكلمات مدغومة ، فانتقل شبيطة من مكانه الى فراش مندى :

«احمد ربنا ... انت كنت حاتروح فيها !»

هم مندى بالسؤال فأسكته شبيطة بحنان بدا شديد الغرابة :

«قلنا ماتنطقش ، الكلام مش كويس علشانك !»

«ايه اللى حصل ؟!»

قالها مندى عنادا ... فرد شبيطة :

«أبدا . انت كنت حاتتوكل لولا ستر ربك !»

«ايه اللى حصل !»

«كلها كام يوم ونخرجوا من هنا ونقعدوا لنا قول سنة ... محدش عارف امتى حانقدروا نرجعوا ؟!»

تذكر مندى زغدانة ، وكفر الزيات ... وهاهو عام كامل يكتنفه الظلام من كل جانب مقدم عليه . فماذا هو فاعل ؟!

***

بعد عشرة أيام كان مندى يسير فى وضح النهار بجوار شبيطة فى أحد شوارع المدينة التى بدت وكأنها تنام فى حضن الجبل فينام أهلها فى حضنها . كان يملك بعض المال الذى صرفوه له وكان الحديث يدور حول سفينة ستعبر بعد أسبوعين فى طريقها الى الشرق ...

«يعنى ايه ؟!»
«يعنى يمكن تكون رايحة مصر !»
«طب مانطلعوا عليها !»
«ويمكن تكون رايحة حتة تانية !!» .

***

وهكذا راحت الأيام تمضى . جاءت السفينة ولم يصعدا اليها ، وغرقا مرة أخرى فى الانتظار ... كانا قد علما أن أحدا لم ينج من السفينة سوى قلة من الرجال الذين رحلوا الى قرية بعيدة لسبب لايدريه أحد . ولم يبق هنا فى المدينة سواهما معا .

وهكذا وجد مندى نفسه ، وجها لوجه ، مع شبيطة الذى قرر قتله منذ أسابيع قليلة فوق ظهر سفينة . ولكن شيئا آخر كان يربط بينهما الآن ، نوع غريب من الصداقة راحت تمتد ... حتى اذا كان ذات مساء ، عاد مندى الى الالحاح :

«انت ليه مش عاوز تقول لى أنا نجيت ازاى ؟!»
«مانى قلت لك !!»
«ايوه عارف أنه ستر ربنا ونعم بالله ، لكن ازاى !»
أطال شبيطة النظر اليه باسما وسأله :
«انت عاوز تعرف ايه ؟!»
«مين اللى طلعنى من الميه . مين الى نجانى ؟!»
« أنا ! ! »

## • الصورة الحادية عشرة •

مرت الأيام وكان كل شيء يبدو هادئا وكأن الدنيا قد عادت الى النوم والاسترخاء من جديد ... طاب المقام لمندى وشبيطة فى هذا المعسكر الذى وضعوهما فيه فى طرف المدينة ، قادوهما الى عنبر فسيح قد امتلأ بالأسرة وامتلأت الأسرة برجال من كل انحاء العالم ... فى البداية لم يكن عليهما سوى أن يناما ويستيقظا ويأكلا مايقدم لهما ، وان يقفا فى طابور كى يحصلا على الطعام أو الصابون أو بعض الملابس الصوفية التى كان لابد لهما من الحصول عليها بعد ما هجم الشتاء على المدينة باردا أشد مايكون البرد ... فى تلك الليلة قص شبيطة على مندى ماحدث فى بساطة ... كان شيئا غريبا قد حدث منذ أن قال شبيطة من بين شفتيه متمتما انه هو الذى انقذ مندى من الغرق ... كانت الذكريات تعود الى مندى تدريجيا بعدماشفى من جروحه ... كان آخر ماتذكره هو هذا الخدر الغريب الذى تسرب الى عظامه ولفه لفا فاستجاب له مستسلما ربما فى نشوة ... قال شبيطة أنه لم يغادر السفينة الا بعد أن أيقن من شيئين ، الأول ان السفينة غارقة لا محالة ، اما الثانى ...

«ماهو آنى كنت بنبص عليك من فوق ، العوامة فى أيدى والحبل

حوالين وسطى وانت غطست ولا قبيتش .. قلت مابدهاش .. اتشاهدت ونطيت فى الميه !»

لم يدهش مندىَ لأن شبيطة فعل مافعل ، لكن الذى أثار دهشته حقا أنه تلا الشهادتين قبل أن يقفز الى المياه ... نظر مندى الى شبيطة فى دهشة بدت واضحة على ملامحه ، فتوقف هذا عن الحديث متسائلا :
«مالك ياجدع ؟!»

هم مندى بالحديث لكنه توقف ... فماذا يقول للرجل الذى لم يره الا سكران أو مؤذيا ... وكيف يتلو من كان مثله الشهادتين وكيف يكون متدينا من كان يفعل مافعله ويفعله شبيطة ... عاد هذا يسأله من جديد :
«فيه حاجة يامندى ؟!»
«لا أبدا ياريس شبيطة !..»

وعاد شبيطة الى الحديث من جديد ... كانا يجلسان وقتها على مقهى يطل على المضيق ، يرتفع جبل طارق من خلفهما شامخا وكأنه جدار أسطورى يحمى المدينة من غوائل الزمن ، وتترامى امامهما المياه حتى الشاطىء الأفريقى بلونها الداكن وأمواجها الغاضبة ، وكانت موجة من البرد قد هبت فنهضا الى الداخل ، وطلب شبيطة لنفسه كأسا من البراندى يدفىء به أوصاله ... وعرض على مندى مثله لكن هذا رفض :
«أصلى لا مؤاخذه عمرى مادقته !»
«ما انت حاتدوقه فى يوم من الأيام »

هز مندى رأسه نفيا دون أن يدرى السبب ، جاء الجرسون بالكأس فألقاها أمام شبيطة فى لا مبالاة وكسل ، رفع شبيطة الكأس الى فمه وأفرغها فيه ومسح شفتيه وراح يقص عليه قصة انقاذه :
«ماهو ماكانش بالساهل انى نلاقيك فى الميه دى !..»

كانت الأمواج عالية والسفينة تغوص فيها وتسحب من خلفها كل ما

على السطح القريب ، قال شبيطة أنه غطس فى المياه مرة ومرتين دون أن يعثر لمندى على أثر ، كان فى سباق مع القدر فلقد كانت السفينة تغوص فى المياه بسرعة ، امتلأ المضيق باللنشات والصفارات وقد جاءت لتنقذ الغرقى من بحارة السفينة . كان الذين قفزوا مبكرا قد استطاعوا الابتعاد عن منطقة الجذب الى الاعماق مع هبوط السفينة الى المياه ، وكان شبيطة يعلم أن لكل ثانية ثمنا ... ولحظة أن استسلم وهو يدور بعينيه فى الظلام بحثا عن مندى فوق سطح المياه ، لحظة أن فكر أن ينجو بجلده ويسبح مبتعدا ، لمح على بعد شيئا فوق السطح ، ضرب المياه بذراعيه فى عنف حتى وصل الى المكان فلم يجد شيئا ، راح يضرب المياه بذراعيه على غير هدى ، عندما ارتطمت يده بجسد انسان ... لم يكن يعرف من هو ، غير أنه عندما جذب الذراع التى ارتطمت بيده ، صعدت رأس مندى الى السطح ... فصرخ شبيطة فرحا ... وراح يجذب مندى خلفه سابحا الى الى حيث كان أحد قوارب الانقاذ يلقى بشعاع كشاف أحاط بهما ...

قال شبيطة :

«لما طلعونا على ظهر اللنش واحد منهم قال مفيش فايدة !»

«فى أيه ياريس شبيطة ؟»

«فيك ياجدع ... ما انت اصلك كنت بتخلص !»

وعلم مندى بعد ذلك كيف ظل بين الحياة والموت لأيام طويلة ، تذكر أنه كان كلما فتح عينيه وجد شبيطة يطل عليه مع وجه آخر قد يكون وجه طبيب أو ممرضة ... وكانت تريزا ، تلك الفتاة المالطية ، هى الممرضة التى كرست أياما طويلة لعلاج مندى بدأب ... هكذا قال شبيطة فسأله مندى عن السبب ... وعندما ابتسم شبيطة تلك الابتسامة الواسعة الغريبة ، لم يفهم مندى شيئا مما عنته هذه الابتسامة . ومالبث أن ساءل : «يعنى أيه ده بقى يا معلمى ؟!»

فى تلك اللحظة بالذات ، تلك اللحظة التى مال فيها مندى على شبيطة فى ود وناداه بلقب معلمى ، أحس كل من الرجلين أن ثمة جبلا من الجليد كان يفصلها عن بعضهما ، وقد ذاب ... فلقد ابتسم شبيطة ابتسامة أوسع وأرحب ، وبدا وجهه فى تلك اللحظات جميلا وسيما قويا مما أدهش مندى أشد الدهشة ، وصفق شبيطة طالبا كأسا أخرى ، واعتدل ناظرا فى حنان نحو مندى فاضطرب هذا لنظراته الغريبة تلك ...

«انت عاوز تعرف ايه ؟!»

«اشمعنى لما جت سيرة تريزا ضحكت كده ؟!»

«لهو انت مش عارف !؟»

«ماكنتش سألتك !»

«البنت وقعت وبابخت من وقع ولقى اللى يسمى عليه !»

كانت النشوة قد بلغت ذروتها وشبيطة يبتلع كأسه الثانية فى هذا الصباح . فصاح معلنا عن سروره وشوقه الى بلده : يامرسى يابو العباس !

ولم يكن ممكنا ، مع كل تيارات الفكر التى راحت تتلاطم فى رأس مندى حول تريزا ، حاملة ذكريات مامضى من أيام كان يراها فيها فى اليوم مرات ومرات ، ولم يكن ممكنا ، مع كل هذا الا أن يتذكر زغدانة ... فتنهد من أعماقه !

حملق فيه شبيطة هاتفا :

«دهدى ... دى الحكاية سلك واتوصل والكهربا مشيت والأشيا معدن !»

غير ان مندى لم يرد ... فقط ، سرح ببصره الى مياه المضيق ، وقد اجتاحه الشوق اجتياحا .

فى تلك اللحظات بالذات . كانت زغدانة تجمع نصبه الطعمية من سوق كفرالزيات ، كانت حكاية الطعمية التى طلبها أحمد الحمامصى ذات

يوم ، قد كبرت ، ولم يعد بيت الحمامصى وحده هو الذى يطلب طعمية من أم زغدانة والكومى ، بل انتشر الخبر فى شارع همازين هذا انتشار النار فى الهشيم ، وفوجئت أم زغدانة بطلبات الطعمية تنهال عليها من السكان ، فشمرت عن ساعديها . كما شمرت زغدانة عن ساعديها هى الأخرى ، وبعد أيام قليلة ، وبحسبه بسيطة كل البساطة ، اكتشفت العائلة انه من الممكن الاستغناء الآن عن الشاى وبيع الشاى ، وعلى الفور ، وذات ليلة قررت العائلة أن تنقل نشاطها من الشاى الى الطعمية ...

«تنزل بكره من النجمة ياكومى تشوف لك مطرح فى حته زحمه لاجل ماتحط النصبه !»

«والمونه ياوليه !»

«مالكش دعوة بالمونة دى على ... زغدانة تنزل تصحى عم صبحى العلاف وتجيب لنا منه كيلة فول ، والخضرة لك على اجيبها من النجمة من السوق ، وعلى النهار مايطلع حاتكون العجينة عندك وتكون انت ولعت البابور وقدحت الزيت واتوكلت على الله !»

هكذا نشطت العائلة نشاطا شديدا ، ونهض الكومى الى الصفائح الصغيرة يعدل منها لتناسب عدة الطعمية أو الفلافل كما كانوا يطلقون عليها ، وانطلقت زغدانة تبحث عن بيت عم صبحى العلاف فى ظلام الشوارع المضاءة بالنور الأزرق ... راحت تتمتم بآيات من القرآن الكريم خوفا من العفاريت والغارات ... كان الطريق الى بيت العلاف يخترق سوق كفر الزيات القائمة فى الساحة خلف بيت الحمامصى ، كانت العربات والنصبات تبدو بها فى الظلام مثل اشباح مخيفة وكان قلبها يدق ولسانها يتمتم بآيات من القرآن ، حتى اذا اخترقت السوق الصامتة كصمت القبور وهمت بالانحناء الى شارع جانبى حتى دوت فى سماء المدينة ، صفارة الانذار التى وضعها رجال الحكومة منذ زمن فوق بيت الحمامصى بالذات .

ارتجفت زغدانة وهى تنظر الى السماء متسمعة الى ازيز الطائرات الالمانية ذات الصوت المتقطع ، ومنذ أيام مر عليهم رجال الحكومة ليصرفوا لكل واحد منهم «كمامة» تحميه من الغازات السامة ، قالوا لهم أن عليهم أن يرتدوها عند اطلاق صفارة الانذار لأن الالمان يلقون قنابل تنشر السم فى الهواء فتبيد العالم ...

التصقت زغدانة بالحائط وقد انتابها الرعب . غاصت قدماها فى طين الطريق وانزلقت مع ارتكان جسدها الى الحائط ... سمعت عن يمينها صوت قدمين تخوضان فى الطين وتقتربان منها .

دق قلبها بعنف اكبر فماذا لو كان صاحب القدمين واحدا من رجال الامبراطورية المعسكرين على الشاطىء الثانى من النيل ، والذين اذا ما نزلوا الى المدينة عاثوا فيها فسادا وتحدث بأفعالهم أهل البلدة لأيام حتى يسمعوا عن حادثة جديدة ... غير أن زغدانة كانت تستعد ، كلما اقتربت الاقدام ، لمعركة كانت تعلم مسبقا أنها معركة خاسرة ، ولكن ... ما أن أصبح الشبح يقف على بعد خطوات منها حتى توقف ، وجاء صوت خافت واضح :

«مين ؟!»

كان الصوت مألوفا لزغدانة . كانت تعرف صاحبة لكنها لم تتعرف عليه وسط دوامات الخوف التى اكتسحت كل جسدها ونفسها وروحها ... عاد الصوت يتساءل بصوت أشد وضوحا :

«مين اللى واقف هناك ؟! »

وكان لابد لزغدانة أن ترد فردت :

«أنا زغدانة !»

اندفع الشبح نحوها فى لهفة وبان صوته ووقع وجهه فى دائرة ضوء خافت لايدرى أحد من أين جاء فاذا به أحمد الحمامصى :

«واقفه كده ليه يازغدانة !»

حكايات كثيرة تلك التى سمعتها عن أحمد الحمامصى الذى ورث مالا وتجارة ، والذى يعيش مع أمه وأخواته البنات وهو أصغرهن سنا وان كان اعلاهن مقاما فهو رجل البيت ، حكايات عن بنات أجريج ــ أى يونانيات ــ أحببنه وأحببن ولولا أن رفضت أمه بإصرار لكان زوجا لواحدة منهن الآن ... رغم غناه الفاحش ، وملابسه الفاخرة ، ووجهه الوسيم ... الا ان شيئا ما كانت تنطق به عيناه ، شيئا لم تره زغدانة من قبل وأن كانت أحسته بوضوح :

«ايه اللى جابك هنا يازغدانة ؟! »

«كنت رايحة نشترى كيلة فول من عند عم صبحى !»

«وحد يشترى فول فى وقت زى ده ؟!»

«أصل احنا لازم ننصب النصبة بكرة من النجمة ولا عندناش فول كفاية !»

«انتوا حاتشتغلوا فى الطعمية وتسيبوا الشاى ؟!»

«آهو كله أكل عيش ياسى أحمد أفندى !»

«طب تعالى !»

قالها بثقة شديدة وهو يتقدم زغدانة لتعود فتسير من خلفه مخترقة السوق بأشباحه وسكونه وعرباته المغطاة ... انزلقت قدمها فى كتله طين كانت تتوسط الطريق فسقطت على يديها وتوقف أحمد ناظرا اليها وعلى شفتيه ابتسامة لم ترها زغدانة فلقد كانت مشغولة فى اقالة نفسها ، سبت الطين والحرب والأيام السوداء التى قذفت بهم من مدينتهم وحياتهم ... حاولت أن تخرج قدميها من الطين غير أنها كادت تفقد توازنها مرة أخرى . عاد اليها أحمد فى هدوء ، وأمسك ، دون أن تنتبه زغدانة ، بيدها فى قوة ، وجاءها صوته آمرا :

«اتسندى على أيدى وخطى قوام !»

كأن الامر قد صدر من فمه الى آلة فاطاعت ، واكتشفت أنه كان يمكنها أن تخطو وحدها فدهشت ، سارت الى جواره غير ان يده لم تترك يدها ، سارت الى جواره غير أن يده لم تترك يدها ، دهشت فى البداية فلقد كانت أصابعه تقبض على أصابعها فى عنف رقيق ، فكرت فى ان تسحب يدها لكنها لم تستطع ، لا ، لم ترد ، عربدت الدهشة والثورة والضيق فى صدرها فصاحت محتجة :

«طب احنا رايحين فين دلوقت ؟!»

«رايحين نجيب فول !»

«منين ؟!»

«من المخزن بتاعنا !»

مرا ببيت الحمامصى ودق قلبها فى عنف ، فماذا لو رآها أحد وقد أمسك أحمد بيدها بمثل هذه القوة ، وهذا التشبث ... ورغم غضبها ودهشتها ، الا أن بريقا من سعادة كان يبدو بعيدا بعيدا فى أعمق أعماقها ، بريقا يدفع بالنشوة الى كل أوصالها رغما عنها ، فى آخر الدوار الهائل ، فى الطرف المواجه للكنيسة التى تشمخ فى منتصف شارع الجندى ، وقف أحمد وترك يدها وفتح باب المخزن ودلف الى الظلام فى الداخل ... ظلت زغدانة تقف فى الخارج لاتعرف ماذا تفعل ، كان الظلام فى الخارج حالكا ، لكنه كان فى الداخل دامسا ... ولم يكن صوت طائرة قد ظهر فى سماء المدينة حتى الآن ، وكانت الكشافات ذات الأذرع المضيئة حتى عنان السماء قد كلت من البحث فسحبت أشعتها وانطفأت ... ودوت صفارة الأمان وأضيئت الأنوار فى النوافذ خلف الزجاج الأزرق ... وجاءها صوت أحمد من الداخل :

«زغدانة !»

كان النور قد أعاد اليها بعضاً من شجاعتها فتقدمت نحو باب المخزن :

«نعم ياسى أحمد أفندى !»

«تعالى شيلى الشوال ده !»

عندما اقتربت ، كان وجه احمد يتصبب عرقا وقد حمل الجوال الممتلىء حتى حافته بالفول المدشوش ، وبدت زغدانة كفتاه ساذجة لاتفهم شيئا :

«ايه ده ياسى أحمد افندى ؟!»

«الفول !»

«بس دانا عاوزه كيلة !»

«واذا كان شوال !»

«ماهو أصل الـ ... ...»

«حاخد ثمنه كل يوم الصبح ، تفضلى تفطرينى طعمية لحد ثمنه مايخلص !»

بدا لها الامر كحلم بعيد عن التصديق ، أن هذا الجوال يعتبر بالنسبة اليهم رأسمال ماحلموا يوما بأن يبدأوا حياتهم به ، اندفعت نحو الجوال لتحمله فتعثرت قدمها وسقطت بيديها فوق الجوال الذى كان أحمد يمسكه ، كان رأسها الآن امام صدره تماما فهبت على وجهها نسمة دافئة معطرة بعرق الشاب الذى كان ينظر اليها باسما . رفعت اليه عينن زائغتين لاتدرى سببا لزيغهما هذا ، وجاءت كلماتها متقطعة مهلهلة ... قالت :

«ممكن تشيّلنى اسم الله على مقامك !»

فى لمح البصر ، كان أحمد يرفع الجوال ليضعه فوق رأس زغدانة التى ما إن استقر الحمل فوقها حتى انطلقت نحو الباب فى سعادة غامرة وهى تهتف :

«روح ياشيخ .. ربنا يجعل لك فى كل خطوة سلامة !»
«زغدانة !»
كانت عند الباب فتوقفت . استدارت ناظرة اليه دون رد :
تقدم منها أحمد فى هدوء ، قال :
«مش عاز حد يعرف انكم أخدتم الفول من هنا !»
«طب أقول لابويا وأمى أيه ؟!»
«قولى لهم .. بس حرصيهم !»
«حاضر ياسى أحمد أفندى ... حاضر !»

***

انطلقت زغدانة من مخزن الحبوب لاتلوى على شىء ، تاركة وراءها ذلك الشاب الذى ظل مسمرا فى مكانه لدقائق ، وعيناه ساهمتان ، وقلبه يدق بعنف ، لكن عقله كان يعمل بسرعة شديدة .

***

فى ذلك الوقت بالتحديد ، كان شبيطة قد أخذ مندى الى تريزا ، وفى ذلك المقهى المنزوى فى أحد أركان شارع كان يقع على سفح الجبل ويصعد ، جلس مندى مع تريزا وهى ليست فى ملابس التمريض فلم يكد يتعرف عليها . كانت تبتسم . وكان هو يبتسم . وقال شبيطة :
«تريزا ... انت بتتكلمى عربى زيك زى نص الملاطوه ، ماتلعبيش على الواد !»
ضحك الثلاثة ... ونهض شبيطة وهو ينظر فى ساعته مخاطبا مندى :
«ما تنساش نفسك والا قفلوا عليك الباب وتبات فى الشارع !» .

سمع مندى ماقاله شبيطه لكنه لم يسمعه . فلقد كانت نظرات تريزا

الآن تمتص كل خلية فى جسده ، وكانت يداه تمتدان عبر المائدة دون ارداة منه . ليمسك بيديها ، فاذا حمرة الخجل تكتسح وجهها المستدير الهادىء الجمال ..

وعندما نطق أخيرا قائلا : «ازيك ياتريزا ؟!» .... جاء صوته ضائعا مبددا وجف حلقه ...

وقبل أن ترد عليه . أيقن مندى ان ثمة شيئا جديداً سوف يحدث فى حياته !

## • الصورة الثانية عشرة •

لو أن مندى حاول أن يتذكر ماحدث فى تلك الأيام بدقة ، فلن يستطيع ، ذلك أن كل شيء اختلط فى ذهنه اختلاطا شديداً ، كانت اقامته فى ذلك المعسكر الذى يضم العشرات من جنسيات مختلفة ، قد أضافت اليه الكثير مما لم يحلم يوما بأن يراه ، حتى وهو يفكر ، جالسا عند قمة رصيف النورس مطلا على المياه المتلاطمة تحت أقدامه فى ميناء الاسكندرية ، لم يطف بخياله أنه سوف يعيش حياة كتلك التى عاشها فى جبل طارق ، تداخلت اللهجات واللغات فى ذهنه تداخلا شديدا ، واصطنع الرجال الذين جاءوا من بلاد متفرقة بعيدة لأنفسهم لغة خاصة هى خليط من عدد لابأس به من اللغات الأفريقية والأسيوية والأوربية ، كان هذا وحده كافيا لأن يشعر مندى بالدوار ، وكان كافيا لأن يجعل من شبيطة ، الذى أصبح الآن صديقه ورفيقة ، ملكا فى مملكة عرف الرجل كيف يسوس أموره فيها ..

غير أن هذا كله ، وأن كان قد أضاف الى مندى الكثير مما أفاده بعده ذلك فى حياته ، الا أن ماحدث له مع تريزا ، كان أكبر وأعمق تأثيرا .

ففى تلك الليلة الأولى التى تركهما فيها شبيطة وحدهما ، وجد مندى نفسه أمام لغز شديد الغموض ... كانت تريزا «مالطية» جاءت الى جبل طارق مع احدى البعثات الانجليزية التى علمتها التمريض ... كانت فتاة من ذلك النوع الصامت الذى تتحدث عيناه بأكثر مما يتحدث لسانه ، وعندما سألها شبيطة إن كانت تحب مندى ، لم ترد ، وانما ردت عيناها ببريق كان هو الذى اختطف قلب مندى الذى راح يدق فى تلك اللحظة بالذات ، بحب زغدانة البعيدة عنه ... وعندما امتدت يده لتلامس يدها ، سارعت هذه الى يده لتحيطها بكلتا يديها ... وبدا الأمر لمندى ، مع بساطته المتناهية ، وكأنه ذروة مايمكن أن يحدث فى هذا الكون ... فتبدد تماما !!

ولم يكن مندى ليستطيع أن يتأخر عن العاشرة مساء ... هذه أوامر المعسكر الذى يعيش فيه ، وعندما عاد الى فراشه ، كان شبيطة هناك ، يرقد على الفراش المجاور مفتوح العينين باسم الشفاه ، يدخن ... وكان واضحا تماما أنه فى انتظار مندى .

«ايه اللى حصل ياجدع ؟!»

هكذا تمتم شبيطة متسائلا وهو يحملق فى مندى الذى جلس على حافة فراشه ساهما كالمأخوذ ... انتظر شبيطة لثوان أن يرد عليه مندى دون جدوى .

«مالك ياجدع ؟!»

«هه ؟!»

«ايه اللى بيك ؟!»

«سلامتك ياريس شبيطة !»

«سلامتك انت يابن أبويا .. ايه العبارة !»

ولكن عبثا .. لم يكن فى استطاعة مندى أن يقول شيئا ، أو أن

يعبر عما كان يدور فى صدره من أحاسيس .. كان صعبا ، صعبا ، صعبا .

«مندى ... ايه عبارتك بالضبط كده قول لى ؟!»

كان شبيطة الآن يهز مندى هزا . فأفاق هذا مما به وابتسم ..

«ايه اللى بيك يامندى ؟!»

كان القلق قد بدا يستبد بشبيطة ... ورد عليه مندى :

«ولاحاجة !»

«أمال مالك ؟»

«مش عارف !»

«طب أحكى !»

جاءت الكلمات الأخيرة أمرا صارما وقد اعتدل شبيطة امام مندى وبدأ عليه القلق واضحا ... أكثر ماكان يقلقه ، ابتسامة مندى الواهنة هذه ، ابتسامة كانت تنبثق من شفتين شاحبتين ، ونظرة كانت تسيل من عينى الفتى كالدموع .

«احكى أقول ايه يامعلمى ؟! »

«تقول اللى حصل بالضبط !»

«اللى حصل ؟!»

بدا على شبيطة أنه يفقد أعصابه لسبب لم يدره مندى ... صاح فجأة فاهتز العنبر لزئيره :

«البنت دى شربتك حاجة ؟!»

وصاح رجل من آخر العنبر وهو يسب ويلعن طالبا الهدوء طلبا للنوم ... ولم يلق اليه شبيطة بالا ، بل راح يلح على الفتى :

«قول يامندى .. قول ياجدع !»

وقفز الرجل من آخر العنبر مندفعا نحو شبيطة والشرر يتطاير من

عينيه ، التفت مندى نحو الرجل وعرف فيه روبى ، ذلك الايطالى السمج الذى لم يترك رجلا فى المعسكر دون أن يشتبك معه ... كان من ذلك النوع من الرجال الذين توحى وجوههم بالشر دون أن يقدم على شىء ، أو يصنع شيئاً ، فاحت رائحة الخمر من فمه وهو يواجه شبيطة بسيل من السباب بتلك اللغة ذات الموسيقى التى كان يطرب لها مندى ، نظر شبيطة الى روبى وقال بالايطالية مامعناه أن عد الى فراشك ، لكن روبى عاد يصيح بأنه يريد أن ينام ، وأن صوت شبيطة يزعجه ، وتمالك شبيطة نفسه وعاد يطلب من روبى أن يعود الى فراشة ، لم ينتبه مندى الى أنه كان يتتبع الحوار بين الرجلين دون أن يفهم مما كانا يقولان كلمة . لكنه كان يفهم كل كلمة ... فى لحظة ضاق فيها صدر شبيطة بروبى نهض اليه ... ونهض كل من فى العنبر جالسين فى أسرتهم ، أو مندفعين نحو الرجلين اللذين كانا يزأران فى وجهى بعضهما بعنف راح يتصاعد لحظة بعد الأخرى ... ولقد كان شبيطة ، رغم مرور الأيام ، حريصا على الا يدخل مع أحد فى معركة ، كان يعرف ، بحسه وتجربته ، أنه أفريقى ، وأن هؤلاء الذين أصبحوا نصف أسرى ، أو نصف مسلحين ، مفضلين عند حراس المعسكر من جنود الامبراطورية ، غير أنه فى تلك الليلة ، كان لابد له وأن يحسم الأمر ، وعندما رفع روبى قبضته فى الهواء رافعا آياها نحو وجه شبيطة فى لكمة كادت ، لو أنها اصابت وجهه ، تهشم عظام هذا الوجه . عندما فعل روبى هذا ، حدث ماكان الرجل يتجنبه طوال الأسابيع التى انقضت ... وماهى الا ثوان مضت فى لمح البصر ، حتى كان العنبر قد تحول الى حلبة للملاكمة والمصارعة معا ، واستدار الرجال من حولهما فى دائرة وراحوا يتصايحون وقد انقسموا الى فريقين ، فريق الأفارقة والآسيويين يشجع شبيطة ، وفريق الأوربيين يشجع روبى ... وكان مندى يقف وسط هذا الجمع الصارخ ، ضائع النفس مبدد الوجدان .

كانت المعركة عنيفة كل العنف ، سالت دماء الرجلين ولم يكف أحدهما عن القتال ، غير أن الكفة كانت ، تدريجيا ، ماترجح انتصار شبيطة ، كان روبى هائجا كثور ، لم يكن هياجه بسبب ماحدث بقدر ماكان بسبب احساسه بالتفوق على هذا المصرى ، الذى جرؤ ، ورفع فى وجهه يدا ..

وعندما صاح روبى اثر لكمة هائلة أصابت وجهه : «أيها القذر !» ، كان شبيطة قد وصل الى ذروة اللاعودة ، فانهالت على روبى الضربات من كل اتجاه ، وفى كل موضع لجسد ... وعندما وصل ضجيج الرجال الى الحراس خارج العنبر ، وعندما اقتحم فريق منهم باب العنبر حاملين البنادق المشرعة صارخين بالكف عن العراك ... كان روبى يسقط فوق الأرض مكوما فاقد الوعى سائل الدم !

***

بات مندى وحده فى تلك الليلة حزينا . وكان فراش شبيطة بجواره خاليا بعد أن أخذه الجنود الى سجن المعسكر . وبعد أن حملوا روبى الى المستشفى فاقد الوعى . وبعد أن ساد السكون العنبر وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل . ظل مندى مفتوح العينين ، تختلط الأحداث فى ذهنه اختلاطا شديدا ، وتتداخل حتى المرئيات امام عنيه ، وها هو الريس شبيطة ، الرجل الذى أقسم ذات يوم أن يقتله كما قتل ثلاثة من جنود الامبراطورية من قبل ، هاهو يدخل السجن من أجله ؟!

فما الذى حدث ... وما الذى جعل مندى يصل الى ماوصل اليه ؟!

لم يكن أمامه بد من العودة الى الوراء ساعات ليعرف فقط ، ما الذى وقع ؟!

***

قالت تريزا وكل منهما يحتضن يد الآخر فى شغف :

«لازم نقوم من هنا !»

كانت لهجتها العربية عرجاء . لكنها كانت مفهومة ... ولقد تعود مندى على تلك اللهجات التى كانت تملأ شوارع الاسكندرية وحواريها ، وكان يكفى لأى أجنبى أن يتحدث اليه بالعربية فى الاسكندرية ، أن يعرف على الفور أن كان ايطاليا أم المانيا أم فرنسيا أم انجليزيا أم أمريكيا أم .. أم .. أم أى جنسية من تلك الجنسيات التى كانت تعيش وسطهم وكأنهم أصحاب البلد ... لم ير مندى فى لهجتها اذن غرابة ، بل العكس كان صحيحا ، فلقد ذكرته تلك اللهجة بصوت الخواجة برطموط الصراف المالطى الشديد الغنى ذى المعطف البالى الذى لم يغيره منذ سنوات ، والذى كان يجلس الى مائدته الصغيرة أمام باب ستة ، يتاجر فى العملات ، ويقرض البعض بفوائد كانت مثار حديث كل من كانت له حاجة .

نهض مندى مع تريزا . سار بجوارها وقد بزغت زغدانة فى وجدانه ... كان يسير معها على شاطىء المضيق فتذكر انطلاق زغدانة فوق رصيف النورس بصينية الشاى والأكواب المليئة والملعقة الصدئة وصوتها المقتحم وعينيها الخضراوين فى لون البرسيم ... وعندما أحس بذراع تريزا تحيط خصره فى الشارع ارتجف ، نظر يمنه ، ونظر يسره ، ونظر الى الخلف وكان الطريق المضاء بالمصابيح الزرقاء ، مليئا بالناس الذين يروحون ويجيئون ، فهم أن ينبه تريزا الى أن ماتفعله قد يثير الناس ويغضبهم ، غير أنه فوجىء ، قبل أن ينطق ، برأسها ينام ، وهما سائران ، فوق صدره .

كانت جميلة ، وكان جمالها من ذلك النوع الشاحب الهادىء الذى يتسلل فى نعومة الى القلب والوجدان فلا يشعر المرء الا بكيانه كله وقد احتله احساس غامض مخيف بالرغبة ... سارت به وسار بها الى حيث لايدرى ... انعطفت فى شارع جانبى ثم توقفت فى بقعة مظلمة . نظر

مندى الى وجهها المتطلع اليه من أسفل ، وكانت شفتاها ترتجفان بالرغبة ، دق قلبه بعنف بالغ فابتلع لعابه ، اجتاحته الرغبة فى أن يفترس شفتيها افتراسا ، لكن ثمة وهنا غريبا كان يتسلل الى عظامه ، رفعت اليه وجهها ، ولامست شفتاها شفتيه ، فاستسلم دون ارادة ودون تفكير .

عندما أفاق مندى مما كان فيه ، وجدّ نفسه فى غرفة صغيرة ، فى بيت صغير يطل على حارة كانت تنحدر الى حيث شاطىء المضيق ، وتتعرج مختفية وسط ركام البيوت التى ملأتها ، والتى كانت تصعد فوق سفح الجبل الى حيث لايدرى ..

هم مندى بأن يسألها أين هما ... فتذكر أنه دخل البيت من بابه ، وكان الأب يجلس أمام مدفأة صغيرة كانت ترسل نارا زرقاء اللون ، وكان يميل بنظارته الطبية العتيقة فوق جريدة وقد استغرق فى القراءة فيها ، بينما كانت الأم ، تجلس قبالته ، أمام المدفأة وهى تعبث بأبرتين طويلتين وكرة من الخيط هائلة ، وكانت تصنع صديريا من الصوف لأحد لايدريه ... وقف أمامهما معقود اللسان ، واستمع الى الحوار الذى دار بينهما وبين تريزا ، ورآهما وهما يعودان الى ماكانا فيه وكأن الأمر لايخصهما من قريب أو من بعيد ، وتبع تريزا الى حيث السلم الضيق الصغير . صعدت . فصعد وراءها . فتحت الباب ، فدلف خلفها ، أغلقت الباب وارتمت فى أحضانه .

فى تلك اللحظة بالذات . تذكر مندى زغدانة . دفعها بعيدا عنه .

قال :

«تريزا !»

«حبيبى !»

قالتها بانجليزية سليمة ... وعاد مندى يقول :

«آنى لازمن نقول لك على حاجة !»

عادت تهمس بالانجليزية وهى تأخذه الى مقعد قديم بجوار الفراش الصغير :

«أحبك .. أنا أحبك !»

«وأنا متجوز !»

لحظتها توقف كل شيء . وجمدت الفتاة فى مكانها وهى تنظر نحوه . لا فى غضب كما توقع . وانما نظرت اليه تلك النظرة الغريبة التى يصعب على الرجل ، مهما كانت خبرته ، أن يعرف لها معنى أو تفسيرا .

أحس مندى بالحرج فنهض قائلا فى أسف :

«آنى اتجوزت قبل مانسيب البلد بكام يوم !»

راحت تريزا تنظر اليه فهرب من نظراتها ... كان ثمة مصباح صغير قد وضع فوق مائدة فى ركن الغرفة ، وكان المصباح يرسل ذلك الضوء الأزرق الخافت ... وهبت نسمة من خارج النافذة فتلاعبت استارها البيضاء ، وبدا له الطريق من خلال النافذة خاليا من الناس ، ومن بعيد كانت أمواج المضيق ترسل أنغامها الرتيبة ... وعندما تحركت تريزا نحوه . كانت تبدو وكأنها قررت أمرا ، فلقد اقتربت منه حتى التصقت به ، أحاطته بذراعيها وهمست متسائلة :

«وانت حاترجع مصر تانى ؟!»

ولم يرد ، وفكر ، قدح زناد فكره ، لكنه أبدا لم يجد أجابة ، فهل ... هل سيعود الى مصر من جديد حقا ؟! ..

غير أنه قبل أن يفتح شفتيه ، كانت قد تعلقت بعنقه ، وراحت تمطره بالقبلات !

***

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما فتح باب العنبر ، وأضيئت الأنوار ، ودقت أحذية الجنود الصارمة فوق أرض العنبر ، حتى وصلت الى فراش مندى فتوقفت .

استيقظ فى العنبر عدد من الرجال . هب البعض منهم جالسا . واكتفى البعض بأن فتح عينيه وراح يرقب مايدور ... وقال أحد الجنود فى صرامة وغضب :

«انت البحار مندى ؟!»

«نعم !»

فى احتقار بالغ ، لوح الجندى بابهامه قائلا :

«اذن . اجمع كل حاجياتك وتعالى معنا !»

ولقد فعل مندى ما أمروه به ... غير أنه لم يكن يدرى ، أن حياته اليوم قد انحرفت فى مسارها انحرافا آخر . وأنه سوف يبيت ليلته فى السجن .

## • الصورة الثالثة عشر •

مر يومان قبل أن يفتح باب الزنزانة على شبيطة ومندى ، مر يومان لم يقدم لكليهما سوى وجبة واحدة كل يوم . وكان شبيطة هادئا طوال الوقت ، أما مندى ، فلم يكن يعرف سر ماحدث ، كما أنه لم يكن يعرف رغم ماحدث ، سر ذلك الهدوء الذى حل على شبيطة فألزمه الصمت لساعات .

فى الليلة التالية اعتدل شبيطة مستديراً نحو مندى وسأله :

«لسه مش عاوز تقول لى ايه اللى حصل ؟!»

ولم يكن أمام مندى سوى أن يستجيب للرجل فيقص عليه ماحدث ، كان أكثر ماأدهشه وجود الأب والأم فى البيت . وكان هذا مع ماكان كامنا فى نفسه من احساس بالذنب تجاه زغدانة ، هو سر سهومه فى تلك الليلة ... استمع شبيطة بانتباه بالغ لكل ماقال ... حتى اذا ماانتهى مندى من روايته ، زام شبيطة وانقلب على جانبه الأيسر معطيا ظهره لمندى دون كلمة .

مضت دقائق بطيئة سادها الصمت ، وكان مندى مازال جالسا مفعما بالذكريات . فى قلبه حنين غريب يجذبه الى تريزا التى لابد هى الآن فى انتظاره ، وكان على موعد معها فى اليوم التالى ، سأل شبيطة فجأة :

«ريس شبيطة !»
زام شبيطة دون أن يتحرك . وعاد مندى الى الحديث :
الا انت كنت خايف من أيه ؟!»
ساد الصمت وكان يبدو على شبيطة أنه يفكر بعمق ... لكنه مالبث أن استدار نحو مندى ، ثم مالبث أن نهض جالسا مشعلا سيجارة سارحا بعينيه الى بعيد . وعندما جاء صوته كان جافا خاليا من كل احساس :
«كنت خايف عليك يامندى !»
«من ايه ؟!»
«الا البت تطلع من اياهم وتديك حاجة كده والا كده !»
لم يفهم مندى شيئا . قال :
«بس انت عارف انى مابنشربش يامعلمى !»
«بكره تشرب !»
«بس ... ...»
هب شبيطة واقفا وخطا خطوة فأصبح بجوار حائط الزنزانة الرطب :
«مش الشرب اللى كنت خايف عليك منه !»
«أمال ايه ؟!»
نظر مندى طويلا نحو شبيطة وكان هذا قد ارتكن الى الحائط وراح يدخن فى هدوء ، لكنه أخيرا اعتدل فى وقفته وهو يقول :
«خفت الا يدوك حباية وبعدها ياخدوك ورا الشمس !»
ازدادت دهشة مندى فنهض الى شبيطة يريد ان يعرف . فجلس هذا رافعا رأسه اليه :
«أصل البلاد دى فيها حرب ياجدع !»
«مانيش فاهم !»
فى عصبية قال شبيطة :

«آنى لما لقيت البنت غاوياك فرحت ... مانعرفش ليه ... ومن يوم ما اتعاركنا على المركب وان بنحس انك زى أخويا الصغير ، لما شفت اللى شفته قلبى انشرح ، قلت بدل ماانت متلقح آهو آديك تتسلى ، لكن ... لكن بعد ما سبتك معاها ، كنت ناوى نرجع وناخدك تانى ، خفت عليك من الحباية !»

«آنى حباية يامعلمى !»

خفت صوت شبيطة وهو يقول :

«اصل الألمان لهم رجاله هنا فى الجبل !»

«الألمان ؟!»

«والطلاينة !»

«والانجليز مش بيمسكوهم ليه ؟!»

«لأنهم أسبان ومن ولاد البلد !»

ثم أضاف شبيطة فى عصبية :

«ولأنهم مش عارفينهم كمان !»

«طب أيه اللى بيحصل ؟!»

«بيدوا للنفر من دول حباية مع كاس ، مع شوية شاى ، فى الأكل ، أيها حاجة ... بعدها النفر من دول ، قول عليه يارحمن يارحيم !»

«ازاى ؟!»

«الا ازاى .. هو انت لسه بِكْر ياجدع !»

علت حمرة الخجل وجه مندى ، وتذكر ، أنه لأول مرة يعرف طعم المرأة فيها كان مع تريزا ... تلعثم ولم يرد غير أن شبيطة عاد فاسترسل فى الحديث :

«أصل الحرب يا غالب يامغلوب ، ولأجل ماتغلب لازمن تعمل أيها حاجة . أيها حاجة !»

«بيحصل ايه لما النفر من دول بياخد حباية ؟!»

«مخه بيطير ، مابيبقاش عارف حاجتن تخلق فى الدنيا الا البنت دى ... يديها اللى هى عاوزاه ، ويعمل كل اللى تقول له عليه !»

«يااااه »

«الالمان ماخلوش حاجة ماعملوهاش ... وبعد البت ماتملك الواد تمام ... تصبح تانى يوم الصبح ماتلقاهوش !»

«بيروح فين ؟!»

«مانى قلت لك . ورا الشمس !»

قفز شبيطة فى عصبية نحو نافذة الزنزانة العالية . وقف تحتها ، أطل منها مشيرا نحو الجبل الذى بدا فى جوف الليل وكأنه وحش أسطورى :

«شايف الجبل ده ؟!»

«شفته !»

«لو خطيته حاتبقى فى بلاد الأسبان عدل !»

«ودى فيها ايه ؟!»

«الأسبان بيتحبوا الألمان ياجدع !»

«يعنى ايه ؟!»

«يعنى حاتلقى كام المانى مستنظرينك ، ياخدوك لأجل ماتشتغل فى السخرة لحد ربك ما يفتكرك !»

«فى بلاد الألمان !»

«فى أيها داهية !»

«تبقى انت اتخانقت مع روبى لأجل ماتحبسنى معاك هنا !»

«كنت فاكرك راجل وحاتخش العركة معايا !»

«طب ازاى ؟!»

ابتسم شبيطة وقد أحس أنه انكشف :

«لكن آنى ماعتقتكش برضه . قلت لهم انى ماضربتوش لوحدى !»

صرخ مندى :

«ايه ؟!»

«لاجل ماتنحبس ولاتطلعش تانى !»

«بس البنية ماادينيش حبوب !»

«مش يمكن تديك تانى مرة !»

«بس دى ! ... ... ..»

توقفت الكلمات فى حلق مندى أمام نظرات شبيطة الواثقة المحبة :

«ماتقدرش تقول يامندى . ماتقدرش تقول !»

وهوى مندى فوق الفراش ذاهلا . تحطم حلمه تماما . أحس بغصة فى حلقه . وظل طوال الليل مفتوح العينين ، بينما كان شبيطة يغط فى النوم .

وعندما فتح باب الزنزانة فى الصباح التالى ... وعندما نودى عليهما وأمرا بأن يتبعا الجنود ، تساءل مندى الى أين يأخذانهما .. فقال شبيطة من بين أسنانه :

«المحكمة !»

***

كان الفناء خاليا تماما وقد أوغل الليل وازداد الظلام عندما سبح صوت زغدانة متكسرا :

«بس آنى متجوزة ياسى أحمد أفندى !»

كان أحمد الحمامصى يقف قبالتها فى ذلك الركن البعيد من الفناء ، والذى يوصل الى السلم الصاعد الى الدور العلوى حيث تسكن العائلة بأطفالها ونسائها ورجالها وشبابها ... ولولا الظلام الحالك لرأت زغدانة وجه أحمد الحمامصى وقد شحب شحوبا عظيما ، غير أنها ، بحس الأنثى ، قد استمعت الى أنفاسه المضطربة اللاهثة ... وعاد صوت زغدانة متكسرا من جديد :

«اتجوزت قبل مانسيب اسكندرية ونيجى على هنا !»
«آمال هو فين ؟!»
«ركب البحر على باب الله !»
«حايرجع امتى ؟!»
«ياعالم !»
«مفيش عنه خبر !»
«كل اللى ينزل اسكندرية وكل اللى ييجى منها مابيعرفش عنه حاجة !»

ساد الصمت من جديد ، وضعفت ساقا زغدانة فاستندت الى الحائط ، فى الظلام سقطت دموعها لتغمر وجهها ، كان أكثر مايحيرها ويغضبها ويؤرقها ، هو هذا الضعف المخيف الذى تشعر به تجاه أحمد الحمامصى هذا الذى لم يتفوه بكلمة نابية أمامها ... ولم تلمس يده يدها ، ولم يفعل شيئا يغضب الله ... كسر الصمت صوت أحمد وكان يبدو أنه يتقدم منها فتراجعت حتى التصقت بالحائط :

«بتحبيه ؟!»
«مش جوزى !»

وهوى الصمت هذه المرة وكأنه أصبح بلا نهاية ... فاهت زغدانة أخيرا بكلمات متعثرة :

«مالك ياسى أحمد !»

تنهد أحمد الحمامصى ، وبدا أنه يعتدل كى يمضى فى طريقه :

«أصل أنا كلمت والدتى لأجل ماتكلم أبوكى !»
«على أيه ؟!»
«عليكى يازغدانة ... عليكى !»

قال هذا وهو ينصرف متجها نحو السلم ، تلامس ذراعه بذراعها

نفوا فى الظلام فارتجفت ، راحت تتسمع صوت أقدامه المتسللة وهى تصعد السلم فى خفة . كادت تناديه فلم يطاوعها لسانها ، تذكرت مندى فازداد هطول الدمع ليغرق وجهها سخينا ... هبطت بجسدها لتتكوم فى تلك البقعة النائية من الفناء ، انها تحب مندى ، هذا لاشك فيه ، وهو .. هو الذى دفع مهرها ثلاثة رءوس لثلاثة رجال اغتصبوا عفتها ، وهو ... هو الذى غفر لها مالا ذنب لها فيه وماكان غيره ليفعل ... وهو ، هو الذى ركب البحر والهول فى وقت كان جميع الرجال يهربون منه من أجل أن يوفر لها حياة وعشا يعيشان فيه ... هو ، هو مندى الذى كان ينظر اليها فى صمت فيصيبها الدوار فوق رصيف النورس ، فما بالها الآن ، ضعيفة ضعيفة أمام شاب لم يقربها ، ولم يغازلها ، ولم يقل لها كلمة سوى أنه كان راغبا فى الزواج منها ؟!

شق السكون صوت المؤذن لصلاة الفجر ، وانتبهت زغدانة وهى فى جلستها وكان عليها أن تسرع بنقل النصبة الى السوق ... نهضت فأحست أن عظامها تتكسر تحت وطأة حركتها ... وفى مثل هذه الساعة من كل يوم كان عليها أن تحمل المائدة الصغيرة التى أخرجها أحمد الحمامصى من المخزن وأعطاها لها كى تصبح دعامة النصبة التى لم تعد الآن مقامة على الصفائح القديمة ... كان الحال قد أصبح غير الحال ... وكان الكومى قد وجد لنفسه مكانا فى سوق وسط المدينة أمام الفرن الأفرنجى حيث يشترى الخواجات العيش الفينو ويشتريه الفلاحون كى يغمسوا به خبزهم المصنوع من الذرة ... وكانت النصبة قد أصبحت الآن شيئا له كيان ، ودخل الربح وفيرا الى جيب أبيها وأصبح زبائنه من أهل البلدة كثيرون بعد أن تفننت أمها فى صنع عجينة الطعمية أو الفلافل كما كانوا يطلقون عليها ... وأصبح من الطبيعى أن تسمع أما تطل من نافذة أحد البيوت فى حارة من حوارى كفر الزيات ، وهى تصيح فى ابنها الذاهب الى السوق :

«تجيب الطعمية من عند الكومى ياوله !»

ومنذ الشروق كان الزبائن يتزاحمون حول الكومى وزغدانة وأصواتهم تتلاحق وتتشابك وتتصارع وتتعارك والكل يريد أن يأخذ نصيبه قبل الآخر ... كانت الدنيا فى تلك الأيام قد ابتسمت قليلا للعائلة المهاجرة ، والتى أصبحت محل حسد بقية المهاجرين ... وكان لابد للهمس من أن يستشرى وسط الجميع ، وكان لابد من القول بأن ماهبط على عائلة الكومى هبط من أحمد الحمامصى لغرض فى نفسه من زغدانة ، وكان الأب يعلم ، كما كانت الأم تعلم ، ولكن زغدانة لم تلق بالا الى ماكان يقال حتى كانت تلك الليلة التى خرجت فيها زغدانة من غرفتهم لشأن من شئونها فسمعت همسا يناديها ، وعرفت فى الهمس صوت أحمد الحمامصى الذى كان يقف فى هذا الركن الخفى البعيد ، وحتى وجدت نفسها تستجيب لندائه دون مقاومة ، وأن تقف معه ، وأن يحدث بينهما هذا الذى حدث !!

غير أن الحياة كان ولابد أن تسير ، فسرعان مااستيقظت الأم وراحت تجهز العجينة بسرعة ، ونهض الأب . وحملت زغدانة المائدة فوق رأسها وقد وضعت فوق المائدة كل ماتستعمل من أوان فى صنع الطعمية ... غير أنها ، وهى فى الطريق الى السوق . سمعت أباها يتمتم :

«احنا لازم نشتروا عربية يد لأجل مانحط عليها النصبة !»

لم ترد زغدانة وظلت تسعى فى الطريق الموحل دون أن تنظر تحت قدميها فلقد كانت تعرف الطريق جيدا ، خبرت مرتفعاته ومنخفضاته فراحت تسعى ساهمة مفكرة فيما كان منذ ساعات فى ركن مظلم من فناء دامس الظلام ...

غير أنهما ما كادا يصلان الى السوق ، حتى روعهما مارأيا ...

كان هناك عدد من جنود الامبراطورية مسلحين بالبنادق الرشاشة ،

وسيارات مصفحة تغلق السوق من أوله حتى آخره ... وكان الباعة هناك بموائدهم وأوعيتهم ومشناتهم يقفون ذاهلين ... وكان الكل يسأل عن الخبر ... وكان الخبر غريبا :

«الكولونيل مش عاوز زحمة فى سكته !»

وكانت هذه الجملة بالذات ، هى الاشارة الخضراء ، لطريق أخر ، كان على زغدانة أن تسير فيه مرغمة !

## • الصورة الرابعة عشر •

بدت البلدة فى ذلك اليوم وكأنها فى يوم الحشر ، كان شارع السوق هذا الذى أغلقه البوليس الحربى البريطانى فى وجه الناس ، هو الشريان الذى يصل كل شوارع البلدة وحواريها ، الى كل شوارع البلدة وحواريها ... وكان شارع السوق هذا هو قلبها التجارى الذى يلتقى فيه كل بائع وشار ... وبينما انسد الشارع من ناحية المزلقان حيث الطريق آت من كل القرى المجاورة ، وتجمع هناك الفلاحون بأوزهم وبطهم وبهائمهم وقمحهم ... انسد الشارع من الناحية الجنوبية بأهل البلدة الذين استيقظوا سعيا وراء رزقهم وأكل عيالهم ... وهناك ، وسط كل هؤلاء الناس الذين ازدحموا وتلاصقت أجسادهم واختلطت كلماتهم كانت زغدانة تقف مع أبيها وأمها التى كانت قد لحقت بهما تحمل عجينة الفلافل جاهزة للصنع .

ولاأحد يدرى ما الذى حدث ، وكيف بدأ الأمر :

كان الناس يتكلمون ... كل الناس .

كان يتحدثون عن الكولونيل الذى لايريد زحاما فى الطريق الى المأمور ، وكان البعض يقولون أنه صديق الملك ، وقال آخرون انه زير نساء اليونانيين فى المدينة ، وأنه يريد أن يثبت لحبيبته أنه يستطيع التحكم فى

لمدينة برجالها ونسائها وعيالها ... وقال آخرون أن المأمور ــ هذا الحاكم الذى لاترد له كلمة ويهابه الكبير قبل الصغير ويعمل له الجميع ألف حساب ــ ليس سوى «شرابة خرج» أمام الانجليز ... واحتدم الجدل بين اثنين من الرجال فصرخ أحدهم فجأة : «يحيا النحاس باشا !» ... وتردد الهتاف تلقائيا غير أن الصمت خيم على الجميع فجأة ... عندما ظهر المأمور من ناحية المركز ، وكان يركب حصانا ...

كان شارع السوق فى كفر الزيات يبدو خاليا فى تلك اللحظات الغريبة ... فتحت الدكاكين ووقف أصحابها أمامها ينظرون هنا وهناك وليس هناك من بيع أو شراء ... وتجمع الناس فيما بعد الفرن الأفرنجى فى كتلة بشرية تسد عين الشمس ... وكان حصان المأمور يتهادى أمام عربة جيب صغيرة تسير بجوارها دراجة بخارية كان كل أهل البلدة يعرفونها جيدا ، فهى للسارجنت جون قائد البوليس الحربى الذى يشرب البيرة منذ الصباح حتى المساء ويطل على الناس بوجهه الأحمر القانى وعينيه الزرقاوين اللتين تنفثان على البشر كراهية وتعاليا لايعرف أحد سببهما ... وعندما توقف المأمور أمام السارجنت بحصانه ، ترجل ... نزل من فوق حصانه ، وراح يتحدث الى الشاويش الانجليزى .

وقتها ... عم الصمت الجميع .

عم الصمت وساد السكون وتركزت آلاف العيون على الرجلين اللذين كانا يتحدثان معا ... ولكن ... ...

ولكن ... بينما كان المأمور الذى يضع على كتفيه تاجين لامعين يزغللان الأعين ويخيفان الناس من حضرة «الصاغ» ، أو سعادة البيه المأمور ، كان الشاويش الانجليزى الذى يضع على ذراعه ثلاثة أشرطة بيضاء ، يقف مائلا فى استخفاف ، سيجارته بين شفتيه ، واحدى قدميه

فوق سلم السيارة الجيب ...

ولا أحد يدرى ما الذى حدث ... غير أن الناس رأت بعيونها المتوترة النظرات أن الحديث كان يحتدم ، وأن المأمور كان يلوح بيده ، وأن السارجنت كان يعتدل فى وقفته متحديا ، وأنه ، امعانا فى التحدى قد ألقى بالسيجارة التى بين شفتيه الى الأرض ، ووضع يديه فى خاصرته وهو يزعق فى وجه المأمور مشيرا الى حيث المركز كمن يطرده ...

ولاأحد يدرى أيضا من صاحب الصوت الذى ارتفع صارخا لبسبح فوق رءوس الجميع :

«تحيا مصر !»

ومرة أخرى تردد الهتاف تلقائيا ، رددته هذه المرة ألوف الأفواه ، والتفت المأمور الى حيث كان الناس قد تحولوا الى كتلة بشرية هائلة وغاضبة ... ورد السارجنت على تلك الحركة بصيحة استعد لها الجنود الواقفون أمام سور الأجساد الذى بدا يتحرك مع كل هتاف يصدر ، وقد اعتلى كتفى رجلين شاب بدا غاضب الوجه والعينين ، وعرف فيه الناس أحمد الحمامصى ...

رفعت زغدانة رأسها من وسط الناس وهى تحمل ماتحمل من أدوات النصبة ، لتجد أحمد وهو يهتف بكل مافى حنجرته من قوة :

«يحيا النحاس باشا !»

والناس ترد ...

«تحيا مصر !»

والناس ترد !!

«نموت وتحيا مصر !»

والناس تهتف ...

ثم ... ثم دوت فوق الرءوس طلقة !

وانطبعت فوق صدر أحمد الحمامصى دائرة من الدم حمراء اللون ... وارتفعت ذراعه فى الهواء كمن يهم بالهتاف ... لكن الذراع توقفت ، والصوت انحبس ، وهوت الذراع ، ومن بعدها الجسد ... ثم ... ثم قامت بعدها القيامة !!

***

الليل والظلام ونور القمر شاحب حزين وهاهو النيل يزحف منذ أن كان حتى تحين الساعة ... الصراخ والبكاء والدم والموت وكأن كل ماحدث ليس سوى كابوس ولابد أن تفيق زغدانة وتصحو ذات ساعة لتحمل «العدة» وتسير الى السوق وتبيع الفلافل وتعود الى البيت وتتذكر مندى وتتمزق شوقا وألما وضياعا ... وعندما حدث ماحدث تحولت البلدة الى كرة ملتهبة من الغضب راحت تحرق وتدمر وتقتل وتسفك الدماء ... سقط أحمد الحمامصى قتيلا وانفجر الناس فمزقوا جنود الامبراطورية شر ممزق ... انطلقت الاعيرة النارية وأصيب رجال ونساء وسقط الكومى وزوجته تحت الاقدام فسْرعان ماعبرت الكوبرى سيارات الانجليز تحمل جيشا من جميع الأمم راح يصب النار على الناس صبا كالمطر ، اختلط الحابل بالنابل واهتزت اسلاك البرق واحتل جيش الامبراطورية الذى عسكر فى البر الثانى من النيل مدينة كفر الزيات ، صرخت زغدانة ولطمت وانشبت اسنانها فى عنق جندى أحمر الوجه أزرق العينين ولم تترك العنق الا وقد قضمت بلعومه وهى تصرخ : «آبا ... آما» . رأت أباها بذراعة العاجزة وهو يسقط بعد أن تهشم رأسه بكعب بندقية انجليزية راح حاملها يهوى بها فوق رأسه فى غل أصاب أمها بالجنون ... هجمت على الجندى وقد ألقت بالعجينة فوق وجهه وراحت تضرب وتضرب وتصرخ وتصرخ ... عينا زغدانة تائهتان تنظران ذات اليمين وذات اليسار واذا سونكى حاد النصل يخترق ظهر الأم فتسقط هى الأخرى تحت الاقدام ... حوصرت المدينة ومنع الناس من السفر وسمعت زغدانة ساعة العصر احدهم وهو يقول أن الراديو لم يذع

شيئا عن الخبر وأن الرقابة سوف تمنع نشر ماحدث فى الصحف فالامبراطورية فى حالة حرب والأحكام العرفية معلنة والحكومة لعبة فى يد الانجليز الذين هتكوا كرامة المدينة وضربوا مأمورها وقتلوا رجالها ونساءها ... لم تفقه زغدانة كلمة مما قيل غير أنها وعته وظلت تذكره وقد عادت ، أو أعادوها ، الى غرفتها فاذا هى وحيدة ... باتت المدينة فى تلك الليلة وفى كل بيت مأتم ... لم ترتد زغدانة السواد ولم تصرخ ولم تلطم ولاتدرى ما الذى فعلوه بأبيها وأمها ، أدخلوها غرفتها فدخلت ، أجلسوها فجلست ، تحدثوا اليها فلم ترد ... كان كل شىء يبدو بغيضا كريها ولم تكن تريد أن ترد أو تتحدث وياليتها تنسى ولاتتذكر شيئا مما كان ... فهل يعود أبوها وتعود أمها مثقوبة الظهر مرة أخرى ؟! ... فى المساء كانت الشوارع خالية ومنع الناس من مغادرة بيوتهم ... فتح الباب ودلفت ذراع تحمل مصباحا ورفعت زغدانة عينيها لترى على ضوء المصباح وجها مستديرا شديد البياض شديد الجمال شديد الحزن ... وعرفت زغدانة صاحبة الوجه ، الست دولت سيدة نساء الحمامصى ورجالهم معا ، أم أحمد الذى سقط اليوم مثقوب الصدر برصاصة جندى انجليزى وهو يهتف تحيا مصر ... امتدت يد السيدة اليها فنهضت معها ، ومن كان يستطيع أن يقول للست الكبيرة لا ! غادرت الغرفة مطيعة ، وصعدت السلم لأول مرة الى حيث كانت عائلة الحمامصى تقطن ... حيث البيت المسحور الذى سمعت عنه ... أجلستها الست دولت بجوارها فوق الكنبة ، وأمرت لها بالطعام فجاءوها بصينية قد امتلأت بالأطباق والأطعمة ... أمرتها أن تأكل فأكلت ولم يكن للأكل طعم ولا مذاق ، غير أنها ما أن ابتلعت لقيمات حتى تحرك فى صدرها شىء ... لم تكن زغدانة قد تناولت الطعام منذ أن استيقظت وهاهو الليل ينتصف وهى تبتلع الطعام فيسيل الدمع من عينيها مدرارا ... ربتت احداهن على ظهرها مواسية فجاء صوت الست الكبيرة آمرا :

«سيبيها تعيط !»

وانفجرت زغدانة فى البكاء لأول مرة ... بكاء ليس كالبكاء ، ونحيب ليس كالنحيب ، لكنه شيء لاوصف له ... لاتعرفه زغدانة ولم تعرفه .. غير أنه ينبع من أعماق أعماق أعماقها ، وشيء واحد يطوف برأسها ... فهل قدر لها أن تولد كي تعيش فى بحر من الدماء ؟!

***

لم يكن السجن سجنا ، ولا كانت الزنزانة زنزانة .

كان السجن مكانا يربض تحت سفح الجبل ، وكانت الزنزانة كوخا خشبيا ... وكان الحكم قد صدر على مندى وشبيطة بالسجن ستة أشهر ، والعمل لحساب السلطة !

ضحك شبيطة وهو يدلف الى الغرفة الخشبية قائلا :

«ماهو هنا زى هنا !»

«بس ده سجن ياريس شبيطة !!»

«والحتة اللى كنا فيها كانت ايه ؟!»

«على الأقل كنا بنخرج !»

ضحك شبيطة وهو يلقى بنفسه فوق فراش صغير :

«هانت ... فات الكتير مابقى الا القليل !»

صاح فيه مندى غاضبا :

«آنى قليل ده يامعلمى . داحنا لسه فى أول ليلة !»

«مين عارف حانخرج من هنا امتى !»

ومنذ أن صدر الحكم من فم الضابط الانجليزى ذى الملابس الصفراء والشفتين الرقيقتين الصارمتين ، ومندى يفكر فيما يمكن أن يحدث له .

«ولاحاجة ... يا أما حايشغلونا فى الفاعل ، يا أما حايشغلونا أى حاجة لحد مانخرج !»

«كان لازم تضرب روبى يعنى ؟!»

رفع شبيطة عينيه نحو مندى فارتجف هذا ... كانت فى العينين نظرة غريبة . نظرة اختلط فيها الألم بالعتاب ، وجاء صوت شبيطة معاتبا :

«انت اللى بتقول ده يامندى ؟!»

احس مندى بالخجل . أرخى بصره وسار الى فراشه وتمتم بكلمات اعتذار بلا معنى .

«هو انت من يوم المركب ماغرقت كنت عاش ياجدع ؟!»

ظل مندى صامتا مطرقا وقد آلمه أن يجرح شعور شبيطة .

«تريزا وحشتك يامندى !»

ولأول مرة ينتفض مندى وقد أدهشه ذلك الحنان الذى كان يسيل من كلمات شبيطة ... ساد الصمت بينهما طويلا طويلا ، كان مندى يحملق فى وجه شبيطة الغريب التقاطيع وشاربه الكث المهول ، وكان قلبه يدق فى عنف .

«اوعى تكون وقعت ياجدع !»

وتساءل مندى بينه وبين نفسه ان كانت دقات قلبه حنينا الى تريزا أم حنانا نحو شبيطة .

«اللى زينا مالوش فى الحب يامندى !»

نهض مندى سائرا نحو شبيطة . جلس الى جواره ناظرا اليه فى توسل كمن يستزيد .

«اللى زينا يابن الناس كل يوم فى حتة ، وكل يوم فى بلد . وكل يوم فى حضن واحدة شكل !»

هم مندى بالحديث فلقد نبتت زغدانة فى صدره فجأة كشجرة تطاول السماء سموقا .

«وآهو اللى له بيت له بيت ، واللى له ولاد له ولاد ... انما هو فين والبيت فين والولاد فين ؟!»

كان شبيطة الآن حزينا حزينا ... وكانت عينا مندى قد تشبثنا به وهو يسير نحو النافذة التى تطل على الجبل الذى بدأ لونه فى الليل مخيفا ... وتنبه مندى الى أنه لايعرف عن شبيطة شيئا ، تذكر أنه اقسم ذات مرة أن يقتل شبيطة فاذا به اليوم على استعداد لأن يموت فى سبيل الرجل الذى أقسم على قتله !

«وهو أنا كنت خايف عليك من ايه ؟!»

«من الحباية !»

«مش بس يامندى ... مش بس !»

كان شبيطة الآن يستدير نحو مندى وقد جرفه الانفعال فاستسلم له دون مقاومة .

«امال من أيه كمانى يامعلمى !»

«من الزفت اللى بيقولوا عليه حب !»

نهض اليه مندى وقد جرفه الشوق والحنين الى زغدانة .

«الا انت عمرك ماحبيت ياريس شبيطة !»

اندفع شبيطة مبتعدا عن طريق مندى ... سار الى حيث كان فراشه وألقى بنفسه فوقه ودفن رأسه فى الوسادة وجذب البطانية فوق جسده وهو يقول :

«تصبح على خير يابن أبويا !»

... ... ...

... ... ...

كان مندى يعلم أن قوة فوق سطح الأرض لاتستطيع أن تجبر شبيطة على الحديث ، أدهشه ماحدث لكنه أجل الحديث لوقت كان يعلم أن شبيطة سوف يتحدث فيه ، أحس للحظات أن هذا الرجل قد امتلأ بالالام الى الحد الذى جعل من اسمه «شبيطة» ... تمدد مندى فوق فراشه ، وراح يرقب السقف الخشبى ، واطفىء النور وعلت فى الخارج

صيحات الجنود تأمر الجميع بالنوم ... فلفته الاحلام !

... .... ....

... .... ....

ومضت الأيام ، وكان لابد أن تمضى ...

مضت الأيام وهما يخرجان للعمل فى الميناء حينا ، وفى معسكرات الجيش الانجليزى حينا ... حتى جاء يوم ، بدا فيه شبيطة كسيف البال ... وعندما دلفا الى غرفتهما الخشبية ، سأله مندى عما به ، فقال شبيطة فى اقتضاب :

«روبى جه السجن !»

## • الصورة الخامسة عشر •

الموت والدم والقتل والشقاء ولاشيء آخر فى حياة زغدانة ، ولقد مرت أيام طويلة وهى تعيش فى بيت الحمامصى ــ فوق ــ رفضت الست الكبيرة أن تدعها تعود الى غرفتها فى الحوش الكبير وسط المهاجرين ، مضت الأيام واقيمت محاكمات وحبس رجال وصبيان ونساء من كفر الزيات ، خلت الشوارع من المارة وامتلأت بدراجات وجنود البوليس الحربى البخارية وحاملات الجنود المشرعين سلاحهم فى وجه المارة ... عاشت المدينة أياما كئيبة لايخرج الناس من بيوتهم ... لايبيعون ولا يشترون ، وكم من مريض عانى من الألم أو مات لأنه كان ممنوعا أن يخرج أحد من بيته فى غير الساعات القليلة التى حددها الكولونيل الانجليزى فى وسط النهار ليجد الناس مايحتاجون اليه ... وحتى تلك الساعات القليلة لم تكن تخلو من أحداث تحدثت بها المدينة سرا ... قتل جندى اخطأ وخطا فى حارة جانبية وحدة فوجدوه مذبوحا فى خرابة ، وقامت الدنيا وقعدت وقبضوا على حسين أفندى الذى يسكن فى المنزل المجاور ، موظف التليفونات المحترم المصلى الذى لم يعرف العيبة فى حياته ويكفى خيره شره هو وأسرته ... وذات مرة نشبت معركة بين بعض شباب المدينة وجنديين من جنود الامبراطورية كان أحدهما هنديا راح يصرخ فى الشبان عندما استولوا على

بندقيته وسددوا السونكى الى صدره : أنا مسلم . لا اله إلا الله . وكاد حامل البندقية يتراجع ولكن عبوده ابن الأسطى خميس الميكانيكى دفع بالبندقية الى صدره وهو يصرخ :

«وكان فين اسلامك لما قتلت الناس فى السوق ياابن الـ ... ... »

حكايات وحكايات وقصص وحواديت كانت تسمعها زغدانة فى مكانها الذى لم تبرحه ... كانت زغدانة صامتة صمت القبور منذ أن حدث ماحدث ، وكم حاولت الخادمات الآتيات من القرى المجاورة أن يخففن عنها ، وكم حاولت الست الكبيرة التى تحركت بجسدها السمين الثقيل لتعبر الشقة من اقصاها الى اقصاها ، ليأتوا لها بمقعد تجلس عليه أمام زغدانة المكومة على الأرض الساهمة الشاحبة التى لاتقبل على الطعام الا لماما ، لتجلس السيدة الوقور المتشحة بالسواد حزنا على ولدها الذى ضاع فى شربة ماء ، وحاولت هى الأخرى مع زغدانة .

لكن زغدانة لم تنطق ... قالت واحدة من الخادمات ان عفريتا قد ركبها وانها تحتاج الى زار ... فهل يقام زار فى البيت ودماء الموتى منه لم تجف ؟!... وقالت أخرى أن أم سعيد الندابة تستطيع أن تفك عنها ما بها ، وجاءوا بأم سعيد ، وكانت سيدة طويلة نحيفة مثل نخلة ، لها وجه أسمر مستطيل وعينان جميلتان نفاذتان ، وصوت رجل أجش ، يقولون أنه صوت الجنى الذى خاواها والذى تلبس جسدها ... جلست أم سعيد أمام زغدانة وراحت تحدثها وتحدثها وتحدثها ولاتكف عن الحديث ، كانت الخادمات يرحن ويجئن ويتفرجن وينقلن الأخبار أولا بأول الى الست الكبيرة التى كانت قد فتحت قلبها لزغدانة ، فهى ، هى الشىء الباقى لها من رائحة ولدها الذى سقط شهيدا برصاص الانجليز وهو يهتف بحياة مصر !

ولكن حتى أم سعيد التى لم تستعص عليها حالة منذ أن كانت ، فشلت مع زغدانة ، وظلت الفتاة صامتة ذلك الصمت الغريب الذى كان

يطل من عينيها نظرات ميتة تائهة مخيفة ... يومها ، قالت أم سعيد وهى تجلس على الأرض تحت قدمى الست الكبيرة المتربعة بجسدها الهائل فوق الكنبة ، قالت أم سعيد :

«مفيش فايدة ياستى أم المرحوم ... لازم لها زار !»

«ياندامتى ... زار قبل الأربعين ياأم سعيد !»

«الشر بره وبعيد ياستى .. البنية مش واعية ، وسيدها راكبها وعاقد لسانها !»

«الناس تقول علينا ايه ؟!»

شهقت أم سعيد ، واشعلت سيجارة بعد أن خبطت بكفها فوق صدرها ، ثم نفثت الدخان وهى تقول :

«مايقول الناس اللى يقولوه ، البنيه حاتروح من ايديكى ، أنا عارفة الصنف ده من بسم الله الرحمن الرحيم !»

صمتت الست الكبيرة طويلا ، ومدت يدها تحت وسادة الكنبة وأخرجت علبة نشوق فضية ، وفتحتها وأخذت منها بأصبعيها وراحت تدس النشوق فى فتحتى أنفها وتتنفس بعنف . ثم ساد الصمت بعد ذلك .

لكن الست أم أحمد نطقت أخير :

«طيب يا أم سعيد .. عاوزه أيه ؟!»

«اسم الله على مقامك ديك أحمر فيه علامة بيضة ، وعضمة من الترب !»

ارتجفت الست الكبيرة عندما جاء ذكر المقابر . نظرت اليها أم سعيد فى أسى ودمعت عيناها وقالت :

«والنبى مانى عارفة ايه حكاية قلبك الحنين ده !»

«يعنى أسيب البنت تروح فى ايدينا يا أم سعيد »

«أنا ماقلتش كده ... بس كل من حى وله بلوته !»
همست الست الكبيرة :
«أحمد كان عايزها !!»
«اسم الله على مقامك ... وهى كانت من مقام المرحوم ياستى !»
«لولا أنها مكتوب كتابها كنت اديتها له !»
«ربنا يخليكى للكبير قبل الصغير !»
تنهدت الست الكبيرة وهى تدس فى يد أم سعيد ورقة مالية خضراء اللون :
«جنيه آهو ياأم سعيد !»
فهتفت هذه بفرح :
«الوقت اتمسى على ... والخروج ممنوع الهى يورينا فيهم يوم !»
«باتى هنا ياأم سعيد !»

ولم تكن أم سعيد تريد أكثر من ذلكَ . فلقد طلبت بخورا ونارا . وصعدت الى سطح البيت ومكثت هناك ساعة وبعض ساعة ، وعادت تحمل ديكا أحمر اللون به علامةِ بيضاء ...

هرولت الخادمات هنا وهناك . وسرى الهمس بين أهل البيت أن الجان جاءوا لأم سعيد بالديك ، فليس فى عشرات الدجاجات التى تسعى فوق السطح ديك له هذا اللون فمن أين أتت به هذه الولية التى دخلت على الست الكبيرة ساعة العشاء وفى يدها الديك المطلوب من الجان ... وهتفت بصوتها الأجش : «وحياة النبى ومن نبى النبى ومن جعل النبى نبى ياستى أنا كنت حاروح فيها !»

توقفت الست أم أحمد عن الطعام وهى تحملق فى الديك الأحمر :
«جبتى الديك ده منين ؟!»
«من الأسياد ياستى . ماكانوش عاوزين . بيقولوا أن اللى على

زغدانة رذل ومؤذى !» .

«وبعدين ياأم سعيد !»

«ولا قبلين ... أدينى باتحايل عليهم من ساعة ماطلعت فوق السطح لحد مارضوا !»

«والزار ؟»

«مانا قلت لهم أنه يايصحش والمرحوم لسه ماربعنش !!»

«ورضيوا ؟!»

«وهم يقدروا يرفضوا لك طلب ؟!»

وانفجرت الست الكبيرة فى بكاء حار ، استمر حتى منتصف الليل ، وباتت ليلتها تلك وقد أسعدها أن سكان ماتحت الأرض من الجان كرموا ولدها ، وان الأمل فى شفاء زغدانة بات وشيكا !

***

وكانت زغدانة ، عندما دخلت عليها أم سعيد تحمل فى يدها المنقد وقد توهجت نيرانه من قوالح الأذرة المجففة المرصوصة فيه بعناية خاصة ، كانت لاتفكر الا فى شيء واحد ... هو الهرب !

كانت الأيام التى مضت أياما عجيبة ، فكرت فى الموت أولا ، ان تقتل نفسها وأن تستريح من هذه الدنيا ، قالت ، فيما قالت لنفسها ، أنها «وش نحس» ، وأنه بسببها قتل مندى ثلاثة رجال ... وأنها فى السوق رأت أباها وأمها يقتلان ولم تدفنهـا ولاتعرف لجثتيهما مكانا ، فلم لم تُقتل هى ؟! ... قالت أن أحمد الذى أحبها . قتل . ومندى الذى تزوجها . هج من البلاد وسافر الى حيث لايعلم الا الله ... وانها يجب أن تموت ، أو ... أو ... تقتل هؤلاء الذين كانوا سببا فى كل ماحل بها من مصائب .

القتل ..

كلمة كانت تبدو لها ذات يوم ، عندما كانت صغيرة ، منذ بضعة أشهر فقط ، رهيبة وبشعة وغير محتملة ... لكنها الآن أصبحت كالصديق الملازم لها ... فهى تلاحقها فى كل مكان ، واذا كانت هى السبب فى كل هذه الدماء التى سالت . واذا كان اقترابها من أحد قد يودى به الى الجحيم ، فلم لاتفعل مثلما فعل مندى ... لم لاتقتل العساكر الانجليز ... لم لاتأخذ بالثأر ... ولكن كيف ؟!

وعندما يعود مندى ذات يوم سوف تحكى له . ولاسبيل الى تحقيق الثأر الا بالهرب من كفرالزيات ، والعودة الى الاسكندرية حيث يكثر جنود الامبراطورية هناك ... وهكذا قررت زغدانة أن تهرب ، وأن تذهب الى المحطة ، وأن تركب القطار ... وكانت هذه الليلة التى دخلت عليها فيها أم سعيد هى الليلة التى قررت فيها زغدانة ان تنفذ خطتها ... ولكن كيف ؟!

... ... ...

... ... ...

انطلق البخور وتوهجت نيران القوالح فى المنقد الموضوع وسط الغرفة ، وراحت أم سعيد تتمتم بكلمات مبهمة وصرخات مكتومة وشهقات مخيفة ... وعندما اخرجت من ملابسها ذلك السكين الماضى ، وعندما هوت على الديك المقيد بجوارها لتفصل رأسه عن جسده ، وتغرف من دمة الدافىء وترش به وجه زغدانة ، حتى اطلقت هذه صرخة رعب هائل ، هاهو القتل يلاحقها مرة أخرى ، وهاهو وجهها ملطخ بالدماء ، وهاهى الدماء دافئة ... فراحت تصرخ وتصرخ ... وكانت أم سعيد تزداد تلاحقا فى تمتماتها وتعاويذها ، وكانت الخادمات قد تجمعن أمام باب الغرفة فى هلع وقد سمعن أحداهن تقول : أن الجنى يرفض أن يغادر جسد زغدانة ، لذا فهى تصرخ من العذاب ... و... وفوق صرخات زغدانة التى

راحت تتلاحق فى عذاب ، تعالت كلمات أم سعيد وهى تأمر الجان بحق هاروت وماروت وماهب وما دب وماتحت نور الشمس والقمران أن يغادر جسد زغدانة على غير رجعة وفى سلام ..

الدماء والنيران ورائحة البخور الخانقة والصرخات تنحبس فى حلقها ، وصدرها يضيق واذا بها تنتفض مندفعة الى باب الغرفة ، تلاحقها تمائم أم سعيد وتعاويذها وكلماتها .

انطلقت زغدانة تجرى فى البيت الواسع على غير هدى ، كانت تخرج من غرفة لتدخل غرفة ، وكان منظرها بشعا وقد تلطخت ملابسها ووجهها بالدماء ... راحت زغدانة تتردد فيها بين الحيطان ككره تنقذف بلا سبب ... حتى اذا ما اندفعت فى لحظة نحو الباب المؤدى الى السلم ، صرخت فيها أم سعيد أن تعود ... ولكن هيهات !

وعندما اخترقت زغدانة الفناء وسط السكان من المهاجرين الذين خرجوا من غرفهم ووقفوا أمام أبوابهم ، البعض منهم يعلق ، والبعض يتلو أدعية ، وآخرون يقرأون قرآنا ، عندما اخترقت زغدانة الفناء مندفعة الى الباب المؤدى الى الطريق ، لم تسمع النداءات والتحذيرات من جنود الامبراطورية الذين يجوسون طوال الليل فى الشوارع بحثا عمن غادر بيته ليعطوه نصيبه ، رصاصة فى الصدر !

***

غير أن زغدانة ، وقد غسل وجهها هواء الليل البارد ، بدأت تفيق مما كانت فيه ، كانت تجرى من شارع الى شارع ، ترى داورية انجليزية فتختبىء منها فى مدخل بيت أو خلف جدار أو فى خرابة... كان لها هدف واحد ، وكانت تعرف الهدف ... هو أن تصل الى محطة السكة الحديد ، وأن تركب قطارا الى الاسكندرية وأن يحدث لها بعد ذلك مايحدث !

عندما جاء الصباح لم يجدوا لزغدانة أثرا فى المدينة ... قيل أنها غرقت فى النيل ولكنه مسحوا المياه وقاع النيل بالشباك ذات السنانير الهائلة دون جدوى ، فتشوا المقابر ، وسألوا الجيران والناس ، ولكن زغدانة كانت قد اختفت تماما . كانت وكأنها ذابت فى الهواء ...

بعد يومين كانت أم سعيد تجلس أمام الست الكبيرة لتواسيها قائلة :

«خطفها يانضرى ، خطفها اللى مايتسمى !»

وكانت الست أم أحمد تبكى فى صمت . وفى أحيان أخرى كانت تنهنه فيهتز جسدها المترهل اهتزازا عنيفا ... وأكدت أم سعيد أنها قالت بأن الجنى الذى خاواها كان عنيدا وقاسيا ، وأنه استشوى الديك ، وطلب خروفا يذبح قبل آذان الفجر بساعة ويفرق لحمه على الفقراء ...

وهزت الست أم أحمد رأسها . وافقت على ذبح الخروف . فقط . تعود اليها زغدانه .

فى ذلك الوقت كانت زغدانة فى مكان آخر . كانت تقبع فى سبنسة قطار من قطارات البضاعة . يجلس أمامها كمسارى يرتدى بذلة صوفية تقية البرد . وكانت ترتجف . وكان الرجل الذى لايعرف اسمها ولم تعرف اسمه ، يخلع المعطف الثقيل من فوق كتفيه كى يدثر به زغدانة وهو يسألها للمرة العاشرة : من هى ؟ . وما الذى حدث ؟ وهل هم الانجليز الذين فعلوا بها هذا ، أم أن هناك شيئا آخر .

ولزمت زغدانة الصمت ... كانت ، وهى تهتز مع القطار ، تفكر فى شخص واحد . شخص واحد هو الذى بقى لها فى هذه الدنيا ... وكان هذا الشخص هو مندى !!

فأين هو مندى الآن ؟

## الصورة السادسة عشرة

كانت زغدانة ، فى ذلك الوقت الذى تقبع فيه أمام كمسارى السبنسة ناظرة اليه بعينين تائهتين ، تفكر فى مندى ، كان هو الوحيد الذى تبقى لها فى هذه الدنيا ... ولكن أين هو مندى ؟!

وكان الرجل الذى تجاوز الأربعين من عمره ويبدو للعين لكثرة ماعانى فى حياته أنه قد تجاوز الستين ، قد خلع معطفه الميرى الثقيل رغم السعال والروماتيزم اللذين كانا قد هدّا جسده هداً ، ودثر به تلك الفتاة التى ظن أنها عفريت أو جان ، كانت ، عندما قفزت الى سبنسة القطار بملابسها الملطخة بدماء الديك ، تبدو وكأنها قد ارتكبت لتوها جريمة قتل غسلت فيها ملابسها بدماء القتيل ، وكان القطار يسير ، يقطع طريقه بين الحقول ، ولم يكن هناك مفر من قبوله للأمر الواقع ... غير أن هذا الأمر الواقع سرعان ماتحول فى نفس الرجل الى واقع آخر عندما رأى عينى زغدانة الزائغتين ، عندما رآى ارتجاف جسدها وشحوب وجهها وضياعها ... قدم لها كوبا من الشاى ، سألها عما بها فلم ترد ... لم تستطع أن ترد ... كانت تبحث فى ذهنها عن شىء تقصه أو تحكيه دون جدوى ، لم تكن تفكر الا فى مندى ، فقط هو مندى الذى استطاع أن ينتقم لها من الانجليز فى البداية ، وهو مندى الذى يستطيع الآن أن ينتقم لها من

الانجليز بعد ماقتلوا كل أحبائها ، كل من تعرفهم ... فأين مندى الآن ؟!... هكذا كانت تتساءل ، ولكن مندى ، فى ذلك الوقت بالذات لم يكن يفكر فى شىء الا فى الريس شبيطة . وما قد يجره مجىء روبى الى السجن من أحداث !

***

يوم أن وصل روبى الى السجن ... تأكد مندى ، كما تأكد شبيطة ، وقال كل من كان هناك وسمع بما حدث . أن روبى لم يأت الى السجن عفوا ، بل لقد وصلت الأخبار ، قبل ظهور روبى مع المساجين الجدد بأنه افتعل مشاجرة كسر فيها فك رجل ، كى يحكم عليه بالسجن ، كى يأتى الى شبيطة وينتقم منه !

ولم يضيع روبى وقتا ، ولقد حرص حراس السجن على وضعه فى مكان آخر بعيدا عن شبيطة ، لكنه ، بالرغم من هذا أعلن ، وفى وضوح ، أنه قد جاء كى يقتل شبيطة !!

ووصل الخبر ـــ أثناء العمل فى الصباح ـــ الى مندى وشبيطة فى نفس الوقت ، وغمغم شبيطة ساعة الغداء ، وهو يلتهم مافى طبقة بسرعة : «مانا عارف !»

وهكذا عاش الرجال داخل السجن أياما من القلق وهم ينتظرون ماسوف يحدث اذا ماالتقى الرجلان ... وكان لقاؤهما يتم ، بالضرورة ، فى تلك الساعة التى كان يقضيها نزلاء السجن ، قبل الغروب ، فى الفناء ... يسيرون فيها جيئة وذهابا ، أو يقبعون بجوار الجدران ، بعضهم ساهم ، وبعضهم يثرثر ، وبعضهم يدبر ...

ولقد كان مندى قلقا على صديقه اشد مايكون القلق ، وكان قلقه يزداد كلما مضى يوم ، فلقد انقسم السجن تدريجيا وبشكل تلقائى ولايعرف

أحد كيف تم هذا ، الى فريقين ... فريق أحاط بروبى وراح يناصره ، وفريق أحاط بشبيطة وراح يشجعه ... وجاء وقت ، كان النزلاء فيه ينقسمون الى هذين الحزبين كى يجلس كل منهما تجاه الآخر ..

وكان شبيطة صامتا ...

وكان مندى يشعر أن الأيام تضيف اليه سنوات من العذاب بلا نهاية ، وكان اذا ماالختلى بشبيطة ، تساءل :

«ناوى على ايه يامعلمى !»

وكان شبيطة يرد فى اقتضاب :

«خليك انت بعيد يامندى !»

وكثيرا ماداهمت مندى الأحلام والكوابيس ، كثيرا ماكان ينهض من نومه فى جوف الليل لاهث الأنفاس يتصبب العرق من كل جسده وقد رأى المعركة ــ فى المنام ــ محتدمة بين روبى وشبيطة ، وكان روبى دائما ، فى كل حلم أو كابوس ، يحمل فى يده خنجرا ، وكان روبى دائما مايطعن بالخنجر فى القلب ... وكان شبيطة دائما مايسقط مضرجا بدمائه !

ذات مرة ، هب مندى من نومه مرتجفا ، فلقد كان الحلم هذه المرة بشعا عنيفا ، كان يجلس على فراشه محملقا فى الظلام عندما جاءه صوت شبيطة :

«رجعت تحلم تانى يامندى !»

همس مندى :

«ريس شبيطة »

«نام !»

«أنا عاوز نقول لك على حاجة !»

«قلت لك نام !»

«ماهو آنى مش حانسكت الا لما نعرف ناوى على ايه ؟!»

وساد الصمت فغادر مندى فراشه وخطا نحو فراش شبيطة ، ركع بجواره وهو يهمس فى حرارة :

«ناوى على ايه ؟!»

برقت عينا شبيطة فى الظلام ، وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة ، وتكسرت الكلمات على شفتيه :

«روبى غدار !»

«سيبهولى !»

قفز شبيطة جالسا من مكانه وقد أذهلته الكلمة :

«ابعد انت يامندى !»

«آنى حانجيب لك أجله !»

«قلت لك خليك انت بعيد . انت لسه صغير على الحاجات دى !»

«آنى جبت أجل ثلاثة قبل كده ، فيها أيه لما ندبح الرابع !»

وكانت هذه الجملة كفيلة بأن تجعل شبيطة يغفر فاه ــ ربما لأول مرة فى حياته ــ ذعرا ودهشة ... ظلا صامتين لدقائق لايدريان ان كانت قد طالت أم قصرت ، وكان شبيطة ، على ضوء النجوم المتسرب من نافذة العنبر الخشبى ، يحاول أن يستشف ماوراء وجه مندى ، الذى بدا له رغم الظلام ، وكأنه تحول الى وجه رجل آخر .

«ايه العبارة ياجدع ؟»

عاد مندى الى فراشة دون كلمة ، ساد الصمت من جديد ليعود شبيطة فيشعل سيجارة متسائلا :

«ايه العبارة ياجدع قول لى !»

ولم يكن هناك مفر ، كالقدر ، كأن انسانا آخر هو الذى ينطق من صدر مندى ، أو ، كأنه يزيح عن صدره عبئا ثقيلا ، راح مندى يحكى حكايته منذ البداية !

كان القطار قد توقف فيما بين قريتين ليفسح الطريق لقطارات الركاب المكتظة بجنود الاحتلال ، وكان الكمسارى يصعد الى السبنسة وهو يحمل جلباب زغدانة بعد أن غسله فى مياه الترعة الصغيرة مما علق به من دماء ... ولى النهار والقطار فى مكانه ، وكانت زغدانة قد قصت على الرجل قصتها ، وكان هو قد طلب منها أن تختبىء فى ركن من السبنسة لتخلع جلبابها كى يغسله لها وتتدثر بالمعطف الثقيل الذى أدفأها مع أكواب الشاى واللقيمات التى اعطاها لها ..

وقف الرجل بباب السبنسة الخارجى مناديا فى صوت خافت :

«زغدانة !»

وأطلت زغدانة من الداخل بوجه شاحب وشعر مهوش ، ونظرت اليه بعينين تائهتين . قال :

«الجلابية نشفت !»

وامتدت يدها لتأخذ منه الجلباب ، ثم اختفت واختفى وارتدت جلبابها وعادت اليه .

«القطر حايقوم بعد عشر دقائق !»

كانت الشمس تميل نحو الغروب ، وكانت سنابل القمح تتمايل مع نسمات الشتاء الباردة ، وسألته زغدانة :

«يعنى حانوصل اسكندرية امتى ؟!»

هتف الرجل دهشا :

«اسكندرية ؟!»

«هو القطر ده مش رايح اسكندرية ؟!»

«لا يابنتى ... احنا حانوصل مصر على وش الفجر !»

عندما كان مندى يسير الى جوار شبيطة وهما فى الطريق الى الـ[illegible]مل . كان ذهنه مشغولا بسؤال واحد : هل اخطأ عندما أعلن سره لـ[illegible]بيطة ؟

وكان شبيطة هو الآخر ينظر الى مندى بجانب عينيه متسائلا : هل أصدقه هذا الفتى القول عندما حكى له حكاية زغدانة وبحارة الانجليز الذين ذبحهم ؟!

غير أن شيئا غريبا ، رغم هذا وذاك ، كان قد ربط الاثنين بهدف واحد . فجأة ، قال شبيطة :

«اذا جرى لى حاجة يامندى خليك بعيد !»

«وانت يعنى حايجرى لك ايه يامعلمى !»

«اسمع يامندى ... اللى زى روبى ده آنى شفت منهم كثير فى دى ، فيه ناس كده ربنا خلقها لأجل ماتأذى ... روبى كده . حايسيب تاره الا إذا مات هو أو ...»

هتف مندى مقاطعا :

«خلاص . أجيب لك أجله !»

فى عنف زجره شبيطة :

«قلت لك خليك بعيد !»

هم مندى بالحديث عندما استدار نحوه شبيطة فى عنف ، وألقى كان فى يده من الآلات ومطارق وأنشب أظافره فى خناقة وهو يصيح

«اللى بنقول لك عليه تعمله ياجدع . فاهم ؟!»

ذهل مندى ، فهتف :

«ريس شبيطة !»

ارتفع كف شبيطة فى الهواء ليهوى على صدغ مندى فى صارخا بصوت توقف له الجميع والتفتوا :

«قلت لك خليك بعيد يعنى خليك بعيد . فاهم ؟!»

كان مندى ذاهلا فحاول التخلص من قبضة شبيطة :

«انت بتضربنى ياريس شبيطة ؟»

«وهو انت كبير على الضرب ياوله ... طب خد !»

قبل أن تهوى اللطمة الثانية على وجه مندى ، كانت طلقة قد دوت فى سماء المعسكر . وكانت صفارات الجنود قد ملأت المكان ، وهرول البعض منهم مشرعين سلاحهم ، وصاح بعض الرجال مهللين ، ووقف روبى بعيداً يتفرج ، وكان شبيطه ، وكأنه فقد عقله ، قد بدأ يهوى على وجه مندى بالضربات وهو يصيح :

«أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة !»

وتوقف العمل فى ذلك الصباح . وسنيق مندى وشبيطة الى الضابط الصغير الذى كان يشرف على المعسكر ، كان واحدا من هؤلاء الشبان ذوى الوجوه الحمراء والشعور الصفراء والأنوف الممتدة الى الامام فى صلف يبعث فى الغيظ . كان هناك تحقيق . وكان هناك سؤال ، وكان مندى ذاهلا ، وكان شبيطة هائجا ... ومضى اليوم بسرعة ، وصدر الأمر بفصل مندى عن شبيطة ، ذلك أن شبيطة كاد يعتدى على مندى فى مكتب الضابط وهو يكيل اليه الاتهامات ، ولم يكن مندى يقول شيئا ، كان ذاهلا ، وكان فاهما ، وكان يهتف من قلبه المكلوم :

«انت ليه عاوز تبعدنى عنك يامعلمى !»

لكن شبيطة لم يرد عليه . أبدا لم يرد . كان وكأنه قد تحول الى وحش كاسر ، فراح يلقى بالتهم ويقذف بالشتائم وكأنه فقد عقله ... وعندما انتهى كل شيء ، ووضعت القيود الحديدية فى يد شبيطة ، وساقوهما معا كلا الى مكان ... عندما كانا يسيران وسط الجنود المدججين بالسلاح فى فناء المعسكر ، حانت لحظة الفراق ... فتوقف شبيطة مستديرا نحو مندى ، وكان وجه مندى مليئا بالكدمات ، وكانت فى عينى شبيطة نظرة غريبة ... وقتها فقط ، فى لحظة الفراق هذه ، همس شبيطة :

«خلى بالك من نفسك يامندى !»

ثم استدار ومضى نحو مصيره الجديد ، ولم يكن مندى يعرف ، فى تلك اللحظات الغريبة ، ان هذه هى المرة الأخيرة ، التى يرى فيها شبيطة حيا !!

***

كان القطار يقترب من محطة القاهرة عندما أبطأ من سرعته حتى أصبح يزحف ... وكان عم رشاد ، وهذا هو اسم الكمسارى ، يعيد للمرة العاشرة حديثه لزغدانة :

«حاتنزلى هنا . ومعاكى عشرة صاغ . تعدى القضبان دى لحد السور ، تنطيه حاتلقى نفسك فى شبرا ... تسألى على محطة الاتوبيس ، سامعانى يازغدانة ؟!»

«ايوه سامعاك ياعم رشاد !»

«لما توصلى محطة الاتوبيس اسألى على اتوبيس السيدة ، حاتدفعى قرش ويفضل معاكى تسعة ، فى السيدة زينب تنزلى ، فى آخر الخط . فاهمة !»

«يوه .. فاهمة ياعم رشاد !»

«تنزلى فى آخر الخط وتستنينى . مهما غبت عليكى لازم تستنينى . اذا جعتى اشترى حاجة كليها ، ميدان السيدة مليان بالخير . اقرى الفاتحة لأم هاشم ، واقعدى هناك لحد ماآجى لك !»

«حاضر ياعم رشاد !»

«يالله اتوكلى على الله !»

هبطت زغدانة ، كان القطار يزحف فى بطء بالغ . وقبل أن تقفز زغدانة الى الأرض المبدورة بحبات الزلط الكبيرة هتف :

«زغدانة !»

التفتت نحوه متسائله :

«أنا يابنتى متجوز وعندى خمسة . تلات بنات وولدين .

ماتروحيش هنا ولا هنا ، ولاد الحرام كتير وعساكر الانجليز مالين البلد ولافيش لهم كبير !»

«حاضر ياعم رشاد !»

«يمكن أتأخر عليكى شوية ماتقلقيش !»

«حاضر !»

«اصلى لازم اسلم القطر قبل ماأروح !»

«حاضر !»

هم الرجل بالحديث مرة أخرى لكنه توقف . كانت المخاوف تعصف به . وكان يشعر فى ذلك الوقت ان اليومين اللذين قضاهما مع زغدانة فى سبنسة قطار كان يزحف على القضبان ، قد ربطاه بها الى الأبد ، غير أن سر قلقة هذا ، والحاحه هذا ظل غامضا بالنسبة اليه واليها ... وكأن شيئا ، شيئا غريبا لايدريه وقد لاتدريه هى الأخرى ، قد حدث فى داخله ... وأخيراً لم يجد أمامه مفرا!!

كانت زغدانة لاتزال معلقة على سلم القطار وهى تنظر اليه ، فارخى عينيه وهمس :

«انزلى بقى ربنا معاكى !»

وقفزت زغدانة الى الأرض ، ووقفت ترقب القطار وهو يبتعد فى بطء شديد ، كان عم رشاد يقف فى مؤخرة العربة ينظر اليها ، وكانت هى تقف بين القضبان تنظر اليه ، كان يبتعد ، يبتعد ، حتى ذاب القطار وسط عشرات القطارات التى كانت تقف على القضبان العديدة الممتدة فى هذا المكان ... وأحست زغدانة بغصة تقتحم صدرها ، هاهو انسان آخر يحنو عليها ، وها هو القدر يحمله الى بعيد ، فهل تقترب منه حتى يقتله الانجليز هو الآخر ؟!

صعدت دمعة الى عينيها فتركتها تنزلق فى بطء . ومدت يدها الى جيب جلبابها وقبضت على قطعة النقود الفضية فى يدها . وراحت تعبر

حقل القضبان هذا ، حتى اذا وصلت الى السور قفزت من فوقه ، لتجد نفسها فى شارع طويل ، شارع غريب مترب كالح مزدحم ... سارت فى الشارعِ وهى تشعر أن كل العيون تنظر اليها ، لكنها عندما اقتربت من امرأة كانت تسعى بملاءة لف ، سألتها عن محطة الاتوبيس ، واشارت لها المرأة الى نهاية الطريق . فعادت زغدانة تسير من جديد ، وهى لاتدرى إلى أين ؟!!

## • الصورة السابعة عشر •

كانت زغدانة وهى تسير فى ذلك الشارع الذى بدا لها غريبا مزدحما متربا ، تنظر حولها وهى تتساءل : هل هذه هى القاهرة ؟!... طالما تمنت أن ترى القاهرة ، أن تسير فى شوارعها ، أن تشاهد ناسها ، وأن تزور ضريح السيدة زينب بالتحديد ، وكلما كانت تسمع أمها وهى تدعو : ياأم العواجز ، كانت تشعر شعورا عميقا ودفينا بشىء يربطها بالسيدة زينب ، أم العواجز هذه التى دائما ماكانت أمها تدعوها على البعد كى تساعدها وتقف بجوارها ... و... وهاهى الآن فى طريقها لأم العواجز شخصيا ، هاهى تقف عند محطة الاتوبيس ، وتسأل ، ويدلها الناس ... هاهى تصعد الى الاوتوبيس وتجلس فى أحد المقاعد ، وتسأل الكمسارى ، ربما للمرة العاشرة ، هل سيقودها هذا الاوتوبيس الى السيدة زينب ؟! ... ثمة احساس غريب ، واضطراب اغرب كانا ينتابانها كلما سعى الاوتوبيس فى سيره ، كلما قطع شوطا فى الطريق ، أو ترك شارعا ودار الى شارع ... كانت عيناها تلتهمان كل شىء ، وكان قلبها يفيض بالحنان ، فهل ... هل تساعدها أم العواجز ؟! ... هل تقف بجوارها ؟!... هل تنصرها ؟!

«السيدة ياشاطرة !»

وانتبهت زغدانة مما كانت غارقة فيه ، انتبهت ثم ارتجفت ، ودارت

عيناها بسرعة ولهفة ، كانت تبحث عن الجامع والضريح ... وكان الرجل لايزال يقف بجوارها ..

«انتى غريبة يابنتى ؟!»

«فين السيدة زينب ياعم ؟»

«آهيه قدامك !»

لكن الجامع لم يكن هو الجامع الذى صوره لها خيالها ... هبطت من الاوتوبيس وهى تشعر وكأنها تسير فى الهواء . كان الميدان مزدحما بالخلق لكنها ما ان اقتربت منه حتى علا صوت ينوح :

«ياأم العواجز !»

كان الصوت حزينا ، وكان كسيرا ، فصعدت الدموع الى عينيها ، رغما عنها ... قالت لنفسها أنها تنذر أن تذبح خروفا ، حتى ولو ماتت فى سبيل شرائه ، لو حققت لها أم العواجز ماتريد ... كان ماتريده زغدانة شيئا غريبا ، كان أملا بعيدا بعيدا ، غائصا فى أعماق أعماقها ، ولو أن القطار قادها الى الاسكندرية لكان تحقيق الأمل هينا وميسورا ، فى الاسكندرية كانت قدماها ستعرفان الطريق ، أما هنا ، فى هذه المدينة الواسعة الرمادية اللون ... فأين الطريق ؟!

عندما وقفت بباب السيدة زينب ، عضها الجوع ، مدت يدها الى جيب جلبابها وقبضت على القروش التسعة الباقية لها ... خطت داخل الجامع فاحتوتها رائحة غريبة ، راحت تتلفت حولها بحثا عن الضريح ، حملتها صيحات المكلومين : «مدد ياست !» ... جاشت نفسها بسيل بلا نهاية من الدمع فتركته ينهمر من عينيها بلا حساب : «يا أم هاشم !» ... قادتها الصيحات والنداءات والدعوات الى حيث كان الضريح يكمن خلف سوره النحاسى اللامع ، امتلأ صدرها برائحة البخور فتذكرت أمها فى كل جمعة ، وقت الصلاة ، عندما كان المؤذن يؤذن ،

وعندما كانت هى تطلق البخور فى العشة الصفيح فيسخر منها الكومى قائلا :

«بتبخرى على ايه ياوليه !»

«يوه ياخويا ... آهى بركة !»

وتمتمت زغدانة من بين شفتيها :

«ياحبيبى يابا !»

ولم تستطع زغدانة أن تقاوم ... كانت وكأنها فى انتظار هذه اللحظة ، تقدمت من السور وهى تهمس منادية : « يا أم العواجز ! » ، انهمر الدمع من عينيها غزيرا وتهاوى جسدها فتشبثت بالسور ثم هبطت لتجلس على الأرض بجواره ... ملأها احساس طاغ بأن يداً تمتد من داخل الضريح لتمسح على رأسها ... سرى الخدر فى أوصالها فأسندت رأسها على السور المشغول فكأنها وضعت رأسها فوق صدر أمها ، همست :

«ساعدينى ياأم العواجز ... خدى بأيدى دانا يتيمه !»

ولم يكف الدمع أبدا عن الانهمار ... لكن زغدانة ، كلما فاض الدمع من عينيها ، كلما أحست بتلك الراحة الغامرة التى افتقدتها وظنت أنها فقدتها ... تمضى بها الدقائق وهى تتحدث ، كانت — الآن — تشعر وكأن السيدة زينب قد خرجت من ضريحها لتجالسها ... قالت :

«الانجليز هتكونى ياست !»

قالت :

«الانجليز اخدوا منى مندى ياأم هاشم !»

قالت :

«الانجليز قتلوا أحمد الحمامصى !»

نهنهت واهتز جسدها وهى تدفن رأسها فى تعرجات السور النحاسى :

«وقتلوا أبويا وأمى فى يوم واحد !»

ولوهله ... ومضة ... لحظة غريبة مفزعة ... تنبهت زغدانة الى أنها ، حتى الآن ، لاتعرف أين دفن أبوها وأمها ... أنها ... أنها ليست يتيمة فقط ، بل هى لاتعرف لوالديها مكانا ... ومن صدرها ، لا ، من قلبها ، من أعماق قلبها ، اطلقت صرخة عاتية .

وتجمع حولها الناس !!

كان مندى يعلم سر هذا الذى فعله معه شبيطة . بات لأول مرة منذ غرقت السفينة وحده ... كان فراش شبيطة بجواره خاليا ، وكان الرجال فى العنبر ينظرون اليه من بعيد دون حديث ، اختفى شبيطة من العنبر لكن الحياة فيه عادت الى ماكانت عليه ، فهل ينتظر شبيطة تلك المعركة الضارية بينه وبين روبى ؟! ... و... وهل يقتل روبى فيقتلونه ، أو يقتله روبى فيختفى من حياته ، فى كلتا الحالتين ، ذلك الصديق الذى ركن اليه وأحبه ؟!

مضى الليل لكن مندى لم ينم ، كان يعلم أن شبيطة أراد له أن يبتعد عما هو قادم من أحداث ، فى الصباح الباكر تقدم منه رجل افريقى أسود اللون غليظ الشفتين له عينان نفاذتان ، فقال :

«هل أنت حزين على صديقك ؟!»

نظر اليه مندى وكان لايزال راقدا فلم ينهض ... همس الرجل وهو يربت على يد مندى .

«لقد أراد أن يبعدك عن المعركة فلا تغضب منه !»

هب مندى جالسا وقد مس حديث الرجل الذى كان يتحدث اليه بالانجليزية شغاف قلبه .

«مازلت صغير السن ، ومثل هذه المعارك لايطيقها الا من عرك الحياة وعرفها !»

أراد مندى أن يتحدث ، أن يقول شيئا لكن لسانه التصق بسقف حلقه ... نهض الرجل من مكانه وقد أحس بعزوف مندى عن الحديث ، أطل عليه من وقفته وهو يهمس :

«هل أنت مسلم ؟!»

«نعم !»

قالها مندى فى لهفة ... فهمس الرجل :

«أنا أيضا مسلم !»

وعندما رأى تلك النظرة الغريبة فى عينى مندى ابتسم عن اسنان شديدة البياض وهو يتلو بالعربية :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، وأشهد أن لا الله إلا الله وأن محمدا رسول الله !»

هم مندى بالنهوض فوضع الرجل يده على كتفه وتلفت فى العنبر ناظرا الى الرجال الذين كانوا قد بدأوا يغادرون أسرتهم وعاد يقول :

«لا تخبر أحداً بهذا السر ... لقد أردت فقط أن أقول لك أنك لست وحيدا !» ..

تركه الرجل ومضى فهتف مندى لنفسه :

«كيف يكون مسلما وكيف يكون اسمه موريس !»

... ... ... ...

... ... ... ...

كان الجو صحوا رغم البرودة التى كانت تدثر الدنيا من حول الرجال ، وكانت الشمس واهنة الحرارة تبدو فى السماء مثل عروس تخجل أن ينظر اليها الناس فى ليلة زفافها ، وكان مندى مستغرقا فى حيرته عاكفا على ما كانوا قد عهدوا اليه به من عمل عندما أحس وكان تيارا كهربيا قد

سرى فى الجو دون صوت . استقام من انحناءته وراح يرقب الفناء الواسع وقد تناثر فيه الرجال وراحوا يتحركون فى كسل ، تساءل مندى بينه وبين نفسه عن سر هذا الاحساس الغريب الذى اجتاحه اجتياحا ، لم يكن هناك ماينبىء بشىء ، كان كل شىء هادئا ، وكان الرجال يعملون بكسلهم المعتاد ، وكان الجنود يحملون البنادق فوق اكتافهم فى استرخاء وهم يسيرون بين الرجال شأنهم كل يوم ... فما الذى حدث ؟! .

«صباح الخير يارفيق »

كان هذا هو كومارو الهندى السيخى الذى يربى ذقنه ولايحلق شعره ويصففهما معا بطريقة كانت تدهش مندى دائما . ابتسم مندى وهو يرد التحية وعاد كومارو يقول :

«رغم أنى لاأدخن . ولا أحب التدخين ، بل انه عندنا حرام ... ألا أن بى رغبة عارمة فى المعصية ؟!»

لم يفهم مندى ماكان يقوله كومارو ...

كان يدهشه أشد ماتكون الدهشة أن الهنود ـــ كل الهنود الذين التقى بهم فى مصر أو فى الخارج ـــ يتحدثون الانجليزية بطلاقة وكأنها لغتهم ... بدأ على وجهه أنه لم يفهم فراح كومارو يعيد ماقاله مرة أخرى بكلمات أبسط ، ابتسم مندى وقد أدرك مايريده الرجل ، فمد يده فى جيبه متسائلا :

«هل تريد سيجارة !»

«لا لا .. لست أريد سيجارة ، فأنا لن أدخن وان كنت أريد ذلك ؟!»

انتابت مندى الحيرة وهم بالحديث عندما علت فى الفناء صيحة السارجنت كوبر :

«هيه ... أنتما هناك !»

التفت مندى وكومارو وأيديهما تعملان بسرعة وكأنهما يعرفان ما

الذى سوف يقوله كوبر ... عاد السارجنت يصيح :
«عودا الى عملكما وكفا عن الثرثرة والا ...»
صمت كوبر فلقد اطاع مندى وكومارو وانحنيا على بعض المعدات يحملانها الى أحد اللوارى الواقعة فى الفناء ... عاد كومارو ، فورا الى الهمس :
«منذ رأيتك وأنا أريد أن أقرأ كفك !»
تهلل مندى فى بداية أيامه فى المعسكر عندما رأى كومارو وهو يقرأ أكف الرجال لكنه لم يجرؤ على الاقتراب منه ... فى لحظة تذكر يوم أن أمسك كومارو بيد شبيطة ونظر فيها فاربدت ملامحه ورفع عينيه اليه ... وعندما طال صمته صاح فيه شبيطة فى سعادة ومرح :
«تكلم أيها الرجل ، ماذا رأيت ؟!»
فى اختصار قال كومارو :
«ملاك الموت !»
ضحك شبيطة وصاح بالعربية :
«كلنا ليها !»
ولم يفهم واحد من الرجال ـ سوى مندى ـ صيحة شبيطة ، تبادل الجميع النظرات وبدت فى عينى كومارو نظرة دهشة ... فعاد شبيطة الى الحديث مفسرا :
«هل ستموت ياكومارو ؟!»
قال كومارو :
«بالتأكيد !»
ضحك مندى فسبحت ضحكته مرحة فى أرجاء العنبر وقال :
«وأنا أيضا سأموت !»
بدت فلسفة شبيطة وكأنها أعجبت كومارو فابتسم . وعاد شبيطة الى الحديث :

«كلنا سنموت يارفيق !»

يذكر مندى هذا جيدا . يذكره الآن ويتساءل كيف نسيه ، حدث هذا فى اليوم الثالث لدخولهما السجن ، وكان كومارو يقرأ كف شبيطة وكان مندى يجلس بجواره ، جذب شبيطة يده من يد كومارو وهو يخاطب مندى ساخرا :

«كذب المنجمون ياوله ؟!»

ابتسم مندى وهو يردد ماقاله شبيطة : «كلنا ليها يامعلمى !»

عاد شبيطة يقول :

«الراجل ده بيضحك على عقول الخلق ... قال ايه آنى حانموت ، طب ما آنى لازمن حانموت !»

كان مندى سعيدا بالعودة الى الحديث مع شبيطة ، جلس كل منهما على فراشه ... غير أن سحابة طافت بوجه شبيطة ، سحابة حزينة حقا . لكنه سرعان ما زفر وهو يلقى بنفسه فوق الفراش كمن يهرب من شبح ، وجاء صوته خافتا عميقا :

«الأعمار بإيده هو .. بإيده هو !»

... ... ... ...

... ... ... ...

تذكر مندى كل هذا وهو يحمل صندوقا ثقيلا ساعده كومارو فى حمله وهو يهمس :

«أريد أن أقرأ كفك !»

«ولم لم تفعل يا كومارو »

«لأنى خائف !»

قال كومارو هذا وهو يقفز الى اللورى كى يتلقى الصندوق من فوق كتف مندى غير أنه للحظة ، جمد فى مكانه ... وأحس مندى بالثقل

ضغط على ظهره فصاح :

«خذ الصندوق عنى ياكومارو !»

غير أنه ، وهو يزيح الصندوق عن كتفه الى اللورى ... دار برأسه الى أقصى الفناء ، وهناك رأى شبيطة .

تخلص مندى من حمله ووقف فى مكانه ينظر الى شبيطة الذى كان يقف أمام جندى يحمل بندقيته فوق كتفه ، كان كومارو هو الآخر يقف فوق اللورى وهو يرقب شبيطة لكنه كان يتمتم بكلمات لم يفهمها مندى ... رفع مندى اليه رأسه وكان كومارو الآن يهتف وهو ينظر الى الناحية الأخرى من الفناء :

«يا الهى !»

استدار مندى الى حيث كان ينظر كومارو فدق قلبه بعنف وصرخ بكل مافى حنجرته من قوة :

«حاسب ياريس شبيطة !»

غير أن كل شيء تم بسرعة غريبة ...

كان روبى ينطلق عدوا بكل قواه نحو شبيطة ، كان قد ترك ما فى يده وراح يخترق الفناء غير عابىء بصيحات السارجنت كوبر وهو يهتف به أن يقف ... وكان شبيطة ، عندما سمع صيحة مندى قد التفت ... لكنه لم يكن يملك من الوقت مايمكنه من الحركة ، فلقد وصل اليه روبى ، انقض عليه ، وغرس فى صدره سكينا ، فدوت صيحة شبيطة فى سماء الفناء ، صيحة مكتومة مليئة بالألم ، لكنها كانت أيضا ... صيحة مبتورة .

فى تلك اللحظة بالذات ، سبحت سحابة وحيدة فى سماء المكان . فحجبت قرص الشمس الواهن ، وساد الدنيا لون رمادى حزين ... وكان شبيطة يهوى إلى الأرض لأول مرة ... وكان مندى يعدو نحو روبى وهو يصرخ كالمجنون ! .

## • الصورة الثامنة عشرة •

تم كل شىء فى لمح البصر . وقبل أن يصل مندى الى روبى الذى كان يقف الآن والسكين فى يده يقطر دماء وقف فى طريقه عشرات من الرجال ومن جنود الامبراطورية ، ظل يصرخ ويصرخ ويسب ويلعن ويضرب ويتلوى ويحاول التخلص من عشرات الأيدى التى أحاطت به . كان يقفز الى أعلى فيرتفع جسده وتلتقط عيناه وجه شبيطة الشاحب الراقد فوق الأرض ، فيزداد جنونه ، فيهوى الى الأرض محاولا التخلص ممن أمسكوا به دون جدوى ... دون جدوى ... دون جدوى ..

وكما تم كل شىء فى سرعة شديدة ، اختفى روبى عن الأنظار فى سرعة أشد ، اختطفوا السكين من يده وقيدوه وصحبوه الى حيث لايدرى مندى ولايعرف ولاسبيل الى الوصول اليه ، لكن وجهه هذا البغيض ، وابتسامته هذه الساخرة ، أبدا لم تفارق خيال مندى الذى أصبح الآن راقدا فوق فراش فى مستشفى صغير ، وقد عادت تريزا اليه مرة أخرى ، وأطلت عليه ابتسامتها .

بدت له الدنيا كئيبة بلا معنى ، بدت له الحياة سوداء اللون ذات أنياب لاترحم ، تذكر زغدانة فدمعت عيناه ، ومنذ أن خطفها جنود

الامبراطورية ، عرف هو طعم الدم ، ومنذ أن حدث ماحدث فى السفينة ، ومنذ أن قتل الجنود الثلاثة والدم يلاحقه ، فى كل مكان يلاحقه ... ولكن لابأس من قليل من الدم مرة أخرى وليكن ، حتى نهاية العمر ، ذا هدف واحد ، هو أن يقتل روبى ...

***

تماما مثلما كانت تختزن زغدانة الآن فى صدرها ، ومنذ أن هربت من كفر الزيات وصعدت الى القطار ، منذ أن التقت بهذا الكمسارى الطيب القلب الذى البسها معطفه وغسل لها جلبابها وواعدها فى ميدان السيدة زينب بعد أن أعطاها القروش العشرة ، لكنه لم يأت ... منذ تلك اللحظات وزغدانة لاتفكر الا فيما كان يفكر فيه البحار مندى ، ولقد كان كل مهما بعيدا عن الآخر كل البعد ، قريبا من الآخر كل القرب ، يفكر فى نفس الشيء ، أن يلاحق الدماء كما لاحقته الدماء ، وأن يصبغ الحياة باللون الأحمر ... وكما كان مندى ــ وهو راقد فى فراشه فى المستشفى ــ يفكر فى كيف يقتل روبى ، كانت زغدانة الآن ، حيث أصبحت فى مكان لم تعرفه ولم تسمع عنه ، تفكر فى شيء واحد ... أن تقتل من عساكر الانجليز ، كل من يسقط فى يدها ..

***

عندما فتح مندى عينيه وجد نفسه فى المستشفى ، وكان وجه تريزا يطل عليه :

«آنى فين ؟!»

امتدت يدها الى جبينه ، وأطلت من عينيها نظرة حزن عميق وهمست بالانجليزية :

«لاتتحدث كثيرا .. انت متعب !»

«آنى فين ؟!»

«استرح ولسوف اقص عليك كل شيء !»
«ماتكلمينى عربى ياتريزا!!»
ازداد صوتها خفوتا وهى تقترب منه :
«مندى ... انت مريض ... اغمض عينيك ... اغمض عينيك ونم ولسوف تعرف كل شيء !»
قبل أن يفتح مندى فمه بالسؤال مرة أخرى ، اقتحم الغرفة طبيب أحمر الوجه ، صارم التقاطيع . قال :
«هل أفاق ؟!»
ابتعدت تريزا قائلة فى أدب :
«نعم ياسيدى !» ..
وقف الطبيب ناظرا نحو مندى ممسكا برسغه :
«كيف انت أيها القاتل الصغير !»
هم مندى جالسا فى فزع :
«قاتل ؟!»
انتفض الطبيب مبتعدا عنه هاتفا فى تريزا :
«نادى الحارس فى الخارج !»
«أنا لم أقتل أحدا !»
قال الطبيب :
«نعم نعم .. اذن فاهدأ !» .
عادت تريزا ومعها أحد الجنود ، وكان يحمل على كتفه بندقية ... وقف أمام الطبيب :
«نعم ياسيدى !»
دون أن يحول الطبيب عينيه عن مندى ، قال مخاطبا تريزا :
«الى بالحقنة !»
فى سرعة ، كانت تريزا ، فى ركن الغرفة تعد احدى الحقن ... قال

الطبيب :

«انه لايزال فى حالة هياج ، اعطه هذه الحقنة أيضا !»

تقدمت تريزا من مندى ، همست :

«أعطنى ذراعك يامندى !»

فى عينيها نظرة حنان أذابت توتره ... فى حركتها حنان جعله يعود الى رقدته ، فى صوتها دموع لاتخطئها اذن رجل حتى ولو كان رجلا صغيرا ، شمر عن ذراعه وهو يهمس لها وقد مالت عليه :

«لكنى لم أقتل أحدا .. لم اقتل أحدا !»

غرست الحقنة فى ذراعه ... وبدأ الخدر يسرى فى أوصاله ، وكان يردد أنه لم يقتل أحدا ... و ... وبدأت المرئيات تتداخل فى عينيه ، ومن بعيد ، من بعيد جاءه صوت الطبيب وقد اقترب منه وجهه هائلا متداخل الملامح ، وكان يقول :

«بل قتلت أيها السفاح الصغير ، قتلت جنديا من جنود صاحبة الجلالة !»

وغامت المرئيات ، وذابت الأصوات ، وراح ... راح مندى !.. وكان كل مافيه يردد بلا صوت :

«أنا لم أقتل أحدا .. لم اقتل أحدا !»

***

رغم الاظلام ، ورغم الغارات ، ورغم المصابيح الزرقاء ... كان الشارع يموج بالأضواء والموسيقى وصيحات السكارى ودبيب أحذية جنود الامبراطورية ... وكانت زغدانة هناك . فى شرفة البيت الذى قادتها اليه تلك السيدة الغريبة التى التقت بها فى السيدة زينب ، ترقب كل شىء فى صمت وتفتح عينيها جيدا حتى تعى كل شىء وترى كل شىء ، وتفهم كل شىء ... وعندما حدث ماحدث لها بجوار الضريح ، وتجمع الناس من

حولها ، كان لابد للمولد أن ينفض فى ساعة ... غير أن المولد انفض فى لحظة غريبة وجدت رأسها فيها ، وهى تنتحب وتنهمر دموعها بغزارة لم تعرفها من قبل ، وجدت رأسها فوق صدر تلك السيدة التى راحت تبسمل وتحوقل وتصلى على آل البيت وتقرأ فى أذنها قرآنا وتربت على ظهرها وكتفيها وتسألها عما بها .

انفض المولد عندما صاحت السيدة بجمع الناس الذين سدوا منافذ الهواء على زغدانة :

«ياناس حرام عليكم .. شوية هوا »

واخترق الجموع شيخ يحمل قلة ، أخذ منها ماء ورشه على وجه زغدانة فانتفضت ، نظرت حولها فاذا الرءوس ملتفة حولها ، واذا العيون تحملق فيها ، واذا صوت السيدة يصيح مرة أخرى فى الناس أن ينفضوا فانفضوا فى بطء وتراخ وكل منهم يدعو الله أن يجنب المسكينة العذاب ... قالت السيدة :

«مالك ياضنايا !»

كان صوتها حنونا حنونا ... فانهمر الدمع من عينى زغدانة دون كلام .

«قومى ياحبيبتى !»

بذلت كل جهدها كى تنهض فنهضت .

«انتى غريبة عن هنا يابنتى !»

سارت معها وهى تهز رأسها ايجابا !

«مالكيش حد فى مصر ؟!»

غادرت معها المسجد وهى تهز رأسها نفيا ..

«لا حول ولا قوة إلا بالله ... وحاتعملى ايه يابنتى !»

راحتا تعبران ميدان السيدة فى طريقهما الى محطة الأوتوبيس ، وكانت زغدانة تهمس :

«أنا حاستنى عم رشاد على محطة الاوتوبيس !»

«مين عمك رشاد ده ؟!»

«الكمسارى بتاع القطر !»

«وده يقرب لك !»

«لأ» ..

«تعرفيه منين ؟!»

«من القطر !»

«وحاتستنيه ليه ؟!»

نظرت زغدانة اليها فى صمت ... امسكت السيدة بذراعها وادارتها حتى واجهتها :

«انتى اسمك ايه ؟!»

«زغدانة !»

«من أى بلد ؟!»

«اسكندرية»

«وايه اللى جابك مصر ؟!»

وكان لابد لزغدانة ان تقص عليها الحكاية ... فى انكسار قصت عليها قصة ركوبها القطار ... اشترت السيدة خبزاً وطعمية وقدمته لها :

«خدى كلى !»

أحست زغدانة بالخطر لسبب مجهول ، وعادت المرأة الى الحديث :

«انا حاقعد معاكى لحد مايبجى اللى اسمه عمك رشاد ده واشوفه بنفسى !»

نظرت اليها زغدانة غير فاهمة ، فعادت السيدة تقول :
«انتى وحدانية ... والزمن يابنتى بقى غير الزمن ، وابن الحرام ماخلاش لابن الحلال حاجة !»

همت زغدانة بالحديث لكن السيدة استطردت :
«والانجليز مالبين البلد وكل من حى عاوز ينهب له قرشين ان شا الله على حساب روحه !»

راحت زغدانة تمضغ فى صمت :
«أنا كان لى بنت لو عاشت كانت حاتبقى قدك !»
أخذ عقل زغدانة يعمل فى سرعة . ماذا تريد هذه المرأة ؟

«أنا عايشه مع عمك مدبولى لوحدينا ... ان ماجاش الكمسارى تعالى معايا !»

لم يكن امامها سوى الاستسلام .

«شوفى يابنتى ... احنا عندنا قهوة فى عماد الدين !»

وكانت هذه هى المرة الأولى فى حياة زغدانة التى تسمع فيها باسم شارع عماد الدين ... لكنها فى تلك اللحظة التى سمعت فيها اسم الشارع ، لم تتصور أن هذا الاسم بالذات ، وهذا الشارع على وجه الخصوص ، سوف يكون لهما فى حياتها شأن وأى شأن .

ولقد انتظرت مع الست عنايات حتى كادت الشمس تغيب دون أن يظهر عم رشاد ... غمغمت الست عنايات أن زوجها سوف يقلق عليها ، لقد أخبرته أنها ذاهبة لزيارة السيدة للوفاء بنذر كانت قد نذرته ... ودارت زغدانة بعينيها فيما حولها ، وهزت رأسها كمن تقول : انها لن تخسر أكثر مما خسرت .

ونهضت مع عنايات !

وها هو النهار قد انقضى ، وهاهو الليل قد جاء بعد أن غادرتها الست عنايات مع عم مدبولى الى المقهى القائم غير بعيد عن البيت . تركاها وحدها فنهضت الى البيت لتغسله ، مضت ساعة وساعة وساعة وأصبح البيت مرتبا نظيفا ، كان بيتا واسعا ، وكانت وحدها فيه ، وعندما حل الظلام ، اقشعر بدنها من الخوف ، فهربت من خوفها الى الشرفة ، وطالعها الشارع بما فيه من اضواء وصيحات وضحكات وحركة كانت تموج بلا توقف ... امتصتها تلك الحياة ، وامتلأت بالكراهية وهى ترى جنود الامبراطورية ، وامتلأت بالحنين وهى تتذكر مندى ... ودمعت عيناها وهى تذكر أحمد الحمامصى ... لكن النعاس غلبها على ذكرياتها . فسقط رأسها فوق صدرها ... واستيقظت مع آذان الفجر ، وصوت الست عنايات يهتف :

«مدبولى ... زغدانة آهيه . دى نايمة فى البلكونه ياحبة عينى !»

***

كانت أيام قد مضت ، وعلم مندى أنه أصيب بانهيار عصبى ، وأنه نقل اى المستشفى فى حالة هستيريا عنيفة ، وأنه ــ أيضا ــ ظل لأيام يتغذى بالأنابيب ، وكلما أفاق أعطوه حقنة مخدرة أعادت اليه هدوءه .

قالت له تريزا أنها تحبه ... وقالت له أن شبيطة قد مات ، وأنه دفن فى سفح الجبل ، وأن روبى قد وضع فى زنزانة منفردة ، وأن محكمة سوف تشكل لمحاكمته ، وأنها على يقين من أنهم سيحكمون عليه بالاعدام ...

كان كل هذا مقبولا ومعقولا ، لكن ماقالته له تريزا بعد ذلك هو مالم يقبله عقله ، قالت له أنه مخفور ، وان جنديا يقف بباب حجرته بالمستشفى ليل نهار ، وأنه يعتبر سجينا ... كاد مندى يفقد عقله عندما قالت له تريزا ماقالت ، كاد يجن عندما علم أنه ، فى هياجه هذا بعد مقتل شبيطة ، قد اختطف بندقية من يد أحد الجنود ، وأنه انهال بها على كل

من حاول أن يمسك به أو يمنعه ، وأنه ــ وهنا خفق قلب مندى بعذاب حقيقى ــ ضرب جنديا على رأسه بمؤخرة البندقية فهشمها !

قالت له تريزا أنه سيحاكم ... وأنهم يعرفون انه لم يقصد قتل احد ... قالت ان القانون قانون ، وانهم سوف يحكمون عليه بالسجن لسنوات لن تقل عن الخمس ...

قالت تريزا الكثير ، ظلت لأيام تحكى له ماحدث ، كانت تستقى الأخبار من ابن عم لها يعمل جنديا فى السجن ... قالت له الكثير . لكنه أبدا لم يذكر أنه قتل أحدا ، لم يذكر شيئا مما قصته عليه ... وكان ينظر اليها وكأنه يصرخ بها أن تساعده ... حتى اذا كان مساء ، جلست اليه وقالت :

«مندى ... أنا أحبك !»

كان فى الأيام الأخيرة عازفا عن الحديث ، لم يعد لشىء عنده معنى ولامذاقا ولا قيمة ، أمسكت بيده فارتجف ، خشى عليها من الموت ، خشى عليها من الدم ... لكنها همست :

«لابد أن تفعل شيئا ؟!»

نظر اليها متسائلا ... لم يكن يدرى ماالذى يمكن أن يفعله . همست :

«لابد لك أن تهرب !»

ابتسم فى ضياع ... فلم يكن يدرى الى أين يهرب . لم يكن يعرف لنفسه هدفا ولا طريقا ... نظر من النافذة فرأى الجبل الداكن اللون يطل عليه كالشبح المهيب ... ضغطت يدها على يده وعادت تهمس :

«لابد لك أن تهرب ؟»

«الى أين !»

«إلى أى مكان !»

«وماذا بعد الهرب !»

«اذهب الى المغرب ... اعبر المضيق فقط ، وستجد هناك قوما يتحدثون لغتك !»

«أليس فى المغرب جنود ؟»

«ان العالم كله الآن جنود !»

«قد يقبضون على !»

«وقد تستطيع العودة الى بلدك !»

ودق قلب مندى ، دق فى عنف . وتذكر زغدانة ... تذكر الاسكندرية والميناء ورصيف النورس ... تذكر أباه وأباها وأمه وأمها والصحاب والشوارع والحوارى واشتاق لطبق من الفول ...

«سوف ارتب لك الأمر !»

وكانت هذه هى آخر جملة قالتها تريزا قبل أن يحدث ماحدث بعد ذلك . قالتها وهى تطبع على شفتيه قبلة رقيقة ، وكانت عيناها دامعتين !

بدا له الأمر وكأنه حلم لاعلاقة له بالواقع ، وعندما همست تريزا بأن عليه أن يهرب ، لم يفكر فى الأمر ولم يعره اهتماماً ، كانت كلما اعطته حقنة استسلم وترك نفسه لأحلام كانت تدور حول الريس شبيطة الذى كان ، فى ــ رقدته تلك على أرض السجن ، ووجهه الشاحب هذا الذى طالعه وهو يمد له يداً مرتجفة تطلب النجدة ... وكان مندى ــ فى هذا الحلم المتكرر ــ يمد يده نحو يد صديقه دون جدوى ، كانت يده دائماً لاتصل الى يد صديقه ، فكان يصرخ مناديا عليه ، يصرخ ويحاول ويصرخ ويحاول ، حتى كاد ــ ذات حلم ــ أن يلامس اليد الممدودة . فاذابه يستيقظ وهو يتصبب عرقاً ، وانفاسه تتلاحق ... وكانت تريزا تجلس على حافة الفراش وقد أخذته بين ذراعيها وهى تربت على رأسه هامسة فى أذنه أن يهدأ ... وعندما انتبه مما كان فيه ، كانت هى تبتسم قائلة :

«مندى ... انها أنا !»
«كم الساعة الآن ؟!»
«جاوزت منتصف الليل !»
«هل كنت أحلم ؟!»
«ولكن عليك أن تستيقظ الآن !»
«ماذا؟!»
«عليك ان تستيقظ ياحبيبى !»

سرى همسها الحنون الى اذنيه فاستراح ، نظر اليها وتعجب ، كان يرى الحب فى عينيها واضحاً ، رغم الليل والضوء الخافت والسكون . وكانت يدها تمسح على وجهه فى حنان .

«ماذا هنالك ياتريزا !»
«اخفض صوتك ... فلسوف تهرب الليلة!!»

انتفض مندى وهو ينظر اليها فى دهشة ... عادت تهمس :

«لقد رتبت كل شىء مع ابن عمى !»
«ولكن ... كيف سنخرج من هنا !»
«لقد اتيت اليك بملابس تقيك البرد !»
«والحارس الجالس فى الخارج ؟!»
«سوف نخرج من النافذة ونعبر حديقة المستشفى حتى السور الشرقى ، وهناك سنجد خوان !»
«من هو خوان هذا ؟!»
«انه ابن عمى ... كف عن الحديث ، وانهض لتستبدل ملابسك ، واياك أن تصنع أى صوت ، فلسوف أغادر الغرفة كى اطمئن الى نوم الحارس تماما ، ثم أعود اليك بعد خمس دقائق !»

شعر مندى وكأنه يتجمد فى مكانه ، راح يحملق فيها غير مصدق ... عادت الى الهمس وهى تهتف :

«مندى . ليس هناك وقت !»
«وماذا اذا ماأحس بنا الحرس !»
«لاتخف . لن يشعر أحد باختفائك الا فى الصباح !»
«والى أين سأذهب !»

«سوف تعبر الحدود الى اسبانيا مع مطلع الفجر ، فقط ، عليك أن تسرع !»

قالت هذا وغادرت الغرفة فى خطوات ثابتة ... اغلقت الباب خلفها وسمعها تضحك وهى تقول :

«انه نائم كالطفل ، ولقد أعطيته حقنة أخرى !»
وجاءه صوت الحارس مرحا :
«اذن ، فأنا استطيع النوم !»

وتعالت ضحكات تريزا وابتعدت خطواتها وعاد السكون يسود المكان تماما .

لكنه كان لايزال جالسا فى مكانه مسمرا ... سمع صوت أنفاسه فاضطرب ، تعلقت عيناه بالباب ، فتحرك جسده رغما عنه ، كأن قوة خفية تدفعة الى النهوض ، كأن عشرات الأيدى تساعده على خلع ملابسه واستبدالها بتلك الملابس الصوفية الملقاة عند طرف الفراش ، اصطدمت قدماه العاريتان بحذاء ضخم كان موضوعا فوق الأرض ، دس قدميه فى الشراب الصوفى السميك وهم بارتداء الحذاء عندما سمع نقراً انتفض له تماما . دق قلبه بعنف بالغ . عاد النقر من جديد فالتفت نحو النافذة المطلة على الحديقة ، نهض اليها متلصصا فاكتشف فى ظلام الليل وجه تريزا من خلف الزجاج وكانت تشير اليه أن يفتح النافذة ... امتدت يده ، وفى حرص بالغ كان يفتح النافذة فهب من الخارج تيار هواء شديد البرودة فارتجف لكن حواسه كلها انتبهت مرة واحده ... همست تريزا فى عجلة :

«هيا ... ليس هناك مزيد من الوقت !»

وقف جامداً لثوان لايدرى ماذا يفعل ، لكن صوتها عاد مرة أخرى كالسوط يلهب ظهره :

«هيا يامندى ... هيا !»

انحنى على الأرض والتقط الحذاء ، وصعد الى قاعدة النافذة وسرعان ماكان فى الحديقة ... وعندما جاءه صوت تريزا الآن ، جاءه آمرا ، كأنها أصبحت امرأة أخرى ، كأنها أصبحت انسانا آخر :

«ضع قدميك فى الحذاء وأربطه جيدا فان المشوار أمامنا طويل !»

ما أن انتهى من وضع قدميه فى الحذاء حتى مزق الصمت صوت سيارة تدخل من باب المستشفى فى سرعة بالغة والأضواء الزرقاء تسبقها . وضعت تريزا يدها على رأسه فانكمش منحنيا خلف شجيرة صغيرة ، وكانت هى الأخر قد انكمشت الى جواره . قالت :

«لابد أن شيئا قد حدث فى الميناء !»

وقفت السيارة أمام باب المستشفى ، وهبط منها بضعة جنود فتحوا بابها الخلفى وراحوا يحملون بعض الجرحى .... قالت تريزا :

«اتبعنى ولاتتردد ... فسوف يقتلوننا لو انهم امسكوا بنا ... هيا ... الآن !»

قالت هذا وتركته عدوا الى حيث السور الشرقى للمستشفى ... وكان مندى يعدو خلفها ، حتى اذا وصلا الى السور ، التفتت اليه لاهثة :

«ارفعنى الى أعلى السور ولا تضيع الوقت !»

شبك يديه منحنيا فوضعت قدمها فوقهما ... وسرعان ماكانت فى أعلى السور وهى تهمس :

«خوان !»

وجاءها الصوت من الناحية الأخرى :

«لماذا تأخرت !»

التفتت نحو مندى وهى تقول :

«هل تستطيع أن تقفز الآن »

وسرعان ماكان مندى يتدلى من الطرف الآخر الى الشارع ... وهناك وجد رجلا كث الشعر كث الشارب يضع على رأسه طاقية صوفية تغطى أذنيه وجبهته ... قال الرجل فى سرعة :

«هيا ... اتبعانى !»

وراح الرجل يعبر الطرقات والأزقة فى سرعة شديدة . وكان مندى يتبعه ، ويد تريزا تمسك فى بيده ، وكانت برودة الجو شديدة !

***

قالت الست عنايات :

«عاوزة تيجى القهوة ليه يازغدانة ؟!»

قالت زغدانة :

«مانا بقى لى فوق التلاث جمع وانا قاعدة فى البيت ياخالتى !»

ابتسمت عنايات وهى تقول :

«بس القهوة مش ليكى يابنتى !»

«أبويا كان فاتح قهوة !»

ضحكت عنايات وهى تقول :

«قهوة أبوكى حاجة وقهوتنا حاجة تانية !»

«وأنا اللى كنت بأخدم فيها !»

«ولو !»

«وأنا اللى كنت باودى الطلبات للزباين فى المراكب وعلى الرصيف النورس !»

«زغدانة !»

«انتى خايفة على ؟!»

«الانجليز مالين الشارع يابنت الناس !»

«وماله ... فيها ايه دى ... ماهم مالين البلد كلها !»

كانت لهجة زغدانة هذه المرة ذات نغمة خاصة ... نظرت اليها الست عنايات نظرة ثاقبة كمن يحاول أن يستشف ماوراء تلك النبرة الغريبة الصارمة ... همت بأن تقول شيئا عندما عاجلتها زغدانة قائلة :

«طب ما انتى بتقعدى فى القهوة مع عم مدبولى للساعة تلاتة الصبح !»

«أنا جوزى معايا !»

«طب ماانتو الاتنين معايا !»

وضعت الست عنايات يدها فوق يد زغدانة فصاحت هذه :

«أنا زهقت من قعدة البيت !»

«بس انتى حلوة !»

«وماله !»

«ولاد الحرام كتير !» .

ابتسمت زغدانة وقالت فى صوت شديد الجَفاف :

«ماتخافيش على !»

واستسلمت الست عنايات . وابتسمت وهى تقول :

«طب قومى البسى الفستان اللى اشتراهولك عمك مدبولى . محدش عارف ربنا مخبى لنا ايه ؟!»

***

كانت سبعة أيام قد انقضت منذ هرب مندى من المستشفى .. وكان قد عبر مع تريزا ، وابن عمها جبالا ووهادا وممرات . وكانت أقدام

الثلاثة قد تورمت تماما ، عندما وقفوا جميعا فوق ربوة عالية يطلون منها على شاطىء البحر ، حيث كانت مدينة صغيرة تقوم فى حضن الجبل كأنها مدينة للأقزام ... هتفت تريزا وهى تسأل ابن عمها :

«قرطاجنة ؟!»

هز ابن العم رأسه ايجابا وهو يقضم عودا جافا كان بين أسنانه .

«هل تعرف بيت كارلوس ؟!»

هز ابن العم رأسه مرة أخرى ايجابا وهو يسعى بين الصخور هابطا فى منحدر كان يبدو شديد الخطورة ، لكنه غمغم مستديرا نحوهما :

«عليكما أن تنتبها جيدا . ان الطريق خطر !»

ابتسمت تريزا وهى تستدير نحو مندى قائلة :

«لقد نجونا ياحبيبى !»

وعندما همت بالسير أمسك مندى بيدها ، وراح ينظر اليها فى عرفان ، التفتت اليه متسائلة فقال :

«هل انت واثقة من انك تريدين اصطحابى ؟!»

قالت ضاحكة :

«فات أوان التراجع يامندى ... وفى هذه القرية ، سوف نجد قاربا تعمل عليه لتكسب لنا قوت يومنا !»

«تريزا!!»

صرخت فيه تريزا :

«لو أننى عدت الآن الى جبل طارق فلسوف يحكمون على بالسجن لأنى ساعدتك على الهرب !»

ثم استدارت ومضت ... وكان مندى ، وهو يخطو خلفها فوق أرض المنحدر الملىء بالصخور ، يشعر وكأنه يولد من جديد !

كان الوقت صباحا عندما وقفت زغدانة أمام عم مدبولى والست عنايات . وكان الرجل وامرأته ينظران اليها فى اشفاق بالغ ، أمامهما صينية القهوة ، وكانا صامتين ، أما هى فكانت باسمة .

«نازلة يازغدانة ؟!»

«أنا اسمى ليلى ... انتى نسيتى ياخالتى ؟!»

نهضت عنايات من مكانها مرتجفة وهى تصيح :

«أنا مش فاهمة بديعة عاوزه منك ايه ؟!»

«عاوزه تعلمنى الرقص !»

قال مدبولى :

«وحاترقصى ؟!»

«لازم آكل عيش يابا !»

قالت ماقالته وهى تشعر ، ربما لأول مرة فى حياتها ، أن لها أبا بكل ماتحمل الكلمة من معنى ... كان مدبولى ينظر اليها فى حب واستسلام :

«طب خلى بالك من نفسك !»

«طول ما انتوا معايا انا مش ناعية هم حاجة !»

صاحت عنايات :

«وحاتقولى للناس ايه ؟!»

«حاقول لهم أن انتوا أهلى ... أبويا وأمى !»

تقدمت منها السيدة عنايات فى حنان :

«زغدانة !»

«اسمى ليلى يا أمه ... ليلى كريم ... انتى نسيتى !»

كانت زغدانة تبتسم ... فابتسمت عنايات ، وعادت الى مجلسها مستسلمة :

«خلصى البروفة وتعالى على القهوة !»

«حاضر ... فتكم بعافيه !»

وعندما كانت زغدانة تخطو خطواتها الأولى فى شارع عماد الدين مرتدية دلك الفستان ذا اللون الأصفر ، راحت تدب فوق الأرض وهى تشعر وكأنها تولد — هى الأخرى — من جديد ... وكانت هذه المرة تعرف الطريق جيدا الى حيث كان كازينو بديعة يقوم فى ميدان الأوبرا ، كأشهر مكان فى مصر فى تلك الأيام ... ولم تكن تدرى ، ان رحلة العمر قد اتت الآن الى منحنى جديد ، وخطر ، ورائع ... لكنها أبدا فى ذلك الصباح ، لم تذكر مندى ..

**• مايو — أغسطس — ١٩٧٨ •**

**• القاهرة •**

# القــرش

## ــ ١ ــ

... وهكذا لم يعد أمامنا سوى أن ننتظر معه وعيوننا معلقة بالسنارة العارية عند السياج الخلفى ... وهكذا تناثرنا من حوله فوق سطح السفينة وقد تمزقت ملابسنا ونزفت دماؤنا ، وتسلخت جلودنا وتورمت أقدامنا وتشققت شفاهنا ، وتحجرت النظرات فى عيوننا ... وأصبحنا ــ بين يوم وليلة ــ كالجثث الحية على سطح سفينة نفد وقودها ، وأقتلعت صواريها ، ودمرت غرفة قيادتها ، وأتلفت بوصلتها ، ونفذت المياة الى أجزاء منها .

ولم يعد يعنينا أن نعد الأيام ، فلم يكن ذلك فى الحقيقة ممكنا ... اختلط الليل بالنهار ، وأظلمت السماء وتلبدت بغيوم كثيفة داكنة حجبت عنا الشمس والنجوم وأصبحنا نحسب الزمن كلما طالت ذقوننا واسترسلت شعورنا ... كنا معلقين فى فضاء بلا شاطىء فى انتظار معجزة!

... وهكذا مرت العاصفة بعد أن دمرت كل شيء وتركت السفينة كقطعة من الحديد الممزق العائم فوق سطح مجهول بلا حول ولاطول ، وأمواج البحر تسحبنا الى ظلمات لاعهد لنا بها ... حتى الاسماك اختفت ، وشح الطعام فى السفينة . وأصبح نصيب كل منا حبة واحدة من البطاطس كل يوم ، وتناقصت مياة الشرب فأصبح الحصول

على رشفة منها كنزا لا تعادله كنوز الأرض ... وفقد الكثيرون أعصابهم ، وفقد البعض عقولهم فالقوا بأنفسهم فى المياه مؤثرين الموت وهم يصرخون صرخات مجنونة ... وأمر القرش باطلاق الرصاص على رجل حاول أن يغتصب لنفسه كوبا من المياه بالقوة !

وهكذا لم يعد أمامنا سوى أن ننتظر مع القرش طوال الزمن الرتيب ونحن نحملق فى الافق الداكن نرقب قدوم المستقبل ونتسمع الى خطواته فى حفيف الرياح ، وأسنام الموج تمضى من حولنا فى وشوشة يبتلع الفضاء صداها ... ومع الزمن ثقلت حركة الرجال ، وبقى كل منا فى مكانه فوق السطح يرقب القرش القابع بجوار السلك الطويل الممتد من الونش حتى مؤخرة السفينة ، فى نهاية السلك سنارته الطويلة المعلقة فى الهواء بلا طعم تكاد أن تلامس سطح المياه دون أن تغوص فيها ... وكان القرش يظل فى جلسته هذه بالساعات وقد تسمرت قدماه العاريتان فوق السطح ، وارتكن بذراعيه فوق ركبتيه ، ورأسه مشرع الى الامام ، وعيناه تبرقان وهما تتطلعان الى مياه البحر الساكن تماما !

* * *

كانت بداية رحلتنا هذه كبداية كل رحلة سبقتها ... ساعة الرحيل بضجيجها وصخبها وهدير الآلات والأوناش وصيحات الرجال وصرخات القرش تملأ سطح السفينة ، وتبدو العنابر مفتوحة وكأنها معدة هائلة لكائن لايشبع ، ويبدو الرجال على السطح وفوق الصوارى والحبال كالقرود ، وعلى الرصيف جموع المودعين والأصدقاء والزوجات والعشيقات وكلمات الوداع وتوصيات التحية مع الفرحة الممزوجة بألم الفراق ، ثم تدوى صفارة السفينة زاعقة زعقة الرحيل فيزداد الهدير ويتسلق القرش الصارى الكبير وتبرق عيناه بالفرح الهائل وهو يصيح فى الرجال فيلهب حماسهم ، ويلوح بذراعيه الى المودعين فترتفع له عشرات الأذرع ... وتتحرك السفينة فى بطء لتغادر الرصيف الى مياه الميناء الضحلة وهى تئز

ازيزا خافتا ، وتهدر الآلات فى جوفها ذلك الهدير الصاخب حينا الهادىء حينا آخر ... حتى اذا استقبلت باب البوغاز وابتعد الرصيف خفتت الأصوات ، ومالت الشمس بقرصها المتوهج نحو الغرب ، ويبدو الأفق من بعد حاجز الأمواج صافيا شديد الصفاء ، ويختفى ذلك الضباب الذى يصنعه غبار الموج عادة ، وتبدو الأعلام الملونة على صارى السفينة مرفوعة فى شموخ ، وتسبح صيحات القرش فى سماء الميناء بهدير له نغم الموج العالى :

«لم البارومة فى البروة !»

«اسحب الواير على الونش فى الإش!»

«اقفل العنابر وأرمى المشمع يابحرى!»

وقبل أن تبدأ الخطوة الأولى فى رحلة آلاف الأميال ، يصيح القرش من مكانه العالى :

«ادينى تمام على الفلايك ياريس!»

وقتها ... ينتظم الهدير فى جوف السفينة ، ويستقبلها الموج فى صفعات رقيقة ، وتتمايل السفينة يمنه ويسرة ، وتبدأ الشمس فى ملامسة حافة الأفق ، وكلما انحدر قرصها كلما كبر وازداد اتساعه ، حتى اذا اختفى نصفه بدأ النصف الآخر كبوابة أسطورية لعالم دافىء ... وتدور السفينة يعد انطلاقها من الميناء الى عرض البحر الواسع ، لتتجه نحو القرص الذى يبدو وكأنه يستعد لاستقبالنا فى نهاية الرحلة !

ـ ٢ ـ

هكذا كانت بداية رحلتنا كبداية كل رحلة ... وهكذا أصبحنا فى عرض البحر ننتظر ليالى القرش الصاخبة وحكاياته وحديثه ونحن نتطلع اليه وهو جالس على سطح السفينة يعد سنارته للصيد العظيم ... وهكذا كان حاله دائما ... فما أن تغادر السفينة مياه الميناء ، وينتظم الهدير فى

حوفها حتى ينكب القرش على السنارة التى لايعرف سرها الا هو .. كان يجلس على السطح ليعمل بيديه وقدميه معا ، يمسك سلكها الرفيع الصلب بأصابع يديه وقدميه ، ويعكف عليها بالساعات فى صمت فيبدو وكأنه يصلى فى معبد ... كان وقتها يتمتم بصوت خافت وكلمات لانستطيع سماعها وكأنه يحدث شبحا ... كنا نرقبه وقد تحولت ساقاه الى ذراعين ، وقدماه الى كفين ، فاذا هو كائن غريب بأربع أذرع وأربع أيد ورقبة عريضة مربعة بارزة القسمات وكأنها قطعة من صارى صغير ركبت على الجسد لتحمل فوقها رأس سمكة بشرية ...

فى مثل تلك اللحظات ، لم يكن احدنا يجرؤ على الاقتراب منه أو الحديث معه ... وفى مثل تلك اللحظات كان الرجال فى المواخير وعلى أرصفة الموانى يصخبون ويشربون ويدخنون وهم يتحدثون ويؤكدون أن القرش سيصطاد هذه المرة ، وتثرثر النسوة فى بيوت الموانىءالواطئة ، وفى الحوارى والأزقة . وهن يجرعن كئوس الخمر الرخيص ، أو يصرخن بأصوات مشروخة مع أنغام أغنية حزينة ، أو فى أحضان بحار جلس يقص على الرجال كيف يصطاد القرش سمك القرش الأزرق وكيف يرمى فى البحر سنارته ... وتنعقد فوق الرءوس سحابات الدخان فيختنق الضوء ويعم الصمت ، وينصت الجميع حابسين أنفاسهم ، ويعلق رجل تحدث مع القرش قبل الرحيل ، وتؤكد امرأة كان لها حظ قضاء ليلة بين ذراعيه ، وتسيطر على الأذهان أحلام الانتصار ، ويتساءل الجميع متى يصطاد القرش سمكة القرش الأزرق ... ويؤكد البعض ، وينهض البعض وقد استولى عليهم اليأس ، وينفض السامر وقد علق الانتظار برقاب الجميع كقدر لامفر منه!

فى مثل تلك اللحظات كان يحلو لنا أن نرقب القرش وهو جالس على سطح السفينة وقد تخلصنا من أسر الأرض وانطلقنا فى الفضاء

الواسع ... كان يجلس بالساعات منحنيا فوق سنارته الغريبة ذات الطرفين المدببين اللامعين كهلب صغير ... وساقها تبدو لنا على البعد كعصا ساحر ، فى نهاية الساق يمتد السلك الى عشرات الأمتار ، ثم يدور حول أسطوانة الونش الصغير يملؤها ... وتمضى الدقائق والساعات ونحن ننتظر ، حتى اذا اطمأن القرش الى سلامة سنارته فاحت فى الجو رائحة اللحم الأبيض النفاذة ، وبدت لنا يده وهى تحمل اللحم لتكسو ساق السنارة وطرفيها كيد ساحر يأتى بالمعجزات ، تفوح الرائحة وتنفذ السنارة الى الكتلة البيضاء الناصعة وتغوص فيها ، وتضغط عليها الأصابع العريضة الشديدة السمرة ، ويبدو فى عينى القرش ذلك البريق الخاطف ، وتلك البسمة التى تنبسط فوق ملامح الوجه كله ... وكان ينهض بعدها وهو يحمل السنارة فى صمت ، ويعبر سطح السفينة حتى يصل الى مؤخرتها ، ثم يقف ملتصقا بالسياج يطل على الموج برأس شامخ ... ثم يرفع ذراعه بالسنارة ويملأ صدره بشهيق شره ، ويدير السنارة فوق رأسه دورات تزداد سرعتها حتى يصبح لدورانها فى الهواء صفير حاد يخترق الآذان ... وتفلتها أصابع القرش فتنطلق فى الهواء كالسهم ، تبتعد وتبتعد ثم تهوى الى المياه وتغوص فيها ساحبة خلفها أمتار السلك الطويل حتى النهاية .

* * *

سنوات وسنوات ونحن نعيش مع القرش وننتظر معه ، سنوات وسنوات ونحن ننتظر فى قلق وقلوبنا تخفق كلما رأينا أسماك القرش تتلاعب من حول السفينة فى أسراب تعد بالعشرات ... كانت تظهر دائما كلما اشتدت الرياح وعلت الأمواج ، فتبدو لنا وكأنها نمور بحرية تقفز من قلب الموج فى قوس منتظم ثم تعود لتغطس فى صخب المياه من جديد ، كانت تتبع السفينة أينما ذهبت ... ويظل القرش مستندا الى السياج لاتفارق عيناه سلك السنارة الطويل الملتف حول اسطوانة الونش فى المؤخرة ، وكلما اشتد بنا القلق وطال الزمن ، كلما ازدادت سرعة سمك القرش فى المياه

الصاخبة ، فإذا بها تسبق السفينة ، وتدور حولها سربا وراء سرب دون أن تقترب من السنارة . وغالبا ماكانت الأسماك تأكل الطعم لتترك السنارة عارية ، وقتها ... كان غضب القرش يتحول الى زمجرة هادرة وهو يطل على المياه صارخا :

«يانا ياانت ياأزرق يالئيم ... أكلت الطعم المرة دى تبقى غلبتنى ... لكن أنا حاغلبك والتار بيننا بايت ... وحق الموج ومن سيره لاصطادك ولو فضلت العمر مستنى!!»

ويصمت القرش ويضطرب صدره مع اضطراب الموج من حولنا ، ويصدح صوته فى فضاء البحر الواسع :

«ياأزرق ياجبان ... ياأزرق ... ياجباا ان!»

كان يبدو لنا فى ذلك الوقت كسمكة تحولت الى انسان ، وكنا نحبس أنفاسنا ونحن نرقبه من بعيد وصوته القوى يملأ آذاننا ويدفع الدماء فى قلوبنا ويملؤها بالحماس والرهبة والترقب ، ويظل بالساعات وهو يحملق فى الموج صامتا وسنارته تتأرجح بجواره ، ونظل ندور من حوله متهامسين ، ويسأل بعضنا البعض متى تعود أسماك القرش الى الظهور ، وفى أية مياه ؟ ... كنا دائما نستعد مع اللهفة والقلق للانتظار من جديد !!

* * *

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه وصخبه ... وهكذا امتد بنا الانتظار حتى حدث ماحدث ، وصمت القرش صمت البحر الآسن من حولنا ، وراح يرقب سطح المياه ويشم الهواء بأنفه ونحن متناثرون من حوله نلعق الزمن بقلق وقد تمزقت ملابسنا وتشققت شفاهنا ، وتورمت أقدامنا ، ولم يعد أمامنا سوى الانتظار ... فلو اصطادت سنارة القرش لشربنا دماء السمكة وارتوينا ، وأكلنا لحمها وشبعنا ... وتجدد الأمل!!

— ٣ —

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه وصخبه ... ولطالما جلسنا اليه فى الأمسيات الدافئة فوق سطح السفينة أو فى أعماق عنبر من عنابرها ونحن نستمع اليه ونستحلب كلماته بآذاننا ... طوال أعوام لايستطيع أحدنا أن يعرف عددها ونحن نرقب حماسه ولهفته وانتظاره ... وما من رحلة انتهت الا وازداد شوقه الى الرحيل من جديد ، وما من مرة رسونا فيها على شاطىء الا واستعجل الابحار بنشاط ولهفة وهو يعد العدة ويجهز الاسلاك واللحم الأبيض ويطمئن على سلامة سنارته التى لايستطيع صنعها الا هو ...

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه ، وهكذا التقى به كل منا ونحن نصعد سلم السفينة بعد طول شوق وانتظار ، عندما يطالعنا وجهه الأسمر الداكن من خلف السياج ، وتخترق نظراته العين عند أول لقاء ، وتأسر بسمته كل القلوب ... ويمد القرش الى القادم منا كفا غليظة الأصابع صلبة الملمس وكأنها صنعت من معدن تسرى فيه الدماء ، ويطالعنا شاربه الكث الذى ينتشر على جانبى وجهه ككفين صغيرين بعشرات الأصابع الرمادية ، يتربع فوقه أنف أفطس واسع الفتحات ، وفمه يبدو كخط رفيع يمتد أسفل الشفة العليا من الأذن الى الأذن ، تعلو وجهه جبهة تنزلق فى انحدار شديد الميل ، ينتهى بجدارين صغيرين من الشعر الكثيف يظللان عينيه ، وتهتز نفوسنا بالدهشة العارمة عندما نكتشف أن رأسه كرأس سمكة القرش سواء بسواء ، ونسمع حفيف الهواء فى شهيقه وزفيره ، ونرتج لنظرات عينيه الثاقبة!

وأيا كان القادم منا فلابد أن يتأرجح به سلم السفينة المعلق ، ولابد أن تزل قدمه أو يفلت الحبل من يده أو يتطوح جسده ، ولابد أن تنقذه صيحة القرش أو ترفعة الكف الصلبة من فوق السياج ، ثم يدوى فى

الآذان صوته الهادر :

«وانت طالع السلم تخلى عينك دايما على الحبل وايدك ثابتة!»

ولا يصبح الواحد منا فى حاجة الى مصافحته ، فلابد أن تظل يده أسيرة أصابع القرش القوية ، وقبل أن يفتح فمه يملأ الصوت العريض أذنيه :

«أنا القرش!»

... وهكذا تعودنا جميعا أن نناديه دون أن نقول له ياباشريس ، رغم أنه باشريس السفينة وكبير البحارة فيها ... ولم يعرف أحدنا اسمه الحقيقى ، ولا يدرى أحدنا ما اذا كان اسمه هو القرش حقا ، أم أنها أطلقت عليه وارتضاها هو لنفسه .

واذا كان يوم الرحيل هو أسعد الأيام ، فسعادتنا بليالى القرش وحديثه كانت تقف وحدها فوق قمة شامخة من قمم احساسنا الوحشى بالحياة ... ممرات السفينة وسحابات الصهد المتصاعدة من غرفة الآلات ، الهدير الدائم الدائب الذى يتحول الى جزء من الصمت والذى تبدو الحياة بدونه على سطح السفينة وكأنها قد توقفت عن النبض ... تعجل الدقائق طوال اليوم استعدادا لساعة العشاء ، وعاصفة القرش الصوتية وصخبه وضجيجه وحديث الرجال معه ... امتلاء الأفواه بالطعام والكلام ، ولايأكل القرش من طبق واحد ، بل يلتقط طعامه من طبق وهذا وطبق ذاك ... يضعه فى فمه ويبتلعه دون مضغ ، ويضرب رجلا على ظهره ويسب آخر ألقى عليه سؤالا ، حتى اذا جاء حديث الصيد تغيرت النبرة واحتد الصوت وبرقت العيون ...

«اللى ياكل لحم القرش مرة يا ينساهوش طول العمر!»

ويصرخ رجل ملأ جوفه بالخمر :

«وهو لحم القرش ينفع مزة ياقرش ؟!»

ولا يستجيب القرش للهذر وقت الحديث عن الصيد أبدا :
«بدل ماتشرب تعالى أعلمك ... القرش كوم وسمك البحر كله كوم!»
«القرش الأزرق والا الحوت الأبيض ياباشريس؟»
«القرش ملك الميه!»
ويصيح آخر متسائلا :
«المركب مابتروحش ميه الحيتان ليه؟!»
«الحوت زى الفيل ... جته من غير مخ ، وأيها عيل يقدر يركبه!»
ويصيح ثالث من آخر العنبر أو طرف السطح :
«قالوا فى المينا القرش الأزرق جبان وطرى!»
«القرش الأزرق غول الميه!»
«بيقولوا انه مالى البحر هناك؟»
«القرش لئيم ولازم لؤمك يغلبه!»
«واذا ماكانش فيه لحم أبيض ... نصطاده ازاى؟»
«لف السنارة بالقطن يهبش فيها ان كان جعان!»
«القطن مالوش ريحة!»
« لو جاع القرش مايشمش ، وتبقى عينيه كلوبات!»
«بيقولوا ان ميته غويطه .. غويطه !»
«اذا قابلته فى بحر عالى حرص منه ، واذا مسكته فى ميه غويطه حايتمكن منك !»
«واذا الريح شد بالليل؟»
«ازعق ... ازعق بالحيل يخاف منك!»
«واذا البحر على والموج كبر؟»
«تشد الواير وتطمن له ، واذا السنارة غمزت ماتقربش لوحدك ،

وذا اتمكنت منه اضرب بالبلطة بين عينيه ... هنا ... هنا . هنا تمام تجيب أجله!»

الفم الواسع والأنف الأفطس والعينان البراقتان والجبهة المتحررةوحديث المساء فوق سطح السفينة أو فى أعماق عنبر من عنابرها ... وجلسة القرش فوق كومة الحبال تحت النجوم اللامعة والرجال من حوله ينصتون ... وزجاجة الخمر التى اذا مارفعها القرش الى شفتيه فعل ذلك بكلتا يديه محتضنها اياها مقبلا فاها فى رفق حينا وفى قسوة حينا آخر ... وحديث الصيد والرحلات الطويلة وعشق البحر وهدير الأمواج ... وأسماك القرش المتلاعبة من حولنا ... وصوت الآلات يأتى من الأعماق كالقلب المنتظم ... ويقول القرش كلما صمتنا قليلا وران هدير الآلات علينا :

«من غير المكن مش ممكن نمشى فى بحره !!»

ومياه البحر وهى تلعق الجدران فى رفق حيناً وفى وحشية حينا آخر ، وصيحات القرش فى قلب الريح والسلك الملتف حول أسطوانه الونش الممتد عبر المؤخرة الى حيث مياه البحر الواسع ، والمصباح الهائل الذى يصب على سطح المياه ضوءه ليجذب بالنور الأسماك الهائجة :

«الكشاف بيسحب نور كتير ياقرش!»

ويأتى صوته عبر الليل كنبى يرسى تعاليمه :

«من غير النور السمك مايظهرش ، والقرش يهرب منك فى الضلمة!»

والرجال المتناثرون هنا وهناك فى صمت وانتظار وقد تسمرت عيونهم فى بقعة الضوء المتوهج بزبد الموج الأبيض ، ووجه القرش الداكن فى الظلمة ، والاحساس الغامر بالبهجة ، وصوته يسرى الى الآذان ليحكى قصة القرش الأزرق ... واذا ظلت السفينة تجوب المياه والبحار وتعبر المحيطات وتصارع العواصف والأنواء فنحن فى أمان مادام القرش معنا ،

فلم يسمع أحد أن هناك موجا تغلب على سفينته ، أو ريحا دفعتها الى حيث لايريد !

— ٤ —

... واذا قال القرش أن عاصفة ستهب فلابد أن تهب العاصفة ... واذا قال أن الموج سيعلو فلابد أن يعلو الموج ويزمجر وهو ينهش جدران السفينة ويتكسر على جوانبها ... واذا أصاب بعضنا القلق صاح فيه القرش منذرا :

«البحر كبير ... وعلشان تركبه لازم تكون أكبر منه!»

والنظرة من عينيه كانت كفيلة باقتحام النفس ومعرفة خباياها ..

«واذا خفت من البحر ركبك الموج وطواك ونهش القرش لحمك!»

واذا عاد الاطمئنان الى النفوس كان القرش هو ركيزته ... وكم جلسنا نرقبه وقت الحديث عن العاصفة مبهورين ، عندما يعمق صوته وتلمع عيناه بذلك البريق الأخاذ ، عندما ينظر الى الموج الصاخب فيحدثه وكأنه يروضه !

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه ... وهكذا كنا قبل أن تهب العاصفة .. وهكذا أصبحنا بعد أن هبت وذهبت معها بكل شيء لتتركنا مجرد حطام عائم فى بحر بلا سماء ، وهكذا أصبح علينا أن ننتظر معه طوال زمن لايعرف أحدنا طوله الا بمقدار ماتطول ذقوننا وتسترسل شعورنا ... ثم راح البعض منا يحسب الزمن بعدد مرات شهيقه وزفيره !

ولقد كان القرش يعلم فى تلك الليلة أن العاصفة ستهب حتما ... انبأته السماء الملبدة ولسع الرياح التى كانت تلفح وجوهنا ونحن جالسون على السطح نستمع اليه ... كان يتوقف بين الحين والحين وهو يطيل النظر الى السماء ثم يهبط بعينيه ليمسح سطح البحر بنظره وهو

بتمتم :

«النوه الليلة نازلة جامد ... والبحر حايكبر!»

وننهض الى السياج لنرقب اسماك القرش وهى تتقافز من حول السفينة ، ثم يصيح أحدنا وكأنه يقطع بصيحته قطعة من قلبه :

«لكن القرش مابياكلش الطعم ليه ... ليه السنارة مش بتغمز؟!»

ويرد القرش فى صوت الواثق :

«لسه .. لسه مش دلوقت!»

ويعود ليحملق فى وجوهنا ثم يقول منذرا :

«البحر حا يعلى والموج حايكبر .. حايكبر قوى!»

ويرفع رأسه فى الهواء كسهم مشرع ، ويغمض عينيه ويشم الرياح بفتحتى أنفه الواسعتين حتى يمتلىء صدره بالهواء ، ثم يردد فى صوت كالصراخ المكتوم :

«الريحه دى أنا عارفها .. شموا معايا تعرفوها زيى!»

ويطفو القلق على وجهة ثم تبتلعه ملامحه فى ابتسامة واسعة .. وينهض من مكانه ليعبر المؤخرة حتى السياج الخلفى ، وينتصب واقفا هناك وهو ينظر الى البحر ثم يصيح وذراعاه مشرعتان فى الهواء :

«الليلة ليلتك ياأزرق ... الليلة ليلتك أنا عارف ريحتك ... ولو غلبتنى برضه لازم حاييجى يوم يتعلموا وأغلبك فيه ... وحق من سير دى الريح لأغلبك ، وحق من علا الموج لأغلبك!»

وتأتى علينا لحظات يمتصنا فيها حديث القرش ونبرات صوته حتى تنخلع قلوبنا بالرهبة ، وتأتى عليه لحظات يزمجر فى وجوهنا بيديه وقدميه بعينيه وهو يصرخ فينا :

«لكن حتى لو السنارة غمزت ... مين حيصطاده منكم معايا؟!»

ويعم الصمت ونحن نرقبه فيزداد هياجه :

«واحد لوحده مايقدرش عليه ... الضربة من ديله تهد مركب بحالها ... والخبطة من رأسه تجيب الأجل ولو كان الراجل جبل!!»

ـ ٥ ـ

وتملأ آذاننا زمجرة الموج وصفير الرياح وصرخات البحر الوحشية ، ويشعل البعض سجائر تتوهج فى الظلام كنجوم كابية فى سماء صدئة ، ويعذبنا تأنيب الضمير فنغرق عذابنا فى الخمر ، ويأتينا صوت القرش عميقا خافتا :

«لازم تتعلموا صيد القروش ... اللى يصطاد القرش يبقى اصطاد البحر كله ! »

ولابد أن يأتيه صوت منا :

«البركة فيك ياقرش!»

ولابد أن تحتد الزمجرة ويشتد صياح القرش :

«البحر مالوش كبير!!»

ونفرغ كئوسنا ونحن ننهض متمتمين :

«وهو فيه بحر أكبر منك؟!!»

ويأتينا الرد حاسما :

«البحر مالوش كبير!!»

ويتمتم أحدنا وهو يتثاءب :

«وهو ده معقول .. وهو ده معقول!»

«ولو اصطادتوا القرش تبقوا اصطادتوا البحر كله!!»

وكان يقف وسط السطح عارى الرأس لامع العينين ممتد القامة :

«بالكم القرش حياكل الطعم؟! .. أبدا .. ده حياكلكم أنتم!»

ثم يضرب سطح السفينة بقدمه صارخا :

«لكن القرش مياكلش لحم منتن!!»

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه والفنا حديثه وغضبه ، وهكذا كانت ليالى القرش تنتهى لنأوى بعدها الى أسرتنا وكبائننا وكل منا يمنى النفس بالصيد العظيم ، ويأتينا صوت القرش عبر ممرات السفينة زاعقا : «البحر مالوش كبيرة!» ... فنبتسم جميعا فى اطمئنان واثق ، فلم يسمع أحد أن سمكة قد غلبته ، أو أن موجا قد تغلب على سفينته ، أو ريحاً دفعتها إلى حيث لايريد ... وهكذا كان الخدر يطوينا فى كل ليلة الا تلك الليلة التى بدأت ولم نر لها نهاية ... ووجدنا أنفسنا ونحن متناثرون فوق حطام عائم فى بحر مجهول يبدو بلا شاطىء!

* * *

أخذ صياح القرش يتردد فى فضاء البحر كالريح العاتية :

«النوه جامدة ... والريحة دى أنا عارفها ... عارفها!!»

هكذا راح يردد فى تلك الليلة فتحمل الرياح الباردة صوته الى بعيد ، وقمم الأمواج تتعالى من حولنا ، وزمجرة البحر تملأ فضاء الكون كوحش جائع أطلق من عقاله ، وسمك القرش يبدو فى جوف الظلام وقد برزت رءوسه فى عامود الضوء الذى يصبه المصباح الكبير ، والقرش جالس فوق كومة الحبال وقد اعتراه الصمت وهو يحملق فى الفضاء المظلم من حولنا ، والسفينة تترنح فوق السطح الصاخب وهى تئن تحت ضربات الموج الموجعة ... واهتز سلك السنارة وارتعش رعشات سريعة فخفقت قلوبنا وحبسنا انفاسنا وتعلقت عيوننا بدائرة الضوء الباهر ، ثم نهض القرش وأدار الونش ليسحب السنارة فى بطء ، ومضت الدقائق وقلوبنا تدق ورذاذ الموج يغرق كل شىء حتى ابتلت ملابسنا ونفذت المياه الى اجسادنا ... وعندما ظهرت السنارة كانت عارية تلمع فى ضوء المصباح بعد أن أكل القرش لحمها الأبيض ، وقبل أن ينطق أحدنا بكلمة ترنحت السفينة ومالت على جانبها فانزلقت أقدامنا وكاد بعضنا يسقط فى المياه ، وارتفعت السفينة فوق موجة ثم هوت على سفحها لترتطم بالمياه الهائجة ... وارتحت من تحتنا

بعنف وغاصت مقدمتها فى قلب موجة هاجمتها واغرقتنا بزبدها ، ثم انحسرت الموجة لتدوى فى الظلام صرخة رجل اصابه الهلع :

«الدفة .. الدفة انخلعت .. الدفة ياقرش!»

هاجمنا الذعر بكل عنفوانه ، وتمايلت أجسادنا وترنحت عيوننا تتشبث بالقرش وقد أصبحت السفينة طعما للرياح والأمواج بعد أن كسرت دفتها وابتلعها الموج فى أعماقه ... هرولت الأقدام وتعالت صيحات القرش وهى تأمر الرجال بالحركة هنا أو هناك ... وأخذت زمجرة الأمواج تشتد ، وهبوب الرياح يدفع بمياه البحر فى جبال كانت تتتالى لتضرب السفينة بعنف وتغطيها حينا ثم تنحسر عنها لتعلو فى الظلام صرخات القرش :

«كل راجل يثبت مكانه ... القرش فى الميه جعان والليلة ليلته!»

توقفت الآلات فى انتظار الغيب المجهول ... ثم دوت صرخة أخرى انخلعت لها القلوب فهرع البعض الى قوارب النجاة صارخين :

«المركب بتغرق ... المركب انفتحت ياقرش!»

ولاحقتهم صرخات القرش الغاضبة :

«ارجع يابحرى انت وهوه ... الميه عالية والمركب عايمه!»

كانت الأمواج قد مزقت جانب السفينة الأيمن حيث رصيد الوقود الذى فاحت فى الجو رائحته النفاذة وحملته الأمواج فوق سطحها لتغرقنا به وتلطخ وجوهنا وملابسنا بسواده ، وسبحت صيحات القرش فى كل مكان تأمر وتحذر ، فوق السفينة وفى جوفها وممراتها ... كانت السفينة قد مالت على جانبها ميلا شديدا وأصبحت هدفا للموج الثائر المزمجر فى وحشية ... وفاحت فى الجو تلك الرائحة التى تنبىء بالخطر الشديد ، وركب الخوف قلوب البعض فألقوا بقارب نجاة الى المياه وقفزوا اليه ... وحملت الرياح صوت القرش صارخا :

«ارجعوا يارجاااله ... الميه عالية والنوه شاده والريح الليلة غدار!!» ..

ورأيناهم كالظل يبتعدون عن السفينة فى هلع تحملهم أمواج مزغرده فى الظلام ... وعاد القرش يصرخ فيهم وقد تدلى جسده من فوق السياج :

«ارجعوا يارجااااله ... الميه مليانه بالقرش ، السمك فى البحر العالى بيبقى جعان!»

واندفع القرش نحو المصباح الكبير فصوبه نحو القارب الذى بدا وسط دائرة الضوء شديد اللمعان ، وجاءنا الرد صرخة نفذت كالخنجر المنغرس وسط الصدر تماما ... وبدت أجساد الرجال فى القارب كالدمى تتقاذفها أنواء مفترسة ، كان القارب يتلاعب بهم وقد فقدوا السيطرة عليه تماما والرياح والأمواج تحمله الى بعيد وتغوص به فى الظلام ... وخفت ضوء المصباح مع نفاد الوقود وعاد القرش الى الصراخ :

«واحد لازم يقعد على الدفة .. أمسك المجداف بايدك واسنانك وقسموا بعض يمين وشمال . ومتخافش من الموج واوزن القارب أحسن الموج يغلبك!»

وانطفأ المصباح عندما انقضت عليه موجة حملته وهى تزغرد بصوت كظيم ، وعندما انحسرت مياه الموجة كان القرش لايزال متشبثا بالسياج يحملق فى قلب الظلام ، وقد أربد وجهه بالغضب وهو يتمتم بصوت غليظ :

«مفيش فايدة ... غلبهم الموج ونهش القرش لحمهم!»

وجاءنا الرد صرخة نفذت كالخنجر المنغرس وسط الصدر تماما ... صرخة ثاقبة ممزقة مذعورة وكأن صاحبها قد أفزعته رؤية الشيطان نفسه ، وعاد القرش يردد :

«نهشه ... نهشه الغدار فى الضلمه!!»..

وكان منا من أدار وجهه ... ومنا من تسمرت عيناه وهو يحملق فى الظلام حيث شبح الجسد الطائر فى الهواء وفم القرش الدامى والموج يبتلع كل شىء ... وازداد ميل السفينة وهى تئن بصوت ممزق ، وتكاثف

الظلام ، ودوت فى الفضاء قرقعة هائلة كأنها انفجار ، وصرخ القرش بكل صوته :

«نام على وشك يابحرى انت وهو .. الصارى اتقلع يارجاااله .. الصاااارى اتقلع والريح حاتاخده والموج حايشيله والمركب حاتفضل عايمه ولازم نركب البحر ونكبر عليه!» .

وهوى الصارى الهائل بكل ثقله فوق السطح مهشما غرفة القيادة والبوصلة ، وعندما ارتطم بالسطح أنت السفينة أنينا كالبكاء ، وسكن الصارى لثوان ثم بدأ يتدحرج بأسلاكه وحباله وأعلامه نحو المياه ، ثم حملته الأمواج وابتلعه الظلام ... وزغردت الرياح وأخذت الأمواج تبتلع ذواتها ، وأصبحنا نتشبث بسطح سفينة نفد وقودها وابتلعته مياه البحر بعد أن مزقت الأمواج جوانبها ، واقتلعت صواريها ، ودمرت غرفة قيادتها ، واتلفت بوصلتها ...

وذهبت العاصفة لتتركنا ونحن راقدون فوق السطح نحملق فى سماء ملبدة بغيوم حجبت عنا الشمس والنجوم ، وابتلع الفضاء كل ريح ، وأصبح البحر آسنا تنبعث منه رائحة كالعفن ... ولايدرى أحدنا كم من الوقت مضى ، اختلط الليل بالنهار فى كون داكن اللون ، ونفد الطعام وشحت مياه الشرب ، وأصبح أملنا الوحيد فى الحياة أن يصطاد القرش ... فلو اصطاد لشربنا الدم وارتوينا ، وأكلنا اللحم وشبعنا ، وتجدد الأمل !!

— ٦ —

... وأصبح من العسير علينا أن نحدد الزمن أو نحسبه الا بمقدار ماتطول ذقوننا وتسترسل شعورنا ... غابت أذهاننا فى ضباب حالك والزمن يمضى بنا متشابه الضوء والملامح وكأننا عبرنا الدنيا الى محيط الأبدية ... تناثرنا من حول القرش بخرقنا وشفاهنا المتشققة ودمائنا النازفة ونحن نرقبه فى جلسته الصامتة بالساعات ، وعيناه تحملقان فى مياه البحر دون أن يطرف

له جفن أو تبدر عنه حركة ... وكان يكفى أن يسأله أحدنا سؤالا حتى يأتينا منه الجواب حاسما هادىء الصوت :

«الساعة دلوقت تطلع لها أربعة بعد الضهر ، والنهاردة الخامس وبكره تدخل فى سادس يوم!»

ويطول بنا الصمت لساعات ، ثم يأتينا صوته وكأنه ينبئنا بأننا لانزال نحيا :

«مش ممكن كل السما تسوى بعضها ... فيه سحابه بيضه هناك ، تقدر تشوفها لو كنت عايز ... لونها يقول لك احنا امتى وكنا فين!»

وتتمسح عيوننا بالسنارة المعلقة فى الهواء بلا طعم ، ونلوك فى صدورنا أملا كان يخبو شهيقا بعد زفير ... وشح الطعام فى السفينة وأصبح نصيب كل منا حبة واحدة من البطاطس كنا موقنين أنها ستصبح فى الغد لكل اثنين ، وتناقصت مياه الشرب فأصبح الحصول على رشفة منها كنزا لاتعادله كنوز الأرض ... وكلما انبأنا القرش أن يوما قد مضى بدت لنا الحياة أملا بعيد التحقيق ، وتخشب كل منا فى رقدته وكأنه يرقد فى تابوت ... وكان صوته يأتينا بين الحين والحين متمتما :

«القرش الأزرق . لو اصطدناه نبقى اصطدنا البحر كله ... ونلقى البر قدامنا!!»...

ورد أحدنا على القرش بصوت كالنواح :

«مفيش أزرق فى الميه!»

وتحرك البعض منا فى مكانه ، ثم تململنا جميعا فى أماكننا وكأن جملة الرجل قد تحولت الى ذراع يحركنا ... ودفع القرش رأسه واحتد صوته :

«القرش الأزرق غول الميه ... أنا شفته!» ...

وهب رجل فى مكانه وفى عينيه بريق مخيف :

«أنا عمرى ماشفته!» ..

وقال آخر : «ولاأنا» .. ورد ثالث : «ولا أنا» .. ورابع : «ولا أنا» .. واختلطت أصواتنا كالفحيح : «ولا أنا ... ولا أنا ... ولا أنا ... أنا ... ولاأنا ... » كنا جميعا نردد الكلمات بلا ارادة ... وصرخ أحدنا فى القرش فجأة :

«محدش شاف القرش الأزرق ... ولا انت عمرك اصطدته!» .

وفززنا جميعا على أيدينا ، وبدأت صرخاتنا تشق صدورنا فى وجهه. وجحظت عيوننا بالغضب ، واجهنا القرش بنظرات محمومة، وصرخ أحدنا:

«امتى حاتصطاده؟ ... امتى حاترمى السنارة ؟! .. »

وجاءنا صوت القرش هادئا واثقا :

«لما الريح تشد والموج يعلى !»

ويعوى آخر :

«كذاب ياقرش... انت عمرك مااصطدمت سمكة!»..

وانتفضنا جميعا عندما صرخ صوت :

«فرق علينا اللحم الأبيض!».

«اللحم الأبيض- علشان الأزرق اللى جاى فى السكة!»

«ارمى السنارة دلوقت!»..

«السمك الصغير يأكل الطعم... والقرش مايطلعش الا فى الميه العالية!»..

«الأكل خلص والميه فرغت!».

«ناكل كل أربعة حبة بطاطس ونصبر لحد الريح ماتشد!»

«كذاب.. كذاب!» ..

صرخها الرجل وهو يقفز نحو القرش والدماء تتساقط من شفتيه المتورمتين فى قطرات راحت تتخلل شعر ذقنه ... وكانت أظافره قد تحولت الى مخالب ، وأصابعه تقوست وانتفخت رقبته ... قفز الرجل قفزته فمال القرش يسارا وسقط الرجل على وجهه لتهوى كف القرش فوق ظهره

كالمطرقة :

« الشر مافيهوش رجا .. واللى يبكى زى النسوان الموت فى البحر أحسن له »..

وساد الصمت تماما ولم نعد نسمع سوى أنفاس القرش الغاضبة ... وتحول صراخ الرجل الى نحيب راح يسرى فى الجو الآسن من حولنا وهو يتمتم : « عطشان ... عطشان ... عطشان !» ..

وخفت النحيب ثم تلاشى وعاد الصمت ونحن نرقب عينى الرجل وقد تسمرتا على سطح المياه الراكد ، وكانت شفتاه المتشققتان منفرجتين عن لسان شديد البياض ... وقال القرش بصوت ينذر بالخطر :

«ماتبصش للميه!»

وهمس الرجل فى فحيح :

«دى ميه ... ميه!» ..

«أبعد عنيك عن البحر !» ..

«عطشان . عطشان ياقرش!» .

«لو كنت بحرى كنت عرفت انها ملح!» ..

وأطلق الرجل صرخة دوت فى أرجائنا ، وارتجف جسده رجفة قفز بعدها الى المياه ، وارتطم جسده بالسطح الآسن وغاص فيه واختفى ... وتنهد القرش بصوت حزين :

«لو سمع الكلام مكانش راح!»

وقال أحدنا بصوت باك :

«وحتى لو اصطدنا حانشرب منين؟!»

«نَشرب دمه!» ..

«دم؟» ..

«ولازم الريع تجمد!»

«ميه!» ..

«ولازم البحر يعلى!»
«الدم مايرويش ياقرش!» ..
«ولازم الموج يشخشخ!» .
«والبر؟ .. أمتى نوصل البر؟» ..
«البر قريب .. أنا شامم ريحته!» ..
«فين البر ياقرش؟!»..
جحظت عيوننا وصرخ أحدنا :
«فين البر؟ .. البر فين ياقرش؟!»..
«البر بعيد علينا...»...
«انت قلت أنا شامم ريحته؟ »
«الريحة فى البحر زى الصوت ... الميه تشيلها!»..
«الراجل غطس ماقبش تانى!».
«الريح جاى قريب!» ..
«البر فين ياقرش ياكذاب ... انت عمرك مااصطدت ولا عمرك حاتصطاد» ..

وقفز أحدنا فوق القرش وهو يعوى ، وبدأت صرخاتنا تتعارك مع عراك الرجلين اللذين توسطا السطح الخلفى ... راح كل منا يصرخ وهو فى مكانه ، وكلما اشتد العراك كلما اشتد صراخنا واشتد تساقط الدماء من شفاهنا ... تدحرج الرجلان فوق الأرض فازدادت حلقتنا ضيقا وتقاربت أصواتنا وامتزجت فوق رأسيهما ، وسرعان ماتهاوى الرجل ونهض القرش واقفا وهو يمسك بتلابيبه وينهال عليه صفعا وهو يصيح صيحات حادة أسكتتنا وقهرتنا :

«قلنا الشر مايجيبش رجا ... اهدى وروق وخد دى علشان تتعلم ازاى تغطى بطنك وانت بتتعارك . واذا ضربت تضرب فى المليان ، وبلاش صريخ زى النسوان ، وبدل ماتضربنى خلى دراعك للقرش الأزرق ... ارفع

لى دماغك وبص فى عينى واملا صدرك بالهوا تشم الريح جاى من هناك ... الريح ... أنا شام ريحته ... وصوت السمك وهو بيقب ويغطس مع الموج ... بص للسما يابحرى تشوف المطر جاى لك من هناك ... الريح آهوه ... الريح وصلت والموج حايعلى والبر قرب!»

كان جسد الرجل مكوما عند قدمى القرش وقد تحولت صرخاته الى أنين ... وخفقت قلوبنا وقد تعلقت عيوننا بجسد القرش المنتصب وسط السطح كالوتد وهو يحملق فى الأفق البعيد ... وعندما صاح هذه المرة ردد الفضاء صدى صيحته :

«صوتك وصل لى ياأزرق ... صوتك وصل!» ..

تحاملنا ، ودهمنا احساس مريع بالخوف فتراجع البعض منا :

«أنا سامعك ... أنا هنا ومستنيك!» ..

وعندما ارتد الينا صدى الصوت صرخ أحدنا فى جنون :

«الريح غسلت وشى!» ..

كان القرش يقف مكانه وقد شرع رأسه نحو السماء وراح يتشمم الهواء بقوة ، وكلما نادى نداء أو قال كلمة ازداد حماسه وانجلى رنين صوته ... وبدأنا جميعا ننظر الى حيث كان القرش يتطلع ... وبدونا جميعا وقد تهوشت شعورنا وكأننا حيوانات مفترسة ... وداعبت الريح شعورنا فتهاوى أحدنا باكيا :

«الريح غسلت وشى»! .

وتثاءب البحر من حولنا وتمطى بملايين الأمواج الصغيرة التى راحت تسبح فوق سطحه فى أسراب وكأنها أسماك وليدة ... وعلا نحيب أحدنا عندما سفحت الريح وجوهنا وعلت الأمواج قليلا ... وانجلى الموات فاندفعنا واصطدمنا وصرخنا وتحدثنا ولم نشعر بالدم الذى راح ينثال من شفاهنا ويلطخ صدورنا ... كنا نبكى ونصرخ ونقفز ونضحك ونتحدث ودموعنا تسيل ... استند بعضنا الى السياج وراح يرقب سطح المياه المتلاعب فى

توسل ... واختلط صوت البكاء بالضحكات ، وظل القرش فى مكانه وهو يتشمم الهواء بفتحتى أنفه الواسعتين دون حركة ، صرخنا فيه وقبلناه .. واحتضناه لكنه ظل صامتا ... كانت الحياة تعود الى الدنيا مع هبوب الرياح وتلاعب الأمواج ومناغاة المياه لحطام السفينة الذى راح يتمايل بنا فى هدوء ... وعندما صرخ القرش ألجمنا صراخه :

«وأنا جاهز لك وسامع صوتك ... لحمتك عندى وأجلك جاى على أيدى ... أنا مستنيك ياأزرق ياللى محدش عرف يصطادك غيرى ..»

كان القرش يطلق صيحاته فى وجه الريح التى حملت لنا أصوات قفزات تعرفها آذاننا جيدا ، قفزات منتظمة دقت لها قلوبنا فى فرح غامر ... وبدت لنا أسراب سمك القرش على البعد السحيق وكأنها أسطول منظم يستعد لملاقاتنا ... ومع هبوب الرياح كانت السحب تتكاثف من فوقنا ، واذا الضوء ينحبس ويكاد الظلام أن يسود ، واذا الأمواج تعلو فيملأ الفضاء أنين السفينة المحطمة ... واندفع القرش الى الداخل وعاد صائحا بصوت مرتجف :

«القرش يحب اللون الأبيض والريحة الجامدة»! ...

ونفذت الى صدورنا رائحة شديدة النفاذ قبل أن نرى قطعة اللحم الهائلة فى يد القرش فيسيل لعابنا ... جلس القرش فوق الأرض وجذب اليه السنارة ، وتحولت ساقاه الى ذراعين وقدماه الى كفين فبدا وكأنه كائن غريب بأربع أذرع وأربع أيد ... رأيناه فى الضوء الكابى كشبح أسطورى لجنى من ساكنى الأعماق ، وصدرت عنه همهمات سمعناها :

«أنا كنت عارف ... أنا كنت عارف وقلت لكم!» ..

وصاح أحدنا بصوت متشنج وهو يشير الى مياه البحر :

«القرش وصل!» ..

والتفتنا نحو أسراب السمك التى راحت تتقافز فوق سطح المياه

وأفواهها فاغرة ... وكلما علا الموج تمايل الحطام بنا ولعقت المياه جدران السفينة الممزقة ... وأصبحنا فى انتظار كلمة منه ... كانت السنارة قد اختفت داخل قطعة اللحم وأصابع القرش تعمل بسرعة ودراية ، ومالبث أن نهض وهو يحمل السنارة فى يده ويفحص السلك ويخلصه من اسطوانة الونش :

«مفيش ونش . فيه رجاله؟!»

وبرقت عيناه بريقا مخيفا ، ثم قال فى ثبات :

«عاوز البلطة .. واللى فيه حيل منكم يقرب منى!!» ..

وتدافعنا جميعا نحو القرش وجاءته البلطة مشرعة ... واذا السلك بين أيدينا قد استماتت عليه أصابعنا . التصقنا والتحمنا وصيحات القرش تنظمنا ... وبدأ الاحمرار يغزو وجوهنا ، وتسمرت على السطح أقدامنا ، وبرزت عضلات أجسادنا ، ونبعت على الجلد قطرات عرق ... واذا الدماء تزغرد فى عروقنا ونحن نرقبه عند حافة السياج والسنارة تتلاعب فى الهواء وأسماك القرش تدور حول السفينة ورفع القرش ذراعه فى الهواء بالسنارة ، وقبل أن يهم باطلاقها علا فى الجو نواح رجل :

«ياقرش ... ياقرش!» ..

والتفت القرش فاذا الرجل ينوح بصوت ممزق :

«علمنا ياقرش .. علمنا ازاى نصطاد!» ....

وساد الصمت الا من صفير الرياح ولمعت فى عينى القرش نظرة ، وافترت شفتاه عن ابتسامة توارت عنا وهو يواجه البحر وحده ... ودارت السنارة فوق رأسه دورات أخذت تشتد وتسرع حتى شق صفير السنارة آذاننا ... وعندما أطلقها من يده شقت الهواء كالسهم مبتعدة ، ومالبثت أن هوت الى المياه فى دوى ملأ البحر . ساعتها استدار القرش نحونا وصرخ بكل صوته :

«الجعان لازم ايده تموت على السلك ... والعطشان لازم يفهم أن دم القرش يروى مراكب ... واللى عايز يعيش حتما حايشم ريحة البر قريبه!!»

— ٧ —

... واذا الزمن حبل طويل من الانتظار ... واذا الحياة تمضى كحلم فلا جوع ولاعطش ... ويشتد هبوب الرياح وارتفاع الأمواج وتلاعب أسماك القرش من حولنا ، وتموت أصابعنا قابضة على السلك وتتسمر أقدامنا على سطح السفينة ، واذا رأس القرش عند السياج الخلفى مشرع كصارى سفينة يريد اختراق السحب ... واذا جذبه تنفضنا جميعا فترتج أبدانا وتتبدد أفكارنا فنصحو على صيحة القرش العالية :

«ياأزرق يالئيم!»

وجذبنا السلك جذبة ارتجت لها أجسادنا وسقط بعضنا فوق الأرض وتمايلت أجسادنا وترنحت لولا كفا القرش وذراعاه وصرخاته :

«اجمدوا يارجاله ... السنارة غمزت وغلبنا الأزرق ملك البحر!»

واستقامت أجسادنا وازداد تشبثنا بالسلك وارتجف صوت أحدنا صائحا بفرح غامر .

«غمزت!»

وقال آخر :

«القرش الأزرق!»

وصرخ القرش :

«اثبتوا النهارده يومه وحاتشوفوا دلوقت لونه بيضوى فى العتمة!»

وازداد تكاثف السحب وبرق الضوء فى السماء وجاءنا صوت الرعد شديد البعد ... وأفسحت السحب مكانا على حافة الشمس فانصب من

بينها الضوء فى بريق يخطف البصر فوق سطح البحر المعتم ... واندفع من جوف المياه رأس سمكة سبح فى الهواء دورة ثم عاد ليغطس وسط الموج ساحبا خلفه جسدا طويلا هائلا متناسقا ينتهى بذيل كالتاج ... وصرخنا فى صوت واحد :

«الأزرق!»

وكانت قلوبنا تدق بعنف ولون السمكة الأزرق يصبغ فى عيوننا كل شىء!!

ولو أن ملاكا هبط من السماء ليخبرنا أن ماحدث سوف يحدث لما صدقناه ، حتى ولو أقسم وتحولت مياه البحر بقسمه الى ثلوج ... بدا لنا الأمر وكأنه حلم بعيد عن التصديق ... كانت السمكة الزرقاء تقفز من المياه وقد انغرست السنارة فى فمها فراحت تجذب السلك فى عنف كاد يمزق أعضاءنا ، وكانت دماء السمكة تسيل فانتشرت فى الجو رائحة الدم الدافئة ... واذا أسراب السمك تندفع نحو الدم الذى غطى سطح البحر من خلفنا ، واختلطت أنفاسنا اللاهثة بصرخات القرش الذى كان يجذب السلك من المقدمة دون أن يبدو عليه التعب ... وبدأت لفات السلك تتكوم خلفنا والسمكة تقترب منا وقواها تزداد عنفا جذبة بعد أخرى ... وفتح لنا الموت فماً شديد الاتساع عندما تكاثرت أسراب السمك الجائعة وقد هيجتها رائحة الدم المراق فى مياه البحر ... نظرة واحدة الى طول السمكة وجسدها الهائل السابح فى الهواء حينا الغاطس فى المياه حينا كانت كفيلة ببث الرعب فى قلوبنا جميعا ، وكانت زرقتها تلمع فى الضوء المنصب عليها من بين السحب وكأنها أضيئت من الداخل بآلاف القناديل السحرية .

كانت مياه البحر قد اصطبغت من حولنا بلون الدم القانى عندما ارتطم رأس السمكة بمؤخرة السفينة ، وارتج الحطام بنا فصرخ القرش

بصوت ثاقب :

«البلطة!»

ثم راح يزعق دون أن تغادر عيناه رأس السمكة الهائل وهى تواجهه .

«أول ماتطلع على ضهر المركب كل الرجالة يبعدوا!»

وبدأت قوانا تهن!

«تقفوا كلكم عند السور وتبعدوا لحد ما أربط السلك كويس ونضمنه!»

وبدأنا جميعا نخور!

«الشدة دلوقت بألف شدة ، والخطوة الأخيرة بالمشوار كله!»

وارتفع ذيل السمكة فى الهواء ، واشتد جذبها حتى كادت أجسادنا أن تتمزق ...

«ومهما قلت لكم محدش يقرب منى ... الضربة من ديلها تجيب الأجل!»

وانفلت القرش عدوا حيث لفات السلك فحملها وانطلق نحو قاعدة الصارى المكسور وبدأ يعمل دون أن يكف عن الحديث الينا .

«ولو جرى لى حاجة محدش يخطى خطوة ... قتيل أحسن من اتنين!»

ثبت القرش طرف السلك فى قاعدة الصارى ... وبدأت قبضاتنا تتراخى ، وانبعث من حلق السمكة الدامى خوار مخيف ...

« الرجاله كلهم يرجعواة لورا!»

كان العرق يتصبب من وجوهنا وصدورنا وأذرعتنا ، وكانت أنفاسنا لاهثة متقطعة ، وتعلقت عيوننا بعينى السمكة ذات النظرات المخيفة ... وارتد رجل منا الى الخلف وقد أرعبته النظرات فاصطدم بالسياج وهوى رأسه

نحو المياه ودارت ساقاه فى الهواء وسقط جسده فى البحر ...

«أثبت مكانك يابحرى انت وهو ... أثبت مكانك!»

وأنقضت أسماك القرش عى الجسد الساقط واحتبست صرخة فزعة فى جوف الموج ، وهدر صوت القرش فوق رءوسنا :

«عينه ترعب حيتان ، ولونه يخطف القلب!»

ودبت فى عروقنا النار فاذا نحن ننقض على السلك فى غيظ ، واذا رأس السمكة يتقدم ، واذا جسدها الهائل ينزلق فوق السطح ممددا بطول المؤخرة ، وماتت أيدينا عى السلك حتى شدة القرش من خلفنا الى قاعدة الصارى من جديد ... كان رأس السمكة كله كجبهة عالية تنحدر من أعلى لتصطدم بجدارين من العظم يظللان عينى وحش شديدتى اللمعان ، وهرول البعض لمساعدة القرش وتقهقر الباقون نحو السياج لاهثى الأنفاس ... كان الدم يسيل فى خيط غليظ من الفم منحدرا فوق السطح حتى يصب فى المياه وكانت السمكة هادئة شديدة الهدوء عندما تقدم منها القرش وقد تدلت البلطة فى يمناه وهو يقول :

«أنا كنت عارف أن يومك جاى ... وكنت عارف أنى حاغلبك ياللى لحمك كله من جتت الضعيف ... ياجبار!»

كان الضوء ينبثق من بين السحب وقد اتسعت دائرته ... وبدأ وجه القرش مبتسما وعلى شفتيه ابتسامة غريبة ، ومن عينيه كان يشع ذلك البريق الأخاذ ... وكان القرش يحدث السمكة الملقاه تحت قدميه!

«التار بيننا بايت من سنين وسنين ... واللى يصبر عليك يجيب أجلك!»

وتقهقر القرش خطوة الى الوراء ورفع ذراعه بالبلطة فى هدوء وبطء وقال رجل فى صوت متوسل :

«نساعدك ياقرش!»

ولم يحول القرش رأسه عن السمكة وهو يقول :
«مايقدرش عليه غيرى ... مش كل السمك!»
«علمنا!!»
انتفضت السمكة انتفاضة دفعت بالقرش خطوتين الى الوراء ، وتدلت البلطة فى يده وأصبحت كأنها امتداد لذراعه .. وطال الصمت لثوان قبل أن ينطلق القرش :

«ياما قلت لكم وما صدقتوش!»
وسرعان ما انطلقت أصواتنا فى عراك :
«نتعلم دلوقت ياقرش!»
«ما تروحلهاش وحدك ياباشريس!»
«انت بتقول انه غدار!»
«الضربة من ديله تجيب الاجل ... انت قلت كده!»
«والنهشة تطلع بالروح»
«وريحة الدم تهيجه!»
«علمنا ...»
«علمنا ياقرش ... علمنا!!»
وخفتت أصواتنا عندما بدأ القرش يتقدم من السمكة خطوة بعد أخرى ... ران الصمت تماما وفاحت فى الجو رائحة الدماء النازفة ... وانتفض القرش كالوحش وهوى بالبلطة نحو رأس السمكة صارخا :
«يالئيم ...»
ماكاد الذراع يهوى حتى انتفضت السمكة انتفاضة هائلة وسبح ذيلها فى الهواء فى قوس وارتطم جسدها بالقرش فانكفأ على وجهه وهوى نصل البلطة لينغرس فى السطح! ..

وندت الصيحات عنا وصرخنا مذعورين ، غير أن القرش كان قد

أكمل دورة جسده ـــ كالطوق تماما ـــ واختطف البلطة وانتصب واقفا من جديد ... كانت أنفاسه متهدجة وصدره يعلو ويهبط بسرعة ، وبرقت عيناه بريقا عجيبا ... وتقلصت أصابعه فوق ذراع البلطة ... وصرخ القرش صرخة أخرى وهوت البلطة فوق الرأس تماما ... واذا الذيل يطير ساحبا خلفه الجسد كله ... واذا الرأس يعلو فى مواجهة القرش بفم هائل ملأه الدم وصبغ به اللحم الأبيض ، وترفع البلطة بصرخة ثالثة ثم تهوى فوق السلك تماما ... وهوت قلوبنا والسمكة حرة فوق السطح ، يبرز ساق السنارة من فمها كرمح ، وارتمى الجسد العملاق فوق السطح ثم انتفض نحو القرش من جديد ... والتحم الجسدان وخارت السمكة وازداد تدفق الدم من فمها ، ودارت البلطة فى الهواء دورة كاملة ، ثم انغرست فى الجبهة بين العينين تماما ... وانفتح فم السمكة كالبئر الملىء بالدماء ، وانتفض الجسدان فى الهواء ... وصرخ القرش صرخة مروعة ، وصبغت الدماء جسديهما ، والبلطة ترتفع لتهوى ، ثم ترتفع لتهوى ... واذا الذيل يرتجف ارتجافة شديدة ، ثم يهوى فوق السطح بلا حراك!...

وكانت البلطة مغروسة فى العنق ... تحت الفم تماما!

## ـــ ٨ ـــ

اخترق آذاننا صوت نقر منتظم بدأ يشمل الدنيا بأسرها ... وانتبهنا لنجد أنفنسا محملقين فى المنظر المروع أمامنا ... وكانت أسماك القرش قد اختفت من البحر ، وخفت الريح وأصبح سطح البحر شديد الصفاء ... وبللت أجسادنا قطرات المطر الذى راح ينهمر فى سيل كان يغسل الدماء التى صبغت السطح ... وأنّت السفينة تحت دفع الرياح أنين من يتحرك فى فراشه بعد مرض طويل ... ورفعنا رءوسنا نحو السماء وفتحنا أفواهنا لنستقبل المطر ... ومالبثت الغيوم أن انقشعت ، وتلألأت فى السماء شمس شديدة الضياء ... وذاب الأسن فى حفيف المياه ، وشهق

أحدنا وهو يصيح :

«الشط ... الأرض بانت!!»

واذا السفينة ترسو بنا على شاطىء لم نره من قبل!

يناير ١٩٦٧

# الغضب

## ـ ١ ـ

هكذا حدث الأمر ...

كل شيء يبدو لى الآن وكأنه حلم أو كابوس ... ولست أدرى كيف أبدأ أو من أين ؟ ... فأنا لاأذكر شيئا قبل وصولى الى السفينة ، لست أذكر أين كنت ولا من أين جئت ، لاأذكر على الاطلاق رغم محاولاتى العديدة . كل ماأذكره أنى وجدت نفسى على ظهر السفينة ... كنت أعلم أن لايد لى فى الموضوع أو رأى ، كان على أن أذهب ، فذهبت !!

وهكذا وجدت نفسى أتطلع الى السفينة فى سعادة ، فقد بدت لى منذ الوهلة الأولى جميلة رائعة الجمال ، كانت كعروس ستنزف بعد لحظات ، الأنوار تغمرها من الخارج ، أنوار زاهية ملونة بهيجة تشرح الصدر ... وغمرتنى السعادة وأنا أسرع نحوها وأتسلق سلمها الأنيق قافزا درجاته فى نشوة وقلبى يركض بين ضلوعى ... هأنذا أخيرا أصل اليها ليستقبلنى عند قمة السلم عملاق شمعى الوجه ، ميت النظرات ، يفتر فمه عن ابتسامة باهتة ، ثم انحنى لى الرجل فى احترام وهو يقول فى اقتضاب :

« كنا ننتظرك !»

مددت يدى لأصافحه ... لكنه ظل منحنيا وكأنه لايرى يدى الممدودة ... فقلت وأنا أسحب يدى الى جانبى :

« هل تأخرت ؟!»

« كلا ... انك لاتستطيع أن تتأخر ، ولابد أن تأتى فى موعدك تماما ، اننا سنرحل بعد لحظات ، وهذا هو موعدك بالضبط ، ونحن عادة لانتأخر ولاننتظر أحدا !»

ـ ٢ ـ

أسلمنى العملاق إلى عملاق آخر عند باب يؤدى الى الداخل ... ولم أستطع رغم وجه الرجل الشمعى وبرودة لهجته الا الابتسام عندما انحنى لى العملاق الآخر بنفس الطريقة ، وابتسم لى نفس الابتسامة ، ووجه الى نفس النظرات الزجاجية ، ثم قال وهو يشير الى ممر جانبى :

« هذا هو الطريق الى كابينتك !»

تبعته وأنا أغمغم :

« ألن يقابلنى أحد ؟ ... أين القُبطان أو ... أو ... أوكبير الضباط أو ... أو الضابط الأول ؟! »

توقفت الكلمات فى حلقى عندما التفت الرجل نحوى بغتة وكأنه لدغ ، كان واضحا أنه غاضب أو ثائر ، لكن وجهه ظل كما هو ، ونظراته لم تتغير ... وسمعته يقول بصوت قاطع كحد الموسى :

« كلا ... انهم مشغولون جميعا فهذا وقت الرحيل كما تعلم !!»

الحقيقة ، أن سعادتى كانت تفوق كل احساس آخر ، ذلك أنى فى تلك اللحظات لم ألق بالا إلى لهجة الرجل ، فلم يكن يهمنى من الأمر كله شىء ... يكفينى أنى جئت ، كل شىء حولى جميل وأنيق ورائع ، الممرات الخافتة الضوء ، الجدران اللامعة النظيفة ، درجات السلم العريض الفخم ، الأرض المكسوة بالأبسطة النادرة ... وكابينتى عند طرف ممر قصير ، فتحها

العملاق وهو يدمدم :

« اذا احتجت لشيء فليس عليك الا أن تطلب !»

دلفت الى الكابينة وأصبحت وحدى ... درت بعينى فيما حولى فراعنى كل شيء ، الفراش الوثير ، الستائر المسدلة ، الأضواء التى تنبع من الهواء نفسه ، الهدوء و ... وتلك الرائحة الجميلة التى راحت تدغدغ حواسى جميعا ... رائحة بلا مصدر ، فليس ثمة زهور فى المكان أو بخور ، هى رائحة الجدران والفراش والأثاث ...

وبلغت سعادتى قمتها !

من منكم لايشعر بالسعادة لو كان مكانى ؟!

لقد جئتها أخيرا ... ولابد أنها مليئة بالخير والسعادة !

وتسرب الهدوء من الهواء الى أعصابى فألقيت بنفسى فوق الفراش ورحت أتمرغ فوقه ، ودفنت رأسى فى الوسائد وملأت صدرى برائحتها العطرة ... ياله من قبطان رائع عظيم هذا الذى حول سفينته الى جنة ، لابد أن أذكر له هذا ، سأشكره ، سأصلى له ان أراد فليس هناك أروع مما أرى ... الخدر يسرى فى جسدى وذهنى ، ولذة مريحة تتسلل الى نفسى ، وثقلت جفونى ، فتركت نفسى للأحلام ... ونمت !!

— ٣ —

عندما استيقظت كانت السفينة قد أبحرت ... عرفت هذا من صوت الأمواج فى الخارج ، أمواج كانت ترتطم بجوانبها فى رفق ، والمياه تحتك بجدرانها فى حفيف منغم ، تثاءبت وأنا أتمطى ، ودرت ببصرى فى الكابينة وكان كل شيء على ماهو عليه ، حتى الرائحة الجميلة كانت لاتزال تسبح فى المكان متجددة ، نظرت فى ساعتى ، وقفزت من فراشى فى فزع .

كيف نمت كل هذا الوقت ؟!

لأدرى ... كانت الساعة تشير الى السابعة مساء ، وهذا هو « الجانج » فى الخارج يدق معلنا موعد العشاء ... لابد أنهم سألوا عنى ، لابد أنهم طلبونى ، لكن أحدا بالتأكيد لم يوقظنى ... فكيف تركونى نائما كل هذا الوقت ؟!

ودارت الأفكار فى ذهنى سريعة وأنا أستعد للعشاء ، لابد أن القبطان سيغضب ، ولابد أنه سيتساءل عن سر هذا النوم و ... ولكنى فى النهاية هززت كتفى فى لامبالاة وأنا أغادر الكابينة ، جذبت الباب ورائى وأغلقته برفق ، بحثت عن المفتاح فى ثقبه فلم أجده ، انتابتنى الحيرة للحظة لكنى سمعت من خلفى صوتا يقول :

« لابد أنك تبحث عن المفتاح !...»

رأيت فى الممر الخافت الضوء عملاقا آخر ذا وجه لايقل شمعية عن وجهى العملاقين الأولين ..

« اذهب ولاتخف ، فان أحدا هنا لايجرؤ على السرقة ... فهو حازم جدا !!»

قال الرجل هذا وهو يبتسم بشفتيه دون باقى ملامحه ؛ ثم أشار باصبعه الى أعلى وهو يستطرد :

« لقد حرم السرقة وهدد بعقوبات صارمة لمن تمتد يده الى أشياء الغير !»

« تقصد القبطان ... أليس كذلك ؟!»

« نعم ... انه قاس جدا مع من يعصيه !»

قال الرجل هذا وهو يضحك ضحكة ناعمة جوفاء ، لكنه استمر فى حديثه :

« أنا المخصص لهذا الجناح من السفينة ، ولقد قالوا له أنك جئت الينا ... غير أنى لم أرك فقد وجدتك نائما منذ وصولك ... لابأس ، ان هذا يحدث عادة لكل قادم جديد ، هل أنت ذاهب للعشاء ؟!»

« نعم ... »

قلتها كالحالم فقد انتابتنى فى تلك اللحظة أحاسيس ومشاعر غريبة ، غير أن أهم ماأحسست به ، هو شعورى بالغوص فى لجة غريبة ... كان هذا مجرد شعور لكنه طغى على كل حواسى ، ووجدت صوت الرجل يأتينى بعد ذلك وكأنه يصدر من بعد آلاف الأميال ، لكن الغريب فى الأمر أنى كنت أعى كل ماكان يقوله جيدا ...

« عليك أن تدور الى اليمين عند نهاية الممر ، ثم تهبط بعد ذلك السلم الكبير ، وستجد نفسك أمامها ، أنها فى طريق كل من يريد أن يأكل ، الطعام عندنا وفير !»

ثم ارتد الى ادراكى وانتفضت منتزعا ذلك الاحساس الغامض ، حدث هذا فى نفس اللحظة التى تركت فيها الرجل ومضيت ... انى لم أعرف اسمه ، لم يقدم لى نفسه ولم أقدم له نفسى ... أليس هذا غريبا ؟! ... أليست هذه هى عادة البحارة كلما التقى منهم اثنان على ظهر سفينة لأول مرة ؟!

كان ذهنى مشغولا وأنا أهبط السلم العريض الفاخر ... كنت أفكر فيما قاله لى الرجل ، فى لهجته الصارمة ، وصوته البارد المثلج ... و ... ومررت فى طريقى باثنين عند نهاية السلم ، كان أحدهما مرتكزا على حافة السياج ، بينما تسمر أمامه الآخر وهو يقول كلاما كثيرا لم أفهمه رغم سماعى له :

« انه لن يهبط كالعادة ... ان أحدا منا لن يراه أبدا !»

وانتبه الرجلان لمرورى فانحبس بينهما الحديث ، ألقيت عليهما تحية المساء فدارت عيونهما فى محاجرها ، ثم استقرت على وجهى ، وتمتمت شفاههما بكلمات لم أسمعها فقد كنت أبتعد بسرعة ، وقد بدأ الجوع يعتصر أمعائى الخاوية !

بعد خطوات كنت أقف فى مدخل غرفة الطعام ، القاعة هائلة تتوسطها مائدة مستطيلة رصت فوقها الأطباق ، ورائحة الطعام تحتفظ بشذى العطر الذى يفوح من كل شيء فى غرفتى ... وكانوا جميعا جالسين فى أماكنهم ... ليس سوى مكان القبطان — فى صدر المائدة — ومكانى أنا — عند طرفها الأيسر — هما الخاليين !!

شددت خطواتى وابتسمت وأنا أمضى نحو مكانى لاجذب مقعدى وأجلس عليه وأقول بصوت مرح النبرات :

« مساء الخير !»

ونمّت عن الجميع همهمات مختلفة ، كانوا منكبين على أطباقهم يأكلون بشراهة غريبة ، لاأحد منهم ينظر الى الآخر أو يحدثه . ولم ينظر أحدهم نحوى ... لا كلمة ترحيب ولا ابتسامة مجاملة ، ومن جديد عاودنى ذلك الاحساس بالغوص فى لجة غريبة من الحيرة ، وقد زاد من احساسى هذا أن مال على رجل لاأدرى من أين نبت ولاكيف زرع فى مكانه هذا خلفى ... كان يميل على ويهمس فى أذنى بصوت كأنه نحيب :

« ماذا تريد أن تأكل ؟!»

« أى شيء ... أليست لديكم ... ...»

صاح الضابط الجالس عند الطرف الآخر للمائدة دون أن يرفع رأسه عن طبقه :

« أطلب ماتريد ... هكذا أمره !»

كنت أعرف أنه الضابط الأول ، فمكانه مجاور للمقعد الشاغر فى صدر المائدة ... نظرت إليه فوجدته مستطيل الوجه ، شاحب الجلد ، أزرق العينين ، ناعم المظهر ... ووجدت نفسى أقول فى حيرة :

« سيدى ... أعتقد أنك ... ...»

قاطعنى مرة أخرى وقد بدا عليه التأفف الشديد :

« نعم نعم ، أنا الضابط الأول ، وهذا هو الضابط الثانى ، والطبيب . والضابط الثالث ، والذى بجوارك هو ضابط الطعام .. ثم ، ثم أظنك تعرف مركزك هنا!!»

« وأين القبطا ... ... ... »

قاطعنى بصوت صارخ :

« هذا هو السؤال المعتاد ، واليك الرد المعتاد ... لقد ترك لى كل شيء ، أنا هنا أقوم بكل مهامه !»

« و ... ولماذا لا ... لماذا لايأكل معنا اليوم ؟!»

فجأة حدث شيء غريب .

سقطت كل الملاعق ، وكفت الأيدى عن الحركة ، والأفواه عن المضغ ، وتلاقت العيون بسرعة ثم تحولت كلها نحوى وكأنها تريد أن تحاصرنى ، وتحشرج صوت أحدهم وهو يزمجر فى فزع :

« انه يسأل ... انه يسأل !!»

وقال آخر :

« لن ينفعنا هذا الرجل ، لن ينفعنا ... لقد قلت هذا من قبل !»

وناح صوت الضابط الأول مهددا :

« كيف تجرؤ ؟! ... كيف تتفوه بمثل هذا الكلام ؟! »

وغمغم الطبيب وكان يجلس قبالتى :

« انه لايزال صغيرا وحديث العهد بنا ... انه لايعرف شيئا بعد !»

وتوقفت أذناى عند هذا الصوت ، تماما كما توقفت عيناى فى عينى الطبيب ... ولأول مرة منذ وطئت قدماى هذه السفينة ، رأيت عينين تكسوهما طبقة ندية ، وفى أعماق انسانيهما شيء ... لم يكن جلده مشدودا ولاتحمل ملامحه تلك القسمات الصخرية ، وعندما ابتسم

أحسست بابتسامته تصل الى قلبى ، لم تكن كابتسامات الآخرين الذين كانت شفاههم تتمدد فى اتجاهين متضادين لااكثر ولاأقل . وتحرك الضابط الأول فقبض على عنق الفوطة ثم مسح شفتيه وهو يتمتم :

« حقا ... انه لايعرف شيئا ... انه لم يعرف بعد !»

كانت كلماته كأنها بصقات يلقيها فى وجهى ... غزانى الخوف قاهرا ومدمرا ، لكنه كان خوفا مشوبا بالضيق ، بشىء كالغضب دفعنى لأن أقول :

« ماالذى حدث ؟ ... ماذا فعلت ؟! ... كل ماهناك انى سألت عنه ، أليس هو قبطان هذه السفينة ؟ ... أليس من حقى أن أسال عن الربان ؟! »

« لا ... »

صرخها الضابط الأول بصوت كأنه فرقعة سوط ...

« ليس من حقك الا أن تطيع الأوامر ، أنه قاس جدا مع من يعصيه ... وهذه أوامره ، وعليك أن تعرف كيف نعيش ، وأن تؤمن بكل هذا دون سؤال ... والا ، فلن يكون أمامى سوى تنفيذ تعليماته وأحكامه ، اننى مسئول عنكم أمامه ، وهو لايرى أحدا غيرى ، ولايغادر كابينته مهما حدث ، لانه ليس فى حاجة الى هذا !!»

تبلور خوفى واشتعل فى صدرى وتحول الى غضب جامح ، كان كل مايقوله ذلك الرجل غريبا ، لم يكن يتحدث ، كان يخنقنى بكلماته ويسد على صدرى منافذ الهواء ، ووجدت نفسى أنتفض قائلا :

« ان كان هو لايريدنى فأنا أريده ، ولابد لى أن أراه ... بل ... بل انى صاعد اليه الآن .. الآن !!»

أزحت مقعدى ونهضت من مكانى ، واصطدمت فى اندفاعى بالجالس على يسارى ، ومضيت الى الخارج وأنا أحس بوقع نظراتهم على

ظهرى ، وكان آخر ماسمعته وأنا أغادر القاعة ، هو صوت ناعم بارد زحف ورائى كالثعبان !

« اتركوه فلسوف يندم ! »

اندفعت الى السلم أقفز درجاته ... كنت مهتاجا مغيظا ، ومررت فى طريقى بالاثنين اللذين كانا يتحدثان وأنا فى طريقى الى قاعة الطعام ... كانا يقفان فى نفس المكان ، وبنفس الوضع الذى شاهدتهما عليه منذ دقائق وكأنهما تمثالان من شمع متجمد ... ومالبثت أن انثنيت الى ممر جانبى ، واندفعت منه الى ممر معتم شديد الظلام ، والمرئيات لاتكاد تستقر عليها عيناى ... ودهمنى شعور حاد بالانقباض وأنا اتجه نحو سلم ضيق رحت أقفز درجاته مسرعا ، كنت موقنا أن هذا السلم بالذات يؤدى الى كابينة القبطان ، كنت موقنا أشد اليقين ولست أدرى لماذا ... غير أنى ماكدت أصعد بضع درجات حتى اصطدمت عيناى بقدمين هائلتين تقفان عند قمة السلم . فتوقفت !

تسلقت عيناى الحذاء الضخم ثم الساقين ثم الجسد العملاق حتى وصلت الى الوجه الذى لم أميز من ملامحه شيئا ... كان المكان مصبوغا بالضباب ، ورأس الرجل شاهقة تكاد تختفى فى السقف ، وانتابتنى رجفة شملت جسدى كله ، وخرج صوتى مبحوحا :

« هل تسمح ؟! »

« ماذا تريد ؟! »

جاءنى الصوت من أعلى كالرعد ...

« أريد مقابلته ... أريد أن أراه !»

« ماذا ؟!»

قالها الصوت فى استنكار ساخر ...

« أريد أن أراه !»

« هل أنت مجنون ؟!»

« أليس هذا من حقى ؟ ... أنى ..... »

« كلا ... »

« أوسع لى الطريق ... انى آمرك فأنا ..... »

وأطلق العملاق ضحكة التفت حول عنقى ، وغزانى الخوف من جديد فشل تفكيرى ...

« اذا لم تدعنى أمر فلسوف ، سوف أصرخ ... سوف أناديه ! »

« لن يجيبك ولو صرخت طول عمرك !»

« ماذا تعنى ... ومن أنت حتى تقول لى .... »

« اذهب !»

« كيف تحدثنى بهذ اللهجة ، كيف تأمرنى ....... »

« قلت لك أذهب !»

كان هذا آخر ماسمعته فى ذلك الوقت ، صوت كالزئير وحذاء ضخم يرتد الى الخلف ثم يرتفع فى الهواء مرتطما بوجهى ... ولاشيء بعد هذا ... لاشيء على الاطلاق !!

## ـ ٥ ـ

عندما أفقت كنت أرقد فى الفراش ... ارتدت الحياة الى أطرافى أولا ، ثم الى أذنى ... ودون أن أفتح عينى استطعت أن أميز كل من فى الغرفة ... كانت هناك أصوات عديدة ميزت منها صوت الطبيب والضابط الأول ... وعرفت أن الطبيب هو الذى كان يمسك رسغى بأصابعه .

« هذا حسن ... سيفيق بعد دقائق ليصبح واحدا منا . ولن يفتح فمه بعد ذلك !» .

« انه من النوع العنيد !» .

« ماذا تقصد ؟!»

تنهد الطبيب ثم قال :

« لاشيء ... ومن الخير أن نكف عن الكلام حتى لانزعجه !»

« أتظن أنه سوف يتمرد مرة أخرى ؟! »

ران الصمت ونفذت الرائحة العطرة الى صدرى ... وعاد صوت الضابط الأول يزحف فى الجو :

« أن فعل فالأوامر صريحة والتعليمات لاتقبل المناقشة ، وما علينا الا أن ننفذ ما أمرنا به !» .

« لكنه لن يخضع !»

« اذن فلسوف نلقى به الى الحيتان ... ان حيتان البحر جائعة !! »

بعثت الكلمات الرعب فى قلبى ... ماالذى سيفعلونه بى ؟ ... وما الذى يجب على أن أفعله ؟... وكيف أخضع لهم ؟ ... هل أطيع وأفعل مثلهم ؟! ... انى لست مخلدا فى هذه السفينة ولسوف أغادرها ذات يوم لاأعرفه ، هى أيام سوف تمضى على أى حال فلماذا لاأقضيها فى هدوء ؟!

وجاء صوت من آخر الغرفة :

« ترى ما اسمه ؟»

« ليس مهما أن يكون له الآن اسم ، ليس مهما على الاطلاق »

وقال الطبيب :

« لقد عاد الى حالته الطبيعية !»

وكأنما كانت جملته هذه ايذانا لى بأن أفتح عينى ، فقد وجدت نفسى أفتحهما مرة واحدة ... كان الضوء خافتا لاأتبين فيه سوى أشباح ، فصرخت فى جزع :

« أضيئوا الأنوار »

« أن النور مضاء !»

« أريد مزيدا من الضوء ، مزيدا من النور !»

« الضوء هنا لايزيد عن هذا ، هذه حدوده التى رسمت له ، هذه تعليماته !»

وانتفضت فى صدرى من جديد تلك البذرة الغاضبة ، انتفضت وسط ألوف المشاعر المتضاربة والاحاسيس المتباينة ... كنت أرتجف عندما وضع الطبيب يده فوق كتفى ليعيدنى الى الفراش فى رفق قائلا :

« لاتجهد نفسك ، لابد أن ترتاح !» .

« انت الطبيب ، أليس كذلك ؟!»

« نعم ... »

« هل كتبت فى تقريرك حقيقة ماحدث لى ؟!»

« تقريرى ... أى تقرير ؟»

غمغم الباقون من حولى فصحت فى الطبيب :

« لقد اعتدى على ذلك العملاق الذى ......»

وجاءنى فحيح الضابط الأول كالسم القاتل :

« ألا تزال عنيدا !؟»

« سأحاول رؤيته مرة أخرى ... سوف أراه حتما !»

« لن تراه ... فهو لايرى سواى ولايراه سواى ، لقد خول لى جميع السلطات !»

« وماذا يفعل هو اذن ؟!»

صرخ أحد الأشباح من آخر الغرفة :

« اخرس ... اياك أن تفوه بهذا السؤال مرة أخرى ، فهو لايسأل !!»

ماكدت أفتح فمى حتى امتدت يد الطبيب الى رسغى من جديد لتضغط أصابعه على الرسغ برفق ... وتحرك الضابط الأول فى

مكانه ، ثم نظر الى وهو يقول :

« خير لك أن ترتاح حتى تشفى ، ولاتسأل كثيرا ، ولسوف تجد ماتريد من طعام أو شراب ، و ... وكل ماتريد ، فقط ... افعل ماتؤمر به ، هذه هى حدودك !!»

واستدار الرجل ومعه الباقون ، ثم غادروا الكابينة فى صمت . وتركونى مع الطبيب ... وما أن أغلق الباب خلفهم ، حتى أستدرت نحوه صارخا :

« ماالذى يجرى هنا ؟! »

ضغط على يدى بقوة غريبة حتى خلت أن عظامى ستتحطم ، أومأ نحو الباب وبرقت عيناه محذرة وهو يقول بصوت هادىء :

« لاتسىء الظن الى هذا الحد ، ألا يكفيك أن تجد هنا ماتريد ؟! »

وساد بيننا الصمت للحظات كانت عيناه أثناءها لاتفارقان الباب ... ثم قال بنفس النبرات الهادئة :

« انه يفرض نظاما رائعا!»

وهمست بصوت خفيض :

« أريد أن أعرف ... لماذا ... ...»

« أليس أقصى مايتمناه الانسان أن يجد مايأكله وما يشربه ؟!»

« لكنى أريد أن ... ... »

« دع الأمور تجرى كما يحلو له مادامت هذه هى رغبته ، وما دمت تحصل على ماتريد !»

« اننى ... ....»

« هكذا تصبح حياتك رائعة ... وبلا مشاكل !»

وكان لابد أن أنتظر لحظات صمت أخرى ... التفت الى الطبيب بعدها ثم ابتسم وهو يقول بنفس الصوت العالى الواضح :

« انه عادل جدا ، لكنه بقدر عدله يصبح قاسيا اذا ما غصيه أحد ... لقد أمر بالقاء الكثيرين لحيتان البحر الجائعة ، وأنت لست منهم ... لن تكون منهم أبدا !»

همست وأنا اقترب من أذنه :

« أريد أن أراك ... أريد أن أتحدث اليك ، الى أى أحد !!»

سبحت ملامحه فى ابتسامة لم تبن ، وأومأ برأسه موافقا ثم نهض قائلا :

« سأتركك الآن لترتاح ، وعليك ألا تنام كثيرا فلن يفيدك النوم بعد الآن !»

## — ٦ —

غادرنى سابحا فى هواء الكابينة ، وساد السكون ، سكون عميق كانت تتخلله أصوات الأمواج فى الخارج ، وتذكرت البحر ، تذكرت أنى لم أر البحر منذ صعدت الى السفينة ، وتذكرت أنى لم أفتح النافذة منذ جئت الى الكابينة ... تحاملت على نفسى وأنا أنهض من الفراش متجها نحو النافذة ، كنت أشعر بالاطمئنان لأول مرة منذ جئت ... بدا لى الأمر كحلم مزعج لابد أن أفيق منه ، وتذكرت يد الطبيب عندما ضغطت عظام رسغى محذرة ، كيف تتأتى له هذه القوة بالرغم من نحول جسده ؟!

زمجرت الأمواج فى الخارج وبدأت السفينة تترنح تحت ضرباتها وبدأت أتمايل فى وقفتى وسط الكابينة وقد بدأ الغثيان يصيبنى ، وامتدت يدى الى النافذة كى أفتحها فترنحت السفينة مرة أخرى تحت ضربات موجة تعالى صوتها فى الخارج كزئير وحش هائج ، وترنحت وكدت أسقط على الأرض ... وصفر الهواء وعوت الرياح وهبت العاصفة على غير انتظار ... أحسست انى اختنق ، كان لابد لى من هواء نقى ، مددت يدى من جديد الى النافذة فارتطمت بسطح أملس لاباب له ، بحثت عن القفل

فلم أجده ، حملقت فى الضوء الخافت فاذا النافذة موصدة ، واذا زجاجها كاذب لايشف عما خلفه ... وبدأت قواى تخور من جديد ، وأحسست بجسدى يتهاوى ، تذكرت رجل الصباح ووقعت عيناى على زر صغير رحت أضغط عليه بكل قواى ، فانفتح الباب وظهر الرجل :

« هل أستطيع أن أقدم لك أى شيء ؟!»

« افتح هذه النافذة .. انى فى حاجة الى الهواء ! »

« انها لاتفتح !!»

«ماذا .. لماذا !؟»

«انها لاتفتح !»

«كيف ... أليست نافذة ؟»

«أنها أوامره وتعليماته ... ان فتح النوافذ قد يغرق السفينة !»

« لكنى ... »

«لامجال للجدل ... انها لاتفتح وهذا هو كل شيء !»

«ان فى الخارج عاصفة !»

«أعلم ذلك !»

«البحر هائج ، والموج عال !»

«أعلم ذلك!»

«وهل تعلم كيف حدث هذا ؟... لقد غادرنا الميناء منذ ساعات قليلة وكان البحر .... »

«منذ ساعات ؟!»

ضحك الرجل دون أن تختلج فى وجهه عضلة ، أخذ يردد الجملة وهو يضحك من داخله ، ثم توقف عن الضحك وقال بتأفف وملل :

«لقد غادرنا الميناء منذ أربعة أيام ... اننا الآن فى المحيط !»

«أربعة أيا ... ... »

«كنت تهذى طوال هذا الوقت ... لقد كنت تهذى!»

«ولكن .. و .. »

«والعاصفة فى المحيط تهب بلا مقدمات ، دون انذار !؟»

«أربعة أيام ؟ ... أربعة أيام ؟!»

«وهم جميعا فى الخارج يقاومون العاصفة ... انهم فى الخارج جميعا !»

وقبل أن أفيق اقتحم الطبيب الغرفة وعلى وجهه ألف انفعال ، وما أن وقعت عيناه على الرجل حتى ارتدت ملامحه الى الجمود ونظر الى مبتسما وقال :

«لقد غادرت فراشك اذن!»

نظرة منه الى الرجل تقهقر هذا بعدها منسحبا فى هدوء ثم اغلق الباب ، واقترب منى الطبيب :

«هل أنت مستعد ؟!»

«لا ..»

قلتها بصوت باتر لم أعهده فى نفسى ، كنت مغيظا غاضبا ودمائى تغلى ، استدرت مشيحا عنه فى عناد ، لكنه اقترب منى وهمس فى أذنى :

«انهم الآن مشغولون بالعاصفة ، هذه فرصتنا !»

التفت نحوه فأحسست وكأن الظلام يكتنف الدنيا كلها .

«لست أريد سوى نسمة هواء!»

«لن تحصل عليها وحدك!»

«هواء السفينة فاسدا!»

«ليس لدينا وقت نضيعه فى الكلام !»

«هل حقنتنى بمخدر ؟!»

«الهواء يزداد فسادا كلما تأخرنا!»

«هل حقنتنى بمخدر ؟!»

«لماذا تسأل سؤالا كهذا ؟!»

كدت أبكى من الغيظ فحتى تلك اللحظة لم أكن استطيع أن أركز انتباهى على شىء معين ، لم أكن أدرى شيئا أو أعرف شيئا ، أريد أن أعرف ... وعدت الى الصراخ من جديد :

«قال لى ذلك الرجل انى ظللت أهذى لأربعة أيام!»

«هذا صحيح!»

«كيف .. كيف يمكن أن يحدث هذا؟!»

«هذا دائما مايحدث ، بل لابد أن يحدث!»

«لست أفهمك ... لست أفهم شيئا!»

احتدت نظرات الطبيب لأول مرة وهو يهمس فى صوت غاضب :

«لا وقت عندى لهذا الهراء ، هل تأتى معنا أم لا؟!»

«الى أين؟!»

«اليه!!»

«لن نستطيع!»

«ليس امامنا سوى هذا ، ان الهواء يزداد فسادا لحظة بعد أخرى ، ولن تمر أيام حتى نختنق جميعا!»

«سيقاومونا !»

«أعرف ، ان على بابه حراسا كثيرين!»

«سوف نهزم!»

«لو أردنا أن ننتصر فلسوف ننتصر !»

«وهل أقوى على هذا؟!»

«انك كالثور فى قوته!»

«ولكنى مريض!»

«لست مريضا».

«انى حائر» .

«انه اليأس» .

«لست أحمل سلاحا».

«عليك اذن أن تغضب ، وهذا يكفى!»

«أنذهب وحدنا؟!»

«الجميع معنا ... كل الغاضبين !»

«لن يأتى أحد منهم!»

«ليس لدى وقت بعد هذا ... أتأتى أم لا؟!»

اندفع الطبيب مغادرا الكابينة فدهمنى خوف قاهر ، ندت عنى صرخة مرتعبة فاندفعت وراءه دون تفكير ، تذكرت كل ماحدث لى وبحثت عن الغضب فى نفسى فلم أجده ، شىء واحد كان يدفعنى خلف الطبيب ... كنت أريد أن أرى الربان !

رحت أتخبط خلف الرجل داخل الممرات التى بدت معتمة ، كانت السفينة تترنح تحت ضربات الموج العاتى ، وكانت قدماى تترنحان فى الهواء بحثا عن أرض ، كانتا تتوهان طويلا ثم تجدان فى النهاية أرضا لا قرار لها ... وعندما دلفنا الى الممر الرئيسى لمحت فى نهايته أشباحا كانت تتزاحم بلا صوت ، اخترق الطبيب جمعهم فاستداروا جميعا اليه ، وجدت نفسى وسطهم ونحن نسبح من ممر الى سلم حتى أصبحنا أمام السلم الموصل الى كابينة الربان ... عرفت السلم فارتجفت أوصالى وعيناى تصعدان درجاته وتصطدمان بالحذاء المروّع ... وزمجر رجل فى وسط الجمع :

«هواء .. نحن فى حاجة الى الهواء ... سوف نختنق!»

ورعد العملاق من أعلى السلم بصوت تزلزل له كيانى :

«ماذا تريدون؟!»

وصاح فيه الطبيب بصوت ثابت :

«نريد أن نراه!»

«لن يراه أحدكم!»

«افسح الطريق ولسوف نذهب اليه!»

«من يقترب منكم فمصيره حيتان المحيط الجائعة!»

وصرخ أحد الرجال فجأة وهو يندفع نحو السلم :

«هواء ... نريد هواء!»

دفعنا الرجل بذراعيه وقفز السلم مسرعا ، غير أنه سرعان ما هوى متدحرجا مضرجا فى دمائه ، فاقدا وعيه ... سقط بين أقدامنا ساكنا لايتحرك ، وسقط قلبى بين ضلوعى ، أحسست وكأن جسدى من الخوف قد تحول الى خرق جمعتها يد غير مدربة ، وانتابتنى غيبوبة أيقظتنى منها صرخة أخرى وجسد آخر هوى بين قدمى ساكنا بلا حراك ، وترقرقت فى أعماقى دموع لم تنهمر ، حاولت البكاء لكن عينى لم تذرفا دمعة ، أحسست بالغيظ وصوت الطبيب يصل الى أذنى ممزقا بالغضب :

«ابتعد عن الطريق فأنا صاعد اليه !!»

قال الطبيب هذا ثم اختفى فى ظلام السلم ، هبطت بعينى الى حيث تكومت الجثتان ورحت أنتظر سقوط الجثة الثالثة ، بلا عاطفة ، بلا كراهية ، ولا حب ... انتابنى اليأس لكن انتظارى طال فلم يسقط الطبيب ، رفعت عينى الى السلم فرأيت الحذاء الغليظ يرتد الى الخلف ثم يندفع الى الأمام ليرتطم بوجه الطبيب فى ضربات قاتلة .. انه نفس الحذاء ، ونفس الطريقة ، الغيظ فى أعماقى يفور والدموع تتحجر والطبيب لازال متشبثا بمكانه لايسقط ، ثم تذكرت ماحدث لى فانتفض الغضب معربدا فى صدرى ، ودقت فى أنحاء السفينة أجراس الخطر ، واختلط رنين الأجراس بالصرخات والصيحات ، والطبيب فى مكانه لا يتزحزح ، والدماء

تنزف من وجهه ، والحذاء يرتد لينطلق بجنون ، والصرخات من حولى تلهب دمائى فاذا بى أصعد السلم كالمجنون ، وأنفذ من جوار الطبيب ، وترتد القدم الى الخلف وتتمايل السفينة ويترنح العملاق ، وألقى بكل جسدى عليه ، وأصرخ ، أصرخ كالمجنون ... ويسقط العملاق ويندفع من فوق جسدى عشرات الرجال ، ورأس العملاق بين كفي ، وعيناه مليئتان بالموت فلا حراك ولاجزع ... وكل شيء يغيم ، والأصوات تتداخل ، والأحداث تجرى بنا ، واذا بى أقف مع الطبيب أمام باب الكابينة المغلق ، وفوق الباب قرأت كلمة «السيد»!

امتدت يدى لتفتح الباب لكنه لم يفتح ، نظرت للطبيب مستغيثا فقال :

«لابد من تحطيمه!»

وتوقفت نظراتى فوق وجهه فشهقت وتراجعت الى الخلف ، لم يكن الوجه مصابا بشيء ، ولم تكن هناك دماء تنزف ، سألنى الطبيب عما بى فلم انطلق ، رحت أهز رأسى غير مصدق وأنا أشير اليه ونظراتى تتردد مابين وجهه وجسد العملاق الممدد على الأرض بلا حراك ... أين الدماء وأين ضربات الحذاء الغليظ ؟! ...

وابتسم الطبيب وكأنه قرأ أفكارى ثم تمتم :

«لقد محاها الغضب!»

قالها وهو ينقض على باب الكابينة بكل جسده ، فهوى الباب تحت ضربته ، واندفعت أزاحمه الى الداخل وفى حلقى ألف صيحة ، غير أنى ماكدت أتوسط الكابينة حتى تسمرت فى مكانى ، واحتبست الصيحات فى حلقى ... فقد كانت الغرفة خالية!!

رحت أنظر الى الطبيب فوجدت ابتسامته قد ازدادت اتساعا ، وسمعته يتمتم وكأنه يحدث نفسه :

«كنت متأكدا من ذلك ، كنت موقنا أنه ليس موجودا!!»

## ـ ٧ ـ

ساد الصمت تماما ... ووقفت مع الجميع ساكنين للحظات ، لم يكن أحد هناك ، لاحراس ولا وجوه شمعية ولاعيون زجاجية ... والكابينة خالية تماما .

حتى العاصفة فى الخارج كفت وهدأت واستقرت السفينة فى سيرها ... وتقدم رجل نحو باب السطح ليفتحه ، لكن الباب لم يفتح ... تردد الرجل للحظات ثم صرخ فى الجميع من حوله :

«الأبواب هى الأخرى كانت موصدة ... هواء ... هواء ... نريد هواء !!»

وقال الطبيب وهو يتقدم وفى يده معول :

«لابد من تحطيمها .. لابد»

وانهلنا جميعا نحطم الأبواب والنوافذ ، واندفعت نسمات الهواء تملأ السفينة ، وغمرنا الضوء لأول مرة ، ووقف رجل يغسل جسده فى النور وهو يصيح :

«انها الشمس ... اننا فى النور !»

واندفعنا جميعا الى الخارج ، كنا نبحث عن ذوى الوجوه الشمعية والعيون الزجاجية ، لكننا لم نجدهم ... كانت العاصفة قد ابتلعتهم جميعا

١٩٦٢

# خطاب إلى رجل ميت

## ـ ١ ـ

لايعنينى أن يصدق أحدكم هذا أو لايصدقه .. وستقولون حتما أنى سكران يهذى ... فليكن . غير أن ظنونكم وأفكاركم لن تغير من الحقيقة شيئا ، وهذه هى الحقيقة كما حدثت لى ذات مساء فى تلك الجزيرة !

كان المساء قارص البرد ، ولم يكن فى ميناء الجزيرة سوى سفينتنا ، ورغم هذا بدا الميناء ليلتها مشتعلا بالأضواء والضحكات والصخب ، كان الرجال قد ذابوا فى الزحام الذى أحاط بنا منذ رفعنا راية الرحيل ، وكان أهل الجزيرة يصفقون ويغنون ويرقصون ويقدمون لنا كل مانطلب بلا مقابل ... لم يكن معنا مال ، ولم يكن لدينا مانبادل به ، وكان وقت الرحيل يقترب ، ولم يبق لنا سوى تلك الليلة !

منذ متى رسونا على شاطىء هذه الجزيرة ؟!

لم أكن ليلتها أدرى ، ولست أدرى حتى الآن كم من الزمان مضى علينا هناك ، أو لماذا ذهبنا ... ومنذ اللحظة الأولى لوصولنا كان كل شىء يبدو لنا غريبا مثيرا ... كنت اذا وقفت فى غرفة القيادة أو تسلقت صارى السفينة ، استطعت رؤية الجزيرة بأكملها ، كنت أرى من مكانى هذا شاطئها الآخر ... كانت صغيرة وحيدة ، تبدو مثل شىء نساه صاحبه فى فضاء ... وكانت بيوتها صغيرة ، وشوارعها ضيقة ، وحواريها لاتسع أكثر

من شخص يمر ، وأبوابها واطئة ، وساكنوها باهتى الوجوه غريبى اللغة ، كانوا يبدون وكأنهم يهمهمون ولايتحدثون !!

كانت الجزيرة كمدينة مسحورة ، كل شيء فيها صغير دقيق كأنه صنع ليصبح لعبة ، وكان الليل اذا انتصف ولعبت الخمر برءوسنا رحنا نذرع الشوارع والحوارى ، ونصيح ونصافح ساكنى الأدوار العليا ونحن نسير فى الطريق !

فى تلك الليلة لم يكن أحدنا ليصدق أن وقت الرحيل قد حان ، كان المحيط غاضبا منذ أيام كثيرة العدد ... ربما منذ أسابيع ، وربما شهور ، وكانت أمواجه تنهش أطراف الجزيرة ليل نهار ... وكلما اكفهر الجو وتلبدت السماء بدا المحيط للعين عظيما ، وأصبح اقلاعنا فى مثل تلك الأنواء يعنى الموت ، فرحنا ننتظر وننتظر ، وجاء علينا يوم أحسسنا فيه أن الجزيرة تصغر ، وأن أهلها يتكاثرون ، وأنها تضيق بنا ... وأصبح رحيلنا عنها أمنية من الأمانى ، ثم أصبحنا نجلس بالساعات فوق سطح السفينة نرقب المحيط من بعيد ، ولانفعل شيئا سوى الانتظار .

فى تلكِ الأيام كنت قد أنفقت كل ما أملك من مال فى ذلك البار الصغير المواجه للميناء ، وفى البداية كنا نذهب الى البار اذا ماحل المساء ، وأصبح ذهابنا اليه مع الأيام كأنه عودة الى البيوت والزوجات ... كان صاحب البار رجلا لايعرف الكلام ، كان يكفيه أن تطلب منه أى شيء فى الدنيا بأية لغة شئت ، ليفهم ، ويلبى ... وكأن الرجل لايعرف معنى كلمة : «لا!» .

وكانت لى — مثل كل الرجال على السفينة — امرأة ... كانت صغيرة دقيقة وكأنها خلقت لتصبح تمثالا ... كانت جميلة الوجه ، حائرة العينين ، هامسة الحركة ... ومنذ الليلة الأولى للقائنا أعطتنى كل ماأردت ، كان يكفى أن أفكر فى شيء أو أرغب فيه حتى تلبى دون كلمة ... وبعد أيام اكتشفت أنى لاأعرف اسمها ، وحيرنى الأمر كثيرا ،

حيرنى ليال وأنا أسألها عن أسمها فلا تجيبنى الا بتلك الهمهمة الغريبة التى لم أكن أفهمها ... ثم نسيت الأمر تماما ، نسيته عندما بدت لى تلك المرأة ذات ليلة شربت فيها كثيرا ، وكأنها خلقت من مجموع رغباتى !!

وعلمتنى الأيام أن أهل الجزيرة كلهم كذلك ، ما من شىء طلبه الرجال الا وجدوه ، وعندما نفدت نقودى رحت أسرق من حمولة السفينة وأبيع ، كان ابتعادى عنها يبدو لى كأنه ضرب من المستحيل ، وما يكاد الليل يأتى حتى تشتعل فى جسدى تلك الرغبة المجنونة فى لقائها ، ويلتهب حلقى بالعطش الرهيب ، وترتجف يداى بحثا عن ذلك الجسد الناعم الدافىء ، الذى مايكاد يدفن نفسه فى أحضانى حتى تتحول الدنيا من حولى الى نغم ، ونفد ثمن ماسرقت ، فسرقت من جديد ، رحت أسرق وأبيع وأسرق وأبيع ثم اكتشفت ذات ليلة أن كل الرجال قد نفدت نقودهم منذ زمن ، وأنهم جميعا يسرقون مثلى ... وسرعان ما أصبحت السرقة قانونا بيننا ... ثم بدأت حمولة السفينة تنفد ، ولم تهدأ أمواج المحيط ، ولم يصف الجو وظلت السماء ملبدة ، والموج ينهش أطراف الجزيرة ، والناس يتكاثرون ... وأصبح لابد لنا من الاقلاع !!

— ٢ —

كانت الأيام كلما مضت ، شحت نقودنا أكثر ، وازداد أهل الجزيرة صمتا ، ولم يعد صاحب البار يلبى مانطلبه قبل أن يأخذ الثمن ... وكانت امرأتى كلما طلبت شيئا رحت أبحث كالمجنون عن شىء أبيعه ، ثم أصبحت السفينة كالخراب . وبحثت ذات مساء عن امرأتى فلم أجدها ، سألت صاحب البار فهمهم بكلام لم أفهمه ... قطعت الشوارع والحوارى والأزقة بحثا عنها دون جدوى ، كانت وكأنها تبخرت ، وكان الرجال كلهم مثلى ، كنا نلتقى فى الشوارع وكل منا يهيم على وجهه بحثا عن امرأته ، وكان كل منا يوصى صاحبه بالبحث ... ومضت الأيام لكننا لم نيأس ،

ظللت ألهث وراء كل امرأة أراها ، وظللت أسأل صاحب البار فى كل صباح وكل مساء . وأطرق باب البيت الذى آوانا ليال طوالا ، وأسأل كل من أقابله دون جواب !!

وكان كل الرجال يفعلون مثلى ، ولم يعد صاحب البار يأوينا ، وكان أهل الجزيرة يزدادون عددا وكأنهم يتوالدون كل يوم ، وبدأت كالمجنون أصرخ فى كل من أقابله سائلا عن امرأتى دون جدوى ، ونمت ذقنى يوم نمت ذقون الرجال ، واستطال شعرى يوم استطالت شعورهم ... ولم يعد أهل الجزيرة يبتسمون فى وجوهنا ، ولم يعودوا يردون علينا التحية ... وخيل الى ذات يوم أنهم لايروننا ، وكنا نسير فى الشوارع وسط الزحام كالأشباح المخفية ، ونفد كل مالدينا من طعام ، وأصبحنا لانفعل شيئا سوى الجلوس فوق السطح نرقب الأمواج الثائرة ، وقد يطل قرص الشمس من بين ركام السحب السوداء ، لكنه سرعان ماكان يختفى ليحل محله الظلام والزمهرير وقصف الرعد وزئير الأمواج !

ثم فقدنا عقولنا تماما ، وانتابنا الجنون ذات مساء عندما صاح أحدنا بأنه سيقتل كل أهل الجزيرة ، وأحسست وأنا أعدو وسط الرجال أن شيئا فى دماغى يحترق ، واندفعت وسطهم أحمل فى يدى بلطة حادة ، وكانت رغبتى الوحيدة أن أعثر على امرأتى كى أقتلها !

ـ ٣ ـ

بعد ساعة كان غضبنا العظيم قد تحول الى يأس ، كنا نعود الى السفينة نجر أذيال الهزيمة كجيش مزقته الأشباح ، وكان كل منا ينظر الى الآخر غير مصدق ، ولم يجسر أحدنا على الحديث أو الكلام ، فعندما داهمنا الجزيرة وجدنا أهلها فى الانتظار ... كانوا يقفون أمامنا فى كل مكان ذهبنا اليه ، ولم يكن أحدهم يحمل فى يده سلاحا ، ولم يقل أحدهم كلمة ... كل مافعلوه هو تلك النظرات الغريبة الحادة التى كانت تخترق

رءوسنا وتشل أطرافنا وتطفى نار الغضب فى صدورنا ..

ظللت أعدو وسط الرجال كالمجنون ، كنت أحس أنى فقدت عقلى وكنت أعى ذلك وأعرفه وأرحب به ، ولقد كان الجنون عندى أفضل ألف مرة من الجوع ، وعندما مررنا برجل كان يأكل رفعت بلطتى فى الهواء وهويت بها فوق رأسه ، وقفز الرجل من مكانه قفزة صغيرة قصيرة ، وهوت البلطة لتنغرس فى الأرض وظل الرجل يأكل ... رفعت البلطة مرة أخرى وهويت بها فقفز تلك القفزة الصغيرة وانكفأت على وجهى وارتطمت رأسى بأرض الجزيرة ... رفعت البلطة مرة ثالثة وكانت عيناه تنفذان داخل عينى فأيقنت أن لافائدة ... وتدلى ذراعى بجوار جسدى ، وسمعت فى داخلى صوت غضبى ينكسر ، فسالت الدموع من عينى وسألت الرجل فى توسل :

«ألم ترها ؟!»

حملق الرجل فى وجهى ولم يقل كلمة ... بدا أنه لايفهم شيئا .

«ألم ترها ؟ ... ألم تر امرأتى؟!»

ولم يكن هناك مايمكن أن أقوله ، فلم يبد على الرجل أنه يسمع ، لم يتحرك ، ولم يتكلم ، وظل يلتهم طعامه فى صمت ... وعدت الى السفينة دون أن أمسح دمعى المنهمر .

ـ ٤ ـ

كانت السفينة قد أصبحت كالمهجورة ... وشحبت وجوهنا واستطالت سحننا وغارت عيوننا وتاهت نظراتنا ... وهجرت فراشى ورحت أهيم فى أرجاء السفينة ليل نهار ، وكانت ممراتها قد اتسخت ، وأحست الفيران بالأمان فراحت ترتع فى كل مكان بلا خوف ولا رقيب ، وأصبح الهبوط الى جوف السفينة كالهبوط الى جوف قبر ... واتخذت لنفسى مكانا

بجوار السياج ورحت أرقب الأفق فى صمت ، كنت جائعا عطشان مثل كل الرجال ... وكانت رؤية قطعة من الخبز كفيلة بأن تسيل لعابى ، وكثيرا ماتشاجر رجلان من أجل قطعة من الجبن ... ولم أعد أفكر فى البحث عن امرأتى ، كان الهبوط الى الجزيرة معناه مزيد من الشقاء ثم جاءت أيام منعنا فيها الحراس من مغادرة الميناء ، وكانت أصوات أهل الجزيرة تصل الينا فى الليل مع سحابة الضوء التى أصبحت تظلل شوارعهم الضيقة ، وفى بعض الاحيان كان يأتينى غناؤهم من بعيد ، وكنت كلما سمعت أصواتهم الثاقبة ازدادت فى صدرى الرغبة فى الرحيل كأن شيئا يطاردنى ... وكانت أمواج المحيط تشتد علوا وزمجرة ؛ ثم علت المياه فاقتحمت حاجز الأمواج واندفعت تلطم جوانب سفينتنا فى وحشية ، ولاتكف الرياح عن الصفير ، وكلما أوغل الليل كلما اشتد بى القلق ، كنت أهيم على وجهى فى السفينة ويرتطم جسدى الهزيل بأجساد الرجال ، ويطاردنى ذلك الشىء اللزج الذى كان يبعث فى نفسى الخوف ... وصرخت ذات مرة ثم أفقت لأجد نفسى محاطا بالرجال وكنت أبكى ... واشتد العذاب بأحد الرجال ذات مساء فحمل بلطته واندفع مغادرا السفينة وراح يضرب كل من يقابله ... لكنه لم يصب أحدا . وعاد الينا مع أول أضواء الفجر مهدل الجسد يجرجر قدميه وفى عينيه نظرات تائهة .

ثم قررنا ذات ليلة أن نرحل !

بدا لنا الأمر فى البداية مخيفا رهيبا لاطاقة لنا على احتماله ... وبدا لنا المحيط كوحش هائج يفغر فاه فى انتظارنا ... غير أن أحدنا اندفع يرفع فوق الصارى راية الرحيل ، فغمرتنا على الفور فرحة صاخبة ... كنا نعرف أننا سنواجهه ، وكنا نعرف أنه لايزال غاضبا ، وأن أمواجه تزداد توحشا ، وسماؤه تزداد قتامة ، وكانت نظرة واحدة نحو الأفق كفيلة ببعث الرعب فى قلوب أقوى الرجال وأكثرهم صلابة ... ورغم هذا أحسست أن جسدى

أصبح خفيفا ، ولم أعد جائعا ، ودبت فى أوصالى فرحة الخلاص ، ورحت أعمل مع الرجال طوال اليوم فى حماس ... نظفنا الممرات وطاردنا الفيران ، وتعالت ضحكاتنا وغسلنا السطح وجهزنا الشراع وقسمنا نوبات العمل ... وعندما جاء ذلك المساء كان شديد السواد ، وكانت السفينة مضاءة كعروس ، وكان سطحها يشغى بالحركة ... أحسست ساعتها كأن حملا قد اقتلع من داخل صدرى ، وضحكت مع الرجال وأنا أحلق ذقنى ، وغسلت جسدى بالمياه ، وبدت لى أمواج المحيط مثل عروس أستعد لزفافها ، وبدا لى الأفق وكأنه غاية ، وكنت كلما سمعت ضحكة رجل أجيب عليها بضحكة أشد صخبا ... كنت أريد أن أضحك ، وأن أغنى ، وأن أرقص إن استطعت !!

— ٥ —

لايعنينى أن يصدق أحدكم هذا أو لايصدقه ... وستقولون حتما أنى سكران يهذى ... فليكن ، غير أن ظنونكم وأفكاركم لن تغير من الحقيقة شيئا ، وهذه هى الحقيقة كما حدثت لى فى ذلك المساء فى تلك الجزيرة !

فكأنما جذبت ضحكاتنا ومرحنا أهل المدينة ... وماهى الا لحظات حتى شاهدتهم يخترقون الشوارع والحوارى ويتزاحمون عند باب الميناء وكانوا يحملون المشاعل ... وكلما ازدادت ضحكاتنا كلما ازداد تدفقهم ، وكلما رأينا جموعهم داخلنا شعور وحشى بالسعادة ، وصرخت فيهم من فوق السياج :

«كلاب !»

فابتسموا ، ثم ضحك أحدهم ، ثم تعالت ضحكاتهم مثل شقشقة طيور برية ، كانوا يبدون أشد سعادة منا ، وأشد حماسا لرحيلنا ... وراحت عيناى تبحثان وسط الجموع عن امرأتى ، خطرت ببالى فخطرت لعينى ، كانت واقفة هى الأخرى وسط الجموع تبتسم ... وبدا لى وجهها الصغير

كقرص سحرى لكوكب هوى الى الأرض واستقر فوقها مضيئا ، واشتعلت فى دمائى تلك الرغبة المجنونة ، واشتعل ذهنى بحثا عن شىء أبيعه ، صحت بها مناديا فلوحت بيدها منادية ، وتعالت الأصوات من حولى ، وصخبت الضحكات ، وبدا لى أن كل شىء يبدو معقولا ، وأن ماحدث كان يمكن أن يحدث ، وأن رغبتى فى الغفران تساوى رغبتى فى جسد امرأتى المرتجف وسط الجموع باللهفة ... نظرت نحو الرجال على سطح السفينة فوجدتهم جميعا يتبادلون النظرات ، وكلما تلاقت نظراتى بنظرات رجل أغرقت فى الضحك أكثر ، كنت أرتجف بسعادة غامضة شديدة الغموض ، استدرت نحو المحيط وراحت عيناى تحاولان اختراق الأفق المظلم ، ملأت صدرى بالهواء وأحسست بالرغبة فى التحليق ، وصاح رجل بجوارى فى امرأة كانت تغريه بالهبوط :

«ليس معى نقود .. انى مفلس !»

وصاحت به المرأة بصوت كالموسيقى :

«لست أريد شيئا!»

ارتجف قلبى كزلزال هزنى بعنف ، ثم صرخت كالمجنون غير مصدق :

«انهم يتكلمون !!»

وتعالت الضحكات والنداءات وعادت المرأة تنادى على الرجل :

«لست أريد سواك!»

وعدت أصرخ :

«انها تتحدث ... انها تقول شيئا»

غير أن أحدا لم يسمعنى ، كان الرجال غارقين فى الضحكات وقد تجمعوا حول الرجل وراحوا يدفعونه نحو سلم السفينة ... ارتجف قلبى برعب خفى ، وعدت أصرخ فيهم :

«انها تتحدث ... انها تتكلم ... انها تقول شيئا!»
ودفعنى أحدهم بعيدا وهو يصيح :
«وماذا فى ذلك ؟!»
«انهم لم يتكلموا من قبل !»
«وماذا فى ذلك؟!»

وانزلق الرجل فوق درجات السلم وهوى نحو الرصيف فتلقفته المرأة بين ذراعيها ثم ذابت معه وسط الظلام .

## ـ ٦ ـ

أصبح مذاق الخمر عظيما ... وكنت كلما شربت كأسا اشتدت رغبتى فى كأس أخرى ... كنت أطلب ، وكان صاحب البار يلبى ، وامتلأ المكان بسحابات دخان كثيف ، وكان الرجال يضحكون ويأكلون ويشربون فى نهم ... وبدا لى الأمر وكأنه حلم من تلك الأحلام الخيالية ... فقد كان أهل الجزيرة يتحدثون !! .

«تعالى ...»

كانت امرأتى تقف على الرصيف وحدها ، وكنت أقف فوق السطح وحدى .

«تعالى ...»

كان الرجال قد اندفعوا يهبطون سلم السفينة فى جنون ، وكانت صرخاتى تضيع وسط صخبهم وضجيجهم ... كانوا يبدون وكأنهم فقدوا عقولهم ، وبدت الميناء مشتعلة بالأضواء والضحكات والصخب ، وذاب الرجال فى الزحام ، وتعالت الأنغام وارتجت أرض الجزيرة بالرقصات ... ثم اختفى الجميع وهم يحملون المشاعل من الميناء ... وظلت امرأتى واقفة فى مكانها وكأنها تسمرت هناك ...

«تعالى !»

كنت أسمع صوتها كأنه لحن تبعث حلاوته الجنون فى دمائى ...

«تعاااالى !»

أردت الكلام فخرج صوتى صراخا أو نواحا أو عويلا فقد كان الخوف يقهرنى :

«ليس معى نقود!»

«لست أريد شيئا!»

«لم يعد فى السفينة شىء نبيعه!»

«لست أريد سواك!»

«انى جائع!»

«عندى من الطعام مالا يخطر لك ببال!»

«عطشان!»

«سأشترى لك خمرا لم تذقها فى حياتك!»

«جسدى مريض!»

«دواؤك فى شفتى!»

«قلبى بارد!»

«سيخفق عندما تقبلنى ... هل نسيت؟!»

«أنت تتحدثين!»

«كنت أحدثك منذ ولدت!»

«ماأسمك؟!»

«انت تعرف أنى لك!»

«هاجمتنا الفيران بالأمس!»

«عندما تعود ستجدها قد اختفت!»

أحسست أنى أسبح داخل كرة بلورية قاتمة اللون ، كانت قدماى تهبطان السلم دون ارادة ، كنت أطيع فاذا بجسدى يسبح فى

الفضاء اليها ... تلقفتنى بين ذراعيها فى وجد ... وكانت عيناها الحائرتان تترددان فوق وجهى ، وعندما احتوانا الدفء فى البار سقتنى كأسا فأحسست بأوصالى تتجمد ، وكلما شربت اشتد التهاب حلقى ، وعندما نهضت تبعتها صاغرا ، وعندما احتوتنا الغرفة المظلمة تصاعدت أنفاسها فوق عنقى ، أردت عناقها فتصلبت ذراعاى ، وعندما قبلتها كان لشفتيها طعم الجثث ، وعندما طوقت عنقى بذراعيها ، أحسست بالوحدة تجثم على صدرى كالموت .

— ٧ —

لم يعد باقيا سوى ساعات .

كانت زمجرة الأمواج تهز أرض الجزيرة .

كان ضوء الفجر يبزغ من خلف الأفق رمادى اللون .

وكانت محاولاتى كلها قد باءت بالفشل .

لم أعد أريد ..

أزحت المرأة جانبا ، وهززت رأسى فى يأس ، وجاءنى صوتها عبر الظلام :

«لم تعد تريدنى!»

واستدرت نحو مصدر الصوت كالملسوع ، كان صوتها كالعزف على آلة شديدة الرقة عذبة النغم .

«لم أعد أعجبك!»

رحت أبحث بيدى فى الهواء عن شيء لاأدريه .

«تعالى!»

وأصبح صوتها مثل حية تلتف حول عنقى .

«تعاااا الى!»

كنت أصرخ ودق قلبى وظللت أتخبط فى الظلام ... كان جسدى

ثقيلا وكأنه امتلأ بالزئبق ، وتحركت المرأة بجوارى ونفث جسدها سحابة من الدفء شملتنى ، ثم لامس جسدها العارى لحم جسدى فارتجفت ، وسمعتها تقول وهى تغادرنى :

«هدك الجوع!»

وانتفضت مغادرا الفراش وأنا أزمجر ...

«ليس معى نقود!»

رحت أبحث فى الظلام عن ملابسى .

«لست أريد منك شيئا!»

كنت أتخبط وأدور حول نفسى ...

«لاأحب شيئا بلا ثمن!»

وسمعت حفيف جسدها يسبح فى الهواء ...

«لقد أطعمتك!»

«كنت جائعا!»

«وسقيتك!»

«كنت عطشان!»

«لست أريد سواك!»

واندفعت خارج الغرفة هاربا .

— ٨ —

لم يعد باقيا سوى دقائق ، كانت شوارع الجزيرة قد امتلأت وازدحمت بأهلها ، وكان قرص الشمس يسقط من بين السحب داخل عينى ، وكانت هى تسير بجوارى نحو السفينة لاتقول شيئا .. دلفت من باب الميناء فجاءتنى صيحات الرجال من فوق السطح تنادينى ... وكان الزحام شديدا ، والأصوات متشابكة ، والفرحة تزغرد فى عيون الجميع وأصواتهم ...

«سوف تعود يوما!»
«لا ... لن أعود!»
«لسوف تعود حتما!»

كان يدها تتسلل الى ذراعى ، وكانت صيحات الرجال من فوق السطح تدوى فى أذنى كالرعد :

«تأخرنا!»

وتعالت الأصوات ودبت الأقدم وكانت المرأة تبدو شديدة الشحوب ...

«انت خائف!»
«ماذا تريدين؟!»
«هل تعود؟!»
«ماذا تريدين!»

وامتدت يدها الى صدرها وأخرجت خطابا ... مددت يدى الى الخطاب فالتصق بها ، وضعته فى جيبى فذاب فيه ..

«لمن؟!»
«عندما تبحر ستقرأ العنوان!»
«عندما أبحر لن أعود!»

هزت رأسها فى ابتسامة ثم ألصقت شفتيها بشفتى ...

وجذبتنى صيحات الرجال الى أعلى ... واشتد زئير الرياح وعندما استدارت السفينة نحو المحيط ، انقضت علينا الأمواج الشرسة بلا رحمة ، لكن الشراع كان مفرودا فى الهواء كجناح طائر أسطورى ... وراحت الجزيرة تبتعد ونحن نوغل فى الفضاء ، يوم ويومان وثلاثة أيام واذا بالشاطىء لا يبدو لعين ... كانت العاصفة تزداد كلما أوغلنا فى السير ، واختفت الشمس تماما ، وتذكرت الخطاب ذات ليلة فأخرجته من جيبى ، وقعت عيناى على العنوان فارتجفت ...

«الى قبطان «الرغبة» ... التى غرقت فى المحيط ذات يوم ولم ينج منها أحدا!»

ـ ٩ ـ

لم أجرؤ على الحديث مع أحد ... أعدت الخطاب الى جيبى وقد شملتنى سحابة باردة من الفزع ... كان الخطاب الى رجل ميت ، واندب فى قلبى ذعر شديد ، وعندما خرجت الى السطح كانت السفينة تصارع أمواجا عاتية ، اندفعت مع الرجال أجذب الحبال وأقفز هنا وهناك ، كان الصوت يلاحقنى فى ذلك الفضاء اللانهائى ...

«لسوف تعود حتما ... لسوف تعود»

وعندما دوت من قلب السفينة صرخة رجل أيقنت أن النهاية قد جاءت ... كان الموج قد حطم جانب السفينة ... رحنا نتدافع بجنون لننزح المياه ، تلبدت السحب أكثر ، وصرخ رجل من فوق الصارى مذعورا :

«جبال التلج!»

وكانت جبال الثلج تتهادى غير بعيدة عنا ، كانت تسبح مع الموج كالموت ، ودوت فى أرجاء السفينة صرخة أخرى ، وتعالت الصيحات فقد انفتح جانب السفينة الآخر ... وعندما ارتج السطح تحت أقدامنا أيقنت أن الهلاك آت لا ريب فيه ... تحولت السفينة الى أشلاء على سطح الجبل السابح ، وراح الرجال يقفزون الى المياه فى ذعر ... وتعالت صرخاتنا وسط الأمواج المزمجرة ، سبحت نحو قطعة طافية وتعلقت بها ... لست أدرى كم مضى من الزمن ، فعندما أفقت كنت وحدى راقدا فوق قطعة الخشب السابحة فوق سطح كالزيت ... كانت العاصفة قد ولت ، واختفت السحب ، وأطل قرص الشمس دافئا فوق المياه التى بدت

لعينى كالبلور ... نظرت حولى فلم أجد سوى فضاء ، تذكرت الخطاب فمددت يدى الى جيبى فى لهفة ...

لكنى لم أجده!!

١٩٦٤

# شيء بلا رائحه

هل رأى أحد منكم ذلك الموت الذى يختطفنا جميعا واحدا وراء الآخر ؟!

أنا رأيته ، وشممت رائحته ... وهى ليست رائحة عفنة على أى حال ... انها رائحة لاتشم ، هى ليست عطرة ، وليست منفرة ... انها رائحة بلا رائحة !!

عندما رأيت الموت فى ذلك الضحى وذلك اليوم وتلك الليلة ، لم أكن أنا قد مت بعد ، وكل ماحدث أن السفينة انفجرت فجأة ، واندلعت ألسنة النيران فوق سطح المياه فالتهبت ... وتمزقت جوانبها الصلبة وكأنها جدران لعبة من الورق ، وبجوارى تماما تناثرت أشلاء صديقى حسن ، وطار جسد صبحى فى الهواء ثم هوى الى سطح المياه ككرة قذفت بها قدم حديدية ، ووجدت نفسى بعد ذلك داخل مياه البحر .

لم أكن قد مت بعد فى ذلك الوقت ، لذلك استطعت أن أصعد من جديد الى سطح المياه ... وللحظات قصار خاطفة ، انتابنى رعب هائل ، أين ذراعاى ، أين ساقاى وقدماى ويداى ورأسى وعيناى وأذناى ... ورأت عيناى جسد كامل البحار وهو يجرى فوق سطح السفينة والنيران تنهشه ، وسمعت أذناى صرخاته التى طوتها الأمواج الرقيقة ، فقد كان البحر هادئا ، وسطحه كالزيت ... ومن بعيد ، رأيت باقى

الرجال وهم يقفزون من السفينة صارخين صائحين فلم يكن هناك وقت ، فالسفينة تغرق وتغوص بسرعة فى المياه ..

وبعد لحظات أو دقائق وربما كانت ساعات ـــ لست أدرى ـــ كنت قد ابتعدت عن السفينة بقدر كاف .. نعم ، انى أتذكر الآن ... لقد سبحت ورحت أضرب المياه بذراعى وقدمى كالمجنون ، وعندما ابتعدت رأيتها ترقد على جانبها فى استسلام ، وكانت مدخنتها ترسل سحبا صغيرة من الدخان ، سحبا متقطعة كأنها تلفظ آخر أنفاسها ، وكان الزيت المشتعل يحوطها من كل جانب ، وألسنة النيران تحوى أجسادا كانت تعوى : لايمكن ... أبدا ... لايمكن أن أذكر لمن كانت هذه الصرخات وهذا العواء ، فالذى لاتعرفونه ، والذى أعرفه أنا عن يقين أننا أمام الموت نصبح سواء ، صرخاتنا واحدة ، وأصواتنا واحدة : وخوفنا واحد !!

أنا ؟! ... نعم كنت خائفا ، وماذا فى ذلك ؟ ... كنت خائفا وكنت أبكى أيضا وأنا أذكر أبى وأمى وأخوتى وزوجتى وابنتى فى ثوان خاطفة ... ثم تلاشوا جميعا وسط اللهب ولم يبق من حقائق حياتى سوى ابنتى !

نعم . هى التى بقيت فقط فى ذاكرتى ، وذكراها هى التى بعثت بالدمع الى عينى ، وعيناى كانتا ملتهبتين ، والزيت المشتعل يأكل ذاته ويختفى ، والشمس فى السماء تنحدر متفرجة ، والسفينة يبتلعها البحر ثم يتجشأ من بعدها نافورات من الهواء راحت تضرب سطح المياه لدقائق ... ثم وجدت نفسى وحيدا .

لم أكن قد مت وقتها ، كنت لاأزال حيا أسبح ، وكانت ابنتى هى الأخرى قد اختفت من ذاكرتى ، فهناك سؤال وسط كل هذا الذى قصصته عليكم راح يلح على ذهنى الحاحا متصلا ... كيف حدث ماحدث ؟!

هذا مالم أستطع أن أتبينه وسط الضباب الذى كان يغلف عقلى ويضع بينى وبين العالم حاجزا كثيفا فلم أعد أرى ولم أعد أسمع أو أعى شيئا فقد كنت أقف عند حافة الموت ولاشك ، وكنت أعرف ذلك عن يقين ، كنت أعرف أنى سأموت بعد دقائق فلم ينتبنى الذعر أو الخوف ، وحلت بى سكينة كتلك التى كانت تحل بروحى عندما يحتوينى ذراع أبى فى أحيان قليلة من عمرى فى تلك البلدة الصغيرة التى خرجت منها الى البحر وكأنى أخرج من قمقم مغلق الى عالم بلا حدود ..

ولابد أنى فعلا كنت أقف على حافة الموت فى تلك اللحظات لأن الشمس مالت فجأة وراحت تنحدر نحو الغرب بسرعة وكأنها تنزلق فوق سطح أملس ، وظلت فى انزلاقها هذا حتى لامس قرصها حافة الأفق البعيد ... لحظتها توقفت عن الانزلاق وظلت فى مكانها للحظات وكأنها تريد أن تنير لى الطريق الى شىء بعينه ... ورأيت على البعد شيئا يسبح ، وحاولت أن اتجه اليه فلم أفلح ، كنت أموت فى تلك اللحظات بالفعل ، أو بمعنى أدق كنت قد مت حقا ، عدا جزء صغير ، هو عيناى ... فى تلك اللحظات ، لم أكن أشعر بشىء ، كان جسدى قد تحول الى شىء ملتصق بذاتى ، اذا انفصل لم يعد الامر مهما ، وأمام العجز عن الوصول الى الشىء العائم لم أبذل أى مجهود يذكر ، وتحولت عيناى الى قرص الشمس فوجدته حيث كان ... يلمس حافة الأفق وهو منتظر ... ثم راح ينزلق فى بطء حزين حتى اختفى جزء منه وراء الأفق ، غير أنى رأيته يتوقف عن الانزلاق من جديد ، وخيل الى أنه يبتسم ... واتجهت عيناى على الفور الى الشىء العائم ، فوجدته يسبح نحوى ويقترب منى ... كان قطعة خشب انفصلت عن سفينتى .

ترى ... من أى مكان فى السفينة هذا الجزء ؟!

انبثق السؤال فى ذهنى ثم اختفى وذاب وأنا أرى ذراعاى تتعلقان به

مع كفين فى لون الموت الشاحب ... وهززت عينى فى عجب من أمر هذا الموت ، أنه ليس مخيفا كما كنت أظن ، فلست أشعر بشيء على الأطلاق ، لا ألم ، ولا خوف ، ولا رعب ، ولا ... لاشيء أبدا ... أبدا سوى أن عينى كانتا تريان أطراف قطعة الخشب الممزقة ..

وتذكرت والدى ... ورأيته يبكى .

وكانت أمى فى البيت تولول وقد ارتدت السواد ...
ولى أخ لم يعلم بعد بموتى ، كان لاهيا مع خطيبته ...

وفى احدى غرف البيت كانت زوجتى ذاهلة محطمة وهى تحتضن ابنتى التى كانت تسأل بالحاح : « بتعيطى ليه ياماما ؟!»

من الذى سيرعاها من بعدى ؟!

وراحت دموعى تسيل من عينى ... ليت الموت يمهلنى للحظات حتى أعتذر لها ... لكنها لن تفهم شيئا فهى لاتزال فى عمر الحياة ، كانت تلعب دائما معى وتقول : ياعجوز!... ورغم شبابى كانت تسعدنى منها هذه الكلمة ، بل أنى كنت ألاعبها لكى أبتز منها هذه الكلمة ... ستسأل يوما ولاشك عنى ، وستسأل يوما آخر .... ثم ستنسى ولن تذكر الا عندما تكبر ..

وحدث فى تلك اللحظة شيء غريب ... أحسست بالدمع ساخنا على وجهى .

كنت مستقليا على ظهرى — لست أدرى كيف فعلت هذا! — فوق قطعة الخشب ... وكان قرص الشمس قد اختفى منذ زمن وحل الظلام دون أن أراه وهو يحل ، ولمعت فى السماء نجوم بدت قريبة قربا شديدا ... أهناك سوف «أعيش» بعد ذلك ؟! ..

أم ترى كل شيء قد انتهى الى الأبد ؟!

غاظنى احساسى بالدمع فقد دفع الى حلقى بالعطش تدريجيا ... وانقشع من حول عقلى ضباب الموت فأحسست بجسدى ... كان ظهرى يؤلمنى كأن أطراف أمواس حادة تشققه ومطارق تدق عظامى فتتحرك أطرافى ... وبدأت فى تلك اللحظات أفقد أعصابى ، فلماذا تعود الحياة وقد كنت قريبا من حافة الموت ؟ !

لم أكن قد مت منذ انفجرت السفينة فى الضحى ، ولابد أننا فى منتصف الليل ، وأنفاسى تعود فتتخلل شاربى وتلامس شفتى ساخنة ... لابد أن ظهرى قد احترق فالألم يزداد لحظة بعد لحظة ... والألم ينتشر بقسوة ، يزحف ليستولى على الجسد كله فيلتحم بذاتى وأشعر به ... أهذا هو ثمن الحياة ؟!

لابد أنها الآن نائمة فى حضنها ؟

ابنتى فى أحضان زوجتى ..

لكن الدمع هذه المرة استعصى على وتبدد الضباب تماما وراح عقلى يعمل فى جنون ... من الذى سيرعاهما من بعدى ؟ ... ووجدت أنه من الأوفق أن أعيش ، ووجدت أنى وحدى وسط البحر كله فأين الجميع ؟! ... ورأيت أنوارا تسبح فى السماء وصوت طائرة يئز فى الفضاء ومصباحا ينير سطح البحر ، لكن نوره كان بعيدا ..

وهببت جالسا وأنا أصرخ ..

حدث هذا مرة واحدة ودون ارادة أو تدبير أو وعى بشيء بعينه ... وتمايلت قطعة الخشب وسقطت فى المياه لكنى سبحت بجنون وتعلقت بها من جديد ورحت أصيح وأصرخ لعل من فى الطائرة يسمعوننى ... فهل يسمعون ؟!

ومرت الطائرة ورحت ـــ عبثا ـــ أحاول البحث عن الهدوء فى نفسى دون جدوى .

عطشان .

كانت هذه هى الحقيقة الأولى فى حياتى فى تلك اللحظات ..

لم تعد تدهشنى كلمة «حياة» ، كما لم تدهشنى من قبل كلمة موت ..

اختفت الطائرة وزحف الخوف من الألم وسيطر على تماما ..

قتل كثيرون وماتوا وبدأت أرى الماضى بوضوح فركبنى الرعب فربما كان ذراع أحدهم يسبح الآن بجوارى ... العطش يحرق حلقى وصدرى ولسانى ، ونسمة رطبة تهب ... وقد ابتعد الموت تماما فأنا أعرفه ووقفت على حافته وشممت رائحته وعايشته ، ستتزوج ابنتى عندما تكبر وستقول أن أباها كان جواب آفاق تركها وذهب ولم يعد ... ستقول أحيانا أنى مجرم فلماذا أتيت بها الى هذه الدنيا ثم رحلت عنها ... ستحزن زوجتى حينا ثم تهدأ ثم تستسلم للحياة ، وقد تتزوج غيرى فالغيظ يأكلنى ولابد أن أعيش ..

لست ميتا ، هذا حق فأنا أعرف الموت وهو بلا عذاب ولاغيرة ولا ألم ..

حولى فضاء يحويه فضاء والفضاء لايسمع ..

من أين غربت الشمس لأحدد الشرق من الغرب والشمال من الجنوب فالنجوم قد عادت فأبتعدت وظللتها سحب خفيفة كانت تتهادى فى بطء قاتل . ثم ذهبت الغيوم والسحب وبقيت النجوم مختلطة بعضها بالبعض تتحرك وتذهب وتروح وتجىء فلا تترك على صفحة السماء علامة تهدى ... يعود الموت هذه المرة حثيثا ليجذبنى الى حافته لكنى أرفض .

وعلى البعد شبح ... لا ... انه سراب ... بل شبح ... بل

سراب ... بل شبح سفينة وأضواؤها تقترب ... عدت الى القفز من فوق سطح قطعة الخشب واحتوتنى المياه وصرخت لكن يدى لم تترك قطعة الخشب ... تبدو لى الحياة على ظهر السفينة بالرغم من كل شىء جميلة ، وأجمل مافيها أن الذين فوقها يتنفسون ويسعون .

متى تغرق هذه السفنية ؟!

ضوء ينبثق من فوق سطحها ليستلقى فوق المياه فيزداد الألم فأتاوه ولاأنادى وأذعر وأرتجف ثم انفجر فى صراخ هستيرى : أنا هنا فالحقونى ..

الضوء الباحث يدور هنا وهناك ، يرتفع وينخفض ، يسبح يمينا ويسبح يسارا ، وضوء آخر معه وصوت صفارة السفينة يدوى فى فضاء الليل فأرد عليه بصوت مبحوح وصرخة متهالكة وأحسن من جديد بدبيب الموت يلحقنى فأصرخ رافضا .

السفينة تمضى وأطراف الضوء تلامس أطرافى لكنها تبتعد مسرعة وهى تصم عن صرخاتى آذان كل من فيها .

هدنى اليأس فقد ابتعدت ولاأمل .

لو أبكى ! ...

أمهلنى الموت لكن الحياة لم تعطنى الفرصة لأعتذر لابنتى ، فهما نقيضان عبثا أن يتفقا ..

أراها نائمة وقد تركت أطرافها ملقاه فى كل جانب كعادتها ... قبلة واحدة منها ونظرة لزوجتى ولسوف تفهم وتوقن أن لاذنب لى فيما حدث ..

انفجرت السفينة واشتعلت النيران ووجدت نفسى فى أحضان الموت فلم أقاوم وأعطتنى الشمس فرصة للحياة لكن الحياة ترفضنى ..

يذهب العطش ومعه الألم وتعود عيناى لتحملقا فى السماء وينفصل جسدى من جديد عن ذاتى ويحيط عقلى ضباب كثيف فلا شىء ...

لاسمع ولااحساس ولاارادة غير ارادة الحياة ، فقد بدا لى الموت وحشا يريد التهامى ، سالت دموعى لكننى لم أحس بسخونتها فوق وجهى وتجمدت أطرافى وحواها الموت وهبت نسمة فتمايلت السماء أمام عينى وأحسست بالظلام يحوطنى ... ظلام ليس كالظلام ... وحافة ليست فيها نيران والنجوم تقترب وتقترب ... والدنيا ... وأبى يبكى ... وأمى تولول ... وأخى لاه عنى بحبه ... وابنتى تسأل عنى ..

ولاجواب ..

١٩٦٤

# رقصة الصباح الباكر

ــ ١ ــ

فتح باب البار وطار منه جسد انسان ..

طار الجسد فى الهواء ثم هوى الى الأرض المبللة برذاذ المطر ..

ورغم ازدحام الشارع بالعابرين والواقفين والمتسكعين ، لم يتحرك أحد من مكانه ، وتحولت كل العيون نحو الرجل الذى كان يتلوى بالألم على أرض الشارع ، وظل كل شيء كما هو ... الأضواء الباهرة ، الألوان الزاهية ، والهمسات الغامضة ، والموسيقى الصاخبة ، ورذاذ المطر الخفيف ..

كان الجسد لبحار صغير السن ، ذقنه لم تنبت بعد ، وجهه الدقيق التقاطيع يتمرغ فوق البلاط المبتل ... وكان جسده يتلوى فى تشنجات تتلوها زمجرة يفرغ بعدها مافى جوفه ..

وماهى الا ثوان حتى انفتح الباب مرة أخرى ، واندفع منه بحار آخر ، وكان وراءه ثلاثة رجال ظلوا يدفعونه ويدفعونه حتى سقط فوق زميله .. ثم استداروا عائدين حتى اختفوا وراء الباب دون أن ينفض أحدهم يديه !

وأخرجت امرأة رأسها من صدر صاحبها ، ونظرت الى الشايين وقد تكوم أحدهما فوق الآخر ... وأطلقت على الفور ضحكة شديدة المجون ، لم تلفت نظر واحد من الناس ..

— ٢ —

كان الجو شديد البرودة ، والموسيقى تصرخ من خلف الأبواب ، ورائحة الشواء تملأ الأنوف ، والأفواه تلتهم الفطائر الساخنة ، والأسنان تطحن لحم الأخطبوط فى لذة غريبة .. والكل يضحك!

كان الناس يمرون من فوق الشابين الراقدين على الأرض وهما يغنيان ويتقيآن ويضحكان معا ... ثم تحركت كل العيون نحو بحار طازج الهيئة ، وجهه أسمر ، سحنته مستطيلة شديدة القبح ، وكان شعره خشنا كأسلاك محترقة وملابسه شديدة الأناقة ، يرتدى معطفا فاخرا ، وتحت أبطه لفافة ..

توقف البحار فوق رأس الشابين وراح يرقبهما بابتسامة هادئة ، ثم استدار نحو البار ، وكان واضحا أنه لم يشرب كأسا واحدة!

— ٣ —

دفع الرجل القبيح باب البار بكتفه فأحتوته على الفور سحابة الدخان فى الداخل ، وتحركت عيناه فى المكان بسرعة وتذبذبت نظراته عند مائدة يجلس اليها بحار وامرأة ، وقبل أن تستقر عيناه فوقهما تماما ، انطلقت همسة نخست المرأة فى جنبها :

«لولا ... لولا!» ..

واستدارت لولا نحو الباب فرأته ، واطلقت على الفور صيحة التفت لها الجميع :

«جامبون!»

توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، والتفت أفرادها مع الجميع نحو الباب ، وكان جامبون لايزال واقفا هناك كملك ، طويل القامة عريض الكتفين فاخر الهيئة ، ثابت النظرات ... وانحنى له أفراد الفرقة جميعا الا

عازف الكمان ، لكنهم عندما بدأوا فى عزف مقطوعة وقورة ترحيبا بجامبون ، شاركهم فى العزف بحماس!..

عندما انتهى اللحن كانت المرأة تمزق اللفافة فى فرح غامر ، ومالبثت أن شرعت على الجميع معطفاً من الفرو شهقت له احدى النسوة ، وحملقت فيه أخرى ، وقلبت ثالثة شفيتها وهى تدير وجهها الى بعيد ... وقال رجل كان يلوك فى فمه سيجاراً :

«دب حقيقى ... حقيقى!» ..

وسرعان ما أعدت مائدة جامبون فى ركن خاص ، وغمرت وجه الرجل القبيح ابتسامة زادته بشاعة ... كان نصف الوجه الأيسر مشقوقا ، وكان الجرح القديم قد ترك فى صدغه أخدودا شديد الاحمرار يمتد حتى بداية العنق ... وانتابت المكان موجة من الفرح الغامر ، وكانت المرأة لاتستقر على حال ، كانت تتحدث وتدخن وتضحك وتلمس معطف الفرو فى حنان ، ثم تهمس بين الحين والحين كأنها تحلم أو تصلى أو تغازل حبيبا ... فيرد جامبون على همساتها بغمغمة يلوى بعدها شفتيه ، ثم يهمس متمتما :

«ولاتفكرى!» ..

كان يبدو للجميع شديد الوقار ، لكنه بدا للناس أقل وقارا عندما شرب كأسه الثالثة ، وبعد الكأس الرابعة راح يميل على المرأة ضاحكا بصوت عال ، وكان يقبلها ، ويهمس فى أذنها ، ويعض أصابعها ... وكانت اذا ضحكت لمداعباته ، واذا بادلته القبلات ازداد احمرار الجرح فى وجهه ، وازداد منظره قبحا وبشاعة ..

— ٤ —

فى الخارج كان أحد الشابين قد استطاع أن يتحامل على نفسه ويجلس مترنحا ، وبدأ وجهه الوسيم ملطخا بطين الأرض ، ثم رفع رأسه نحو

السماء وراح يستقبل المطر بوجهه ، وافترت شفتاه عن ابتسامة سعيدة ، ورفع كفيه فى مرح وهو يغسل وجهه بالمطر ... ثم تحولت ابتسامته الى ضحكة صاخبة ، وصاح بكل صوته مناديا :

«ماما!» ..

وأحس بعدها بشيء ساخن ينسال من عينيه ، فانتابه الفزع ، وصاح مرة أخرى :

«ماما ..»..

فتململ صاحبه وكان لايزال ممددا فوق الأرض ، واعتدل فى رقدته ، ووضع كفيه تحت رأسه ، وانثنى جسده حتى أصبحت ركبتاه فى صدره ، وتمتم متسائلا بصوت خفيض :

«ماما؟!» ...

## ـ ٥ ـ

عندما انتقلت المرأة من مكانها لتجلس فوق ركبتى جامبون كفت الموسيقى عن العزف ، والتفت جامبون نحو الفرقة وكانت عيناه شديدتى الإحمرار ، ثم صاح يطلب لكل منهم كأسا ، ويطلب لنفسه لحنا ...

وانحنى الجميع فى احترام ووقار ، وبدأوا يعزفون لحنا هادئا ، وكان عازف الكمان أشدهم اندماجا ، فقد لمحت عيناه شيئا يخرج من جيب جامبون ليندس فى صدر المرأة ، وتعثر القوس فى يده لبرهة ، وجذبت المرأة شفتيها من بين شفتى جامبون واستدارت نحوه ، والتقت عيونهما فى نظرة عاد بعدها كل شيء الى حاله ...

كانت كثافة الدخان تشتد لحظة بعد أخرى ، وكان الليل قد انتصف منذ ساعة أو يزيد ، والصخب يزداد ، والضحكات تتعانق ، وكان جامبون مفتوح الشهية لكل شيء ... كان يجرع الكأس بعد الكأس ،

ويدخن ويأكل ويقبل المرأة فى وقت واحد ... ولقد بدا للجميع سعيدا غاية السعادة ، وبدت المرأة لعينيه أشد منه سعادة !.

ـ ٦ ـ

ترنح الشاب الثانى جالسا بجوار صاحبه على أرض الشارع ، وراح يسأله عما حدث فى صوت متلعثم ، ثم سأله عن اسمه ، ثم صافحه قائلا ان له صديقا يحمل نفس الاسم ، وتوقفت بجوارهما امرأة كان ثوبها مشقوقا حتى الخصر ، ثم مالت نحوهما وهى تسأل ماضغة شيئا فى فمها :

«معك فلوس؟!»..

ولم يبد على أحدهما أنه سمع سؤالها ، فانثنت الى الامام أكثر وأعادت سؤالها بصوت أعلى دون جدوى ... فبدا على وجهها الضيق الشديد ، ومدت يدها الى جيب الأول وراحت تعبث فيه ، ثم خرجت يدها خاوية ، ثم ركعت على الأرض وهى تسب وتلعن وأخذت تفتش جيوبهما جميعا ... وبجوارها وقف رجل أنيق الحذاء ، وعندما رفعت اليه عينيها هزت كتفيها وقالت وهى تنهض :

«ولاحتى سجائر!» ..

وما كادت تخطو خطوة حتى جمدت فى مكانها ، وترقرقت عيناها بسرعة فوق وجه كان صاحبه يخوض فى زحام الشارع من بعيد ، كان الوجه شديد الوسامة ، والرأس متناسق الملامح ، والشعر مهدل فى لا عناية ، والملابس موضوعة فوق الجسد المفتول كيفما اتفق ... وكان القادم بحارا يحمل تحت ذراعه لفافة كبيرة ، وكانت عيناه الزرقاوان تنفثان المرح ، وخطواته نشيطة ..

ـ ٧ ـ

توقفت عينا البحار الوسيم فوق وجه جامبون لثوان خاطفة ، واخترقت سحب الدخان همسة نخست المرأة فى جنبها :

«لولا ... لولا ..» .

واستدار وجهها نحو الباب فى لهفة ، ومالبثت كل العيون أن تحولت مع صيحتها المرحة :

«شارك !!»

كان الجميع يعرفون ان هذا هو الاسم الذى اطلقوه على القادم الوسيم ... اطلقوا عليه اسم سمك القرش لشراسته الرهيبة فى العراك !!

وتوقفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، وانحنى أفرادها للقادم الجديد ماعدا عازف الكمان ، وبدأوا يعزفون لحنا وقورا تحية له ... وعندما انتهى اللحن ، كانت المرأة تفض اللفافة الجديدة لتشرع على الجميع رداء كان يبرق تحت الأضواء الخافتة ، وتعالت صيحة امرأة من ركن فى المكان :

«كلاب!» ..

وهمست أخرى فى كأسها :

«مغفلين!»..

وصاحت فتاة فى بحار كان يقف بجوار البار :

«سيجارة... سيجارة!»..

وأصبح جامبون يجلس على المائدة وحده ... وبدأ يعب من زجاجة الخمر بلا توقف ، وبدأ احمرار الجرح فى وجهه يزداد وكأنه ينزف دما لايسيل ، وجلجلت فى المكان ضحكة البحار الوسيم وهو يجذب «لولا» الى ركبتيه ويلتهم شفتيها فى نهم ، ثم أوقفها أمامه ووضع الرداء حول كتفيها وراح يتفرج عليها فى فرح ... وعندما احتلت الزجاجة مكانها فوق المائدة ، قبض على عنقها بكفه ، وراح يفرغها فى جوفه !

— ٨ —

حاول أحد الشابين فى الخارج أن ينهض واقفا لكنه لم يستطع ، وتقلب الآخر فوق ظهره وفتح فمه للسماء يستقبل فيه المطر ، وتعثر فيه

رجل كان يمضى مسرعا ، ثم توقف وراح يمطره بالسباب فابتسم ، ثم مضى الرجل فاستدار نحو صاحبه ومد له كفه وطلب مصافحته مرة أخرى ... وعندما سأله عن سيجارة ، راح كل منهما يبحث فى جيوبه عبثا ... وكانت المرأة ذات الثوب المشقوق لازالت تقف بالقرب منهما ، وكانت السيجارة بين شفتيها قد احترق نصفها ، فأخذتها بين أصابعها ، وانحنت على الشاب الراقد ودستها فى شفتيه ... ثم بصقت بجواره وهى تبتعد!

— ٩ —

عندما صاح جامبون مناديا ، أيقن الجميع أن شيئا لابد سيحدث ، كانت زجاجته قد فرغت ، وعيناه اشتد احمرارهما ... وعندما همست المرأة فى أذن البحار الوسيم ضحك هذا بصوت عال ، ثم التفت نحو جامبون ورفع الزجاجة فى يده صائحا :

«فى صحتك»..

ولم يرد جامبون التحية ، فهز شارك كتفيه بلا مبالاه ، ثم رفع الزجاجة الى شفتيه ، وصفع المرأة فوق مؤخرتها وهو يدفعها نحو جامبون ، وأصبح الآن وحيدا ، لكن ابتسامته لم تختف ، وظلت عيناه الزرقاوان تبرقان بالمرح .

— ١٠ —

نهض الشابان وكل منهما يستند الى الآخر ، ثم ترنحا وهما يعودان الى البار ، وهوى كل منهما على الباب فتلقفتهما أذرع رجال كانوا فى الانتظار ، وسرعان ما ارتدا الى الشارع مرة أخرى ، ودار جسداهما واصطدما فى عنف ، وكادا يسقطان على الأرض ... ثم تمالكا وكل منهما ينظر الى الأرض باسما ، وتعالت من خلف الباب نغمة صاخبة ، فتراقصا فى مرح ، وانزلقت قدم أحدهما فسقط على ركبتيه ، لكنه سرعان مانهض مرة أخرى ... وأخذ يصاحب زميله فى الرقص ، وكان باديا أنه فى حالة أعياء شديد .

— ١١ —

فى الداخل كان كل شىء يغلى بالغضب ، وكانت المرأة قد عادت الى البحار الوسيم ، وكانت شفتاها مدفونتين داخل شفتيه ، وكان جامبون يصيح طالبا كأسا جديدة ، رغم أن زجاجته الثانية لم تفرغ ... وتعثر اللحن فى يد عازف الكمان ، وكان رواد المكان يتناقصون ، والحديث بين الرجلين أصبح مباشرا ..

«جاااامبوون!»

وعندما التفت جامبون نحو البحار الوسيم اختفى الجرح فى الظلام ، وبدا وجهه أقل قبحا بكثير ، ورفع هذا كأسه فى يده ، فرفع جامبون زجاجته وقذف بها وجه البحار الوسيم .

رغم أن الزجاجة أصابت الحائط وتناثرت شظاياها ، فقد توقف العزف ، وتقهقر الرجال والنساء على السواء ، وأوسع البعض مكانا للعراك .. والتصقت ظهور الجميع بالحائط ، ونهض البحار الوسيم من مكانه ، ووقف جامبون متحفزا ، وكان يبدو كوحش بحرى خرج لتوه من بحيرة خمر قوية!

— ١٢ —

كان الصخب قد خف فى الخارج وانطفأت الأنوار وأصبح الشارع معتما ..

وعند ناصية الشارع كان الشابان يترنحان ... والتفتا ناحية البحر عبر الطريق المنحدر ، ورفع أحدهما رأسه نحو السماء وتساءل عن المطر الذى كف ... وكان واضحا أنهما أفاقا وأن كانا يستعذبان الترنح والضحك ... ثم تنفس أحدهما ملء صدره ، وسرت فى بدنه رعدة فدس يديه فى جيبى سرواله ... وغمرت وجهه سحابة من كآبة جاءت بلا سبب واضح ، فنظر الى صاحبه وسأله عما به ، فلم يرد ..

وتوقفا تماما عن السير ... ثم نظرا الى البحر الممتد بلا نهاية وكانت أضواء السفن تنتشر هنا وهناك فى حبات متلألئة ... وضحك أحدهما وهو يتمتم :

«ماما؟!» ..

وقال الثانى شيئا ، ثم راحا يضربان الأرض بأقدامهما نحو الميناء فى صمت!

## ـ ١٣ ـ

انقشعت سحابات الدخان ... وكان الرجلان راكعين فوق الأرض فى وسط المكان وقد بلغ العراك ذروته ، وكان الجرح هذه المرة ينزف دما حقيقيا ... وكانت ملامح البحار قد شوهت ببقع زرقاء ، وبدا للحظات أن أحدهما لابد سيقتل الآخر ... وعندما توقفا عن العراك فجأة ، تململ الواقفون بحذاء الحائط ... وانتهت الفرقة الموسيقية من جمع آلاتها ، وحمل عازف الكمان آلته تحت أبطه وهو يشق الطريق وسط المقاعد نحو المرأة ، وكانت هى تحمل معطف الفرو وتضع الرداء على كتفيها، وعندما تأبطت ذراع العازف كان البحار الوسيم يهوى بيده من جديد فوق الجرح اللزج ... وبدا كأن جامبون لم يشعر بشىء على الاطلاق ... كانت عيناه مسمرتين عند الباب ، ثم صاح فى المرأة بصوت كالزئير :

«لولا ... لووولا»...

وازدادت الابتسامة اتساعا فوق وجه البحار الوسيم عندما أرسلت المرأة لكل منهما قبلة على أطراف أصابعها ، وتحولت الابتسامة الى ضحكة صاخبة عندما اختفت المرأة خلف الباب ..

وبدأ عمال البار يتهيأون للانصراف وكان البحار الوسيم جالسا على الأرض وقد تهدلت خصلة من شعره الذهبى ، وظل يضحك ويضحك حتى ضحك معه جامبون ، وتحول الضحك الى صخب ... ونهض

جامبون نحو المائدة واختطف زجاجة خمر ... ثم عاد الى صاحبه الذى فتح فمه الى أعلى ، وأخذ جامبون يصب الخمر فى الفم المفتوح وهو يضحك ، وفرغت الخمر وبللت وجهيهما وملابسهما ... ووقفا وسط المكان وكل منهما ينظر الى الآخر فى مرح ، وعم الصمت لثوان تحرك بعدها كل مهما بحو صاحبه ، وارتفعت أذرعهما فى الهواء ثم هوت فوق أكتافهما ... واستغرقا فى الضحك من جديد!

— ١٤ —

راح الشابان يصعدان سلم السفينة فى بطء عندما دوت صفارة سفينة أخرى ، وبدت السماء صافية شديدة الصفاء ... وما أن وصلا الى سطح السفينة حتى توقف كل منهما وأخذ ينظر الى الأفق البعيد ، كان الفجر يبزغ ، وكان كل منهما يبحث فى جيوبه عن شيء ما ، وقال أحدهما بصوت خفيض :

«كانت ليلة جميلة!» ..

وغمغم الآخر وهو ينفض يديه من البحث :

«سيجارة ... سيجارة!» ..

ثم بدا على وجهه الضيق ، وانكمشت ملامحه وبدا كأنه يتألم ... وانحنى فوق السياج ، وتأوه ، وكان يبدو أنه يتقيأ أمعاءه!

— ١٥ —

اكتشف الرجلان فجأة أن الفجر يبزغ ، فانتابتهما نشوة عارمة ، وكانا يقفان عند ناصية الشارع المنحدر نحو الميناء ، وتذكرا المرأة فى وقت واحد ، ونطقا اسمها معا ، ثم انفجر البحار الوسيم ضاحكا :

« الرداء ... الرداء ! »

وصفق جامبون وهو ينثنى على نفسه من كثرة الضحك ، وكان يصيح :

«المعطف ... المعطف !»..

ثم راحا يرقصان فى الشارع بلا أنغام ، ويدقان فوق أرض الطريق المبتلة ... ويغنيان!

١٩٦٣

# لأن لنا قلوباً مثلكم

تقولون جميعا أننا رجال غلاظ القلوب متحجرو العواطف ، لانفعل شيئا فى الدنيا سوى شرب الخمر واصطياد النساء ومقاومة الأمواج فى شجاعة!

سأحكى لكم اذن هذه الحكاية حتى تغيروا أفكاركم قليلا ... نحن نحب الخمر حقا ، ولكن ... هل منكم من لايحبها ويشربها؟ ... ونحن نعشق النساء أيضا ، فهل منكم من لا يعشقهن؟... أما عن مقاومة الأمواج ، فان أى طفل يستطيع هذا اذا عاش فى البحر عشرين عاما كاملة!

سأحكى لكم هذه الحكاية حتى تؤمنوا ان لنا قلوبا مثل كل البشر .

فعندما جاءت ليلة العيد كانت سفينتنا فى ميناء بعيد ، أبعد بكثير من أى مكان سافر اليه أحدكم ... فالبعد فى حياة البحارة لايقاس بالمسافة ، لكنه يقاس بالزمن ... كنا قد غادرنا آخر موانىء الوطن منذ شهرين ، وكان أمامنا شهران آخران حتى نعود مرة أخرى ، فمن منكم سافر الى مكان يبعد عن بيته أربعة أشهر فى سفر متواصل؟!

جاءت ليلة العيد اذن ونحن بعيدون ، ولابد أن كلا منا كان يشعر بمثل مايشعر به الآخرون ، فلقد ظللتنا جميعا كآبة شديدة . وكان كل منا يتجنب النظر فى عينى صاحبه ، وساد السفينة نوع غريب من الصمت ، وكان أحدنا اذا التقى بالآخرين تمتم بصوت فاتر : «كل سنة وانت طيب !» ... وقد يسمع ردا وقد لايسمع ، وهو فى كلتا الحالتين يمضى فى طريقه ...

وجاء المساء فارتدى البعض ملابسهم وغادروا السفينة فرادى ، وبقى البعض متناثرين هنا وهناك ، يقتلون الوقت فى الصيد أو اجترار الصمت ... ولم يحاول أحدنا أن يسأل صاحبه الى أين ، ولو كان أحدكم الها أو نصف اله لعرف أن كلا منا كان يفكر فى نفس الشىء ، وربما بنفس الاسلوب والكلمات ... وكنت أنا واحدا من الذين غادروا السفينة ، غادرتها على عجل وكأنى أهرب من شىء بعينه ، ورحت أضرب فى شوارع الميناء على غير هدى ... ولم أفكر فى الخمر ساعتها ، ولم أفكر فى النساء أيضا ، وأعجبنى حذاء كان معروضا فى أحد المحلات فاشتريته ، كان صغيرا دقيقا يبدو كلعبة ، لكننى كنت واثقا ــ ولاأدرى كيف ــ أنه سيعجب ابنتى وأنه سيناسب قدمها تماما .

ولابد أنكم جميعا تسكعتم ذات يوم فى شوارع المدينة ، ولابد أنكم تعلمون أيضا أن المدينة مهما كبرت فان لها حدودا ونهاية ، ولابد أن كلا منكم يعرف مدينته شارعا شارعا ، وزقاقا زقاقا ... فما بالكم برجل يعرف كل شوارع وأزقة كل موانىء العالم؟!

بعد ساعات كان التعب يهدنى تماما ... ولم أكن أرغب فى العودة الى السفينة مبكرا ، وكان حذاء ابنتى يثقل ذراعى ويضايقنى رغم صغره وخفة وزنه ، ولم تعد فى الميناء شوارع لم أذرعها ، وبدأ حلقى يجف ، وبدأت أشعر بوطأة الكآبة تثقل صدرى ، وكان لابد لى من كأس ...

كأس أو كأسان ثم أعود فى هدوء!

ولابد أن كلا منكم يعرف تماما ذلك المكان الذى يلائمه اذا كان وحيدا ، أو يرغب فى الاختلاء فيه الى نفسه ... هذا المكان بالنسبة الى يكاد يكون فى كل موانىء العالم نسخة واحدة لا تتغير ، وفى بعض الأحيان كنت أظن اذا ما أفرطت فى الشراب بعض الشىء ، أن هذا المكان واحد فى كل الدنيا ، وأنه يتنقل معنا ويتبعنا من ميناء الى ميناء كالقدر .

هناك ــ فى هذا المكان الواحد الذى لايتغير ــ ستدهمك تلك الرائحة الغريبة التى تفتح شهيتك للطعام وتدفعك الى الرغبة فى التقيؤ فى نفس الوقت ... الشوارع الضيقة الصغيرة التى تتلوى بين الحيطان كثعبان أسود ، الضوء الخافت الذى يزيد من وطأة الظلام على العين ، البيوت الواطئة الصغيرة ، الأبواب الضيقة المداخل ، ضحكات النساء العاريات خلف النوافذ والأبواب ، وغناء السكارى ، وسباب الرجال ذوى المدى الحادة والعيون الغائرة والصدور العارية والسجائر المشتعلة بين الشفاه!

فى هذه الأماكن المتشابهة فى كل موانىء العالم ، تستطيع أن تخلو الى نفسك فى صندوق من تلك الصناديق المعتمة التى تتناثر هنا وهناك ، وتستطيع أن تشرب فيها أقوى أنواع الخمور فى الدنيا وأشدها رخصا فى الثمن والجودة معا ، وستجد هناك لابد رجلا بدينا ، يضع فوق صدره فوطة قذرة ، والموائد من خشب متهالك ، والمقاعد كانت فى الأصل صناديق لزجاجات فرغت ... ولابد أن يكون للرجل البدين زوجة تساعده فى عمله ، ولابد أن تكون هذه الزوجة نحيلة شاحبة الوجه مشدودة الجلد ، وقد تصادف عند الباب امرأة ، وستراها وأنت قادم شديدة القبح والدمامة ، وستقابل نظرة الاحتقار منك بابتسامة ، فهى تعرف انك بعد كأسك الثالثة ستراها جميلة ، ولسوف تجدهن ــ نساء هذه الأماكن ــ طويلات البال ، متسامحات وكريمات ... فالواحدة منهن ستعرض عليك

نفسها فى البداية ، ولن تغضب منك اذا رفضتها ، وستطلب منك سيجارة ، واذا قدمت لها كأسا أو كأسين ، تصبح على استعداد لأن تسمعك طوال الليل دون تأفف!!

قادتنى قدماى فى ليلة العيد هذه الى هذا المكان دون ارادة ... دخلت الصندوق المعتم وطلبت من الرجل البدين كأسا دون أن أنظر الى وجهه ، وصب الرجل لى كأسا ووقف ينتظر حتى شربته فى جرعة ، ثم صب لى الكأس الثانية ... ومضى!

ولابد أن شيئا ما يعكس على وجه الانسان مايعتمل فى نفسه ، ان هذا الرجل البدين ـــ من دون خلق اللّه جميعا ـــ يشعر بما نريد من مجرد نظرة ، ونفس هذا الرجل البدين يصبح على استعداد لأن يقدم لك الكأس الأولى ثم يمضى اذا رأى أنك جئت مترويا ... وأنا لم أفكر فى شيء كهذا فى تلك الليلة ، فعندما أمسكت بكأسى الثانية وضعت الحذاء بجوارى فى رفق ، وقدمت سيجارة للمرأة التى وقفت أمامى باسمة ، وعندما أشعلتها لها نفثت الدخان بين عينى تماما ثم سألتنى فى رفق :

«كأس؟!»

هززت رأسى نفيا فمضت عنى دون كلمة ، ورفعت الكأس الى شفتى فجاءنى البدين بكأس جديدة ، ودبت أقدام زوجته فوق الأرض كالماعز ، ثم وضعت أمامى طبقا مليئا بأشياء تؤكل ... ثم ابتسمت .

ورغم أنها لم تفه بكلمة ، الا أنى رددت على النظرة والابتسامة بهزة من رأسى ، فتمتمت بصوت رفيع ثاقب :

«جميلة ... عندى جميلة!»

كانت تعرض خدماتها دون مقابل ، فهززت لها رأسى رافضا وجرعت الكأس الثالثة ، فجاءنى البدين بكأس جديدة ، بدت لى المرأة

عند الباب لابأس بها!

وقعت عيناى على الحذاء الصغير فرحت أفكر فى دعوتها على كأس ... لم أكن قد رأيت وجهها وسط الوجوه التى تناثر أصحابها فى الصندوق المعتم من حولى ، بحثت بعينى فى المكان عن شىء أراه ، فاصطدمتا بوجه كان يبتسم ... وجه شاحب شديد الاصفرار ، له عينان مستطيلتان ، وشعر فاحم السواد ، وكان صاحبه يحمل فى يده كأسا ، وعلى شفتيه ابتسامة واسعة .

لست أدرى كيف حدث هذا بالتحديد ، فعندما رفعت كأسى الى شفتى برقت العينان المستطيلتان ، ورفع الرجل كأسه ثم صبها فى ابتسامته الواسعة!

وكان طبيعيا هذا الذى حدث بعد ذلك ، فقد طلب لى الرجل كأسا ، فبادلته التحية ، ثم انتقل الى مائدتى ـــ أو انتقلت أنا الى مائدته وهذا أرجح ـــ وطلبنا زجاجة كاملة بعد أن تصافحنا ، وكان كل منا يبدو سعيدا برفقة صاحبه .

من أول وهلة عرفت أنه لايتحدث لغتى ، كان يابانيا أو صينيا أو أندونيسيا أو مالاويا أو كوريا لكنه لم يكن هنديا ...

ورغم هذا رحنا نتبادل الحديث بالأيدى والأصوات ونحن نشرب ، لم يكن يتحدث لغة افهمها ولم اكن اتحدث لغة يفهمها ورغم هذا اتصل بيننا الحديث بالأيدى والأصوات ونحن نشرب ... وعرفت أنه يعمل على سفينة بضائع ، وأنه متزوج وله بيت ، وعندما أخرج صورة زوجته وجدتها شديدة الجمال فاتنة ، وصافحته واقفا ، وشربنا معا نخب الزوجة البعيدة .

قبل أن يفرغ نصف الزجاجة دب فى المكان شاب طويل فارع الطول ، كانت خطواته قوية بحيث التفت اليه كل من فى الصندوق المعتم ،

كان نحيفا ، أصفر الشعر ، أزرق العينين ... وقلنا أن هذا الشاب لابد من الشمال ... قد يكون فرنسيا أو هولنديا أو دانماركيا أو نرويجيا أو سويديا وربما يكون ألمانيا ، لكنه ليس انجليزيا بحال من الأحوال ، لأنه لم يكن متأنقا ، وكان جلده غير مشدود ، ولم تكن أذناه كبيرتين !

قلت هذا لصديقى وقاله هو لى ونحن نشرب الكأس الأولى من الزجاجة الثانية ، وحملت الحذاء الصغير ووضعته تحت المائدة ، كان الشاب يجلس بالقرب منا وكان صاحبى سعيدا ، فعندما تلاقت نظراتهما رفع له الكأس فى تحية صاخبة ، ورفع الشاب كأسه وصبها فى فمه بسهولة ، فقررنا على الفور أنه بحار عظيم ، ودعوناه لمشاركتنا المائدة ..

وتأكد لنا على الفور صدق ظننا فيه ، كان يتحدث لغة غليظة الحروف لم نعرف منها حرفاً غير اننا كنا نفهم مايريد ان يقول ... جاءت المرأة لتطلب سيجارة فأعطاها كل منا واحدة ... وقال الشاب أن الاسبانيات هن أجمل نساء الأرض على الأطلاق واشهاهن ، ولم يكن فينا من يفهم لغته ذات الكلمات الضخمة ، لكننا لم ننتبه الى ذلك ، فعندما قدمنا له كأسا ثانية طلب من الرجل البدين زجاجة ، وفرد ساقيه أمامه وراح يحكى حكاية ليلته الأخيرة فى برشلونة!

وقبل أن يتم صاحبنا الجديد حكايته ، اقتحم الصندوق المعتم رجل يترنح ويصيح بصوت عال ، وتوقف الشاب عن الحديث وهمس باسما : «أمريكى !»

عند الباب كان العملاق يقف بملابس زاهية الألوان ، وكانت رأسه لاتكاد تستقر على حال ، كقدميه ، وذراعاه طويلان كأنهما لغوريلا هربت من أدغال قريبة ، ولم يكن له شارب ... وعندما ترك جسده لساقيه ارتمى نحونا ، وكاد ينكفىء على الأرض لولا صاحبنا الشاب الذى تلقفه ، وضحك الرجل وتحدث بلسان معوج ، ثم جذب مقعدا وشاركنا مجلسنا ، وعندما قدمنا له كأسا صاح فى الرجل البدين أنه سيدفع حسابنا كله!

تذكرت الحذاء وقتها فتاقت نفسى للعودة الى البيت . ومددت يدى تحت المائدة ورفعته الى أعلى فى مرح ، رآه الجميع فتصايحوا وهم يسألون عن صاحبه ، ووقف الشاب يشرب نخب ابنتى ثم انحنى وطلب الزواج منها ، قلت لهم أن اليوم يوم عيد فانطلقنا جميعا نغنى فى وقت واحد!

وأبرز صاحبى الأول صورة زوجته مرة أخرى ، وتلعثم الأمريكى وهو يطلب منه يد زوجته الجميلة ، فضحكنا جميعا ... ووقف الشاب صائحا : «يحيا الحب!»... وقفز الأمريكى فوق المائدة وراح يرقص ، وانهمرت الكلمات من أفواهنا مختلطة بالضحكات الصاخبة ... ودعونا الرجل البدين على كأس فدقدقت أقدام زوجته كالماعز وهى تلبى طلباتنا فى سرور ... ولمحنا بحارا زنجيا فصفقنا له جميعا فى حماس ، واندفع نحوه الأمريكى ودعاه للشرب معنا مؤكدا أنه من أبناء الشمال ، وشرب الزنجى كأسه ثم طلب لكل منا واحدة ، وشربنا نخب أفريقيا ، ورأى الزنجى حذاء ابنتى فقبله ، وجاشت نفسى بحنين طاغ فرحت أغنى ، واكتشفنا أن الأمريكى خفيف الظل ، وأن صوت الزنجى رخيم ، وأن له حبيبة تنتظر عودته من سنين!

وعندما تسلل ضوء الصبح الى الزقاق فتحت احدى النسوة نافذة غرفتها وانهالت علينا بالسباب وطالبتنا بالسكوت ، فنهرها الرجل البدين وماءت زوجته فى وجهها وتبادل الثلاثة السباب ... وانطلقنا جميعا نضحك ، وأرسل كل منا للمرأة قبلة على أطراف أصابعه ..

وسرعان مااحتوتنا أزقة المكان وحواريه ، وكنا جميعا سعداء ، كنا نضحك ، ونغنى ، ونصيح ... وكان كل منا يلقى بذراعه على كتف صاحبه ، ونضرب الأرض بأقدامنا فى نشوة ، ونطأ مع الفجر فلول الظلام المتبقية .

فى صباح اليوم التالى ، اكتشفت انى نسيت الحذاء فى الصندوق المعتم ... وكانت السفينة فى عرض البحر .

# الحب يقتل نعيمه

ذهبت نعيمة ... ماتت!

ولو أن واحدا منا اختطفه الموج لما حزنا عليه مثل هذا الحزن ، ولما حاول أحد الرجال أن يقتل الآخر ، ولما اجتاحت السفينة تلك الثورة التى حسمتها نعيمة نفسها ، فأسلمت الروح ، وتركتنا جميعا فى فراغ الحزن القاتم!

لم تكن نعيمة ملكا لواحد منا بالذات ، كنا نملكها جميعا ، ونطعمها جميعا ... وكانت كلما تشاجرت مع حسن أو تشاحنت معه ، أحسسنا بالدماء تزغرد فى عروقنا بالغضب ورحنا نطارده ... وكان حسن هو الآخر ملك السفينة كلها ، كان صديق الجميع ، ليس له مكان معين يأوى اليه ، ولافراش معين يبيت فيه ، ولم تكن له مطالب ... كان يأكل ما نأكل منه ، ويشرب مانشرب منه ، واذا اختفت نعيمة عن عينيه ليلة أو ساعة تحول الى مجنون ، كان يريدها دائما الى جانبه ، وكان هذا هو مطلبه الوحيد!

عندما جاءا الى السفينة لأول مرة ، كان مجيئهما حدثا أهتزت له السفينة ... اشتراهما نور من احدى بلاد آسيا البعيدة .... كانا صغيرين دقيقى الملامح ، لايتميز أحدهما عن الآخر فى اللون أو الشكل ... غير أن

حسن مع الأيام أصبح رجلا بكل ماتحمل الكلمة من معنى ... كبر رأسه ، واستوت أذناه ... وازداد اخضرار عينيه ، وغزر شاربه ... وأصبح جسده جسد أسد ، وكان ذيله مبتورا غليظا يبدو وكأنه عقلة أصبع فى نهاية الظهر!

وعلى العكس منه كانت نعيمة ..

منذ جاءت ومواؤها الرقيق يهز مشاعرنا برقته ، كانت اذا جاعت لاتصرخ مثله ومثلنا ، ولاتملأ ممرات السفينة بالصياح ، كان يكفى أن تتمسح فى أقرب السيقان اليها فى رفق ، وأن تقول : «نوو!» مثل ملكة مرهفة الحس ... كانت نعمية هى أرق الأناث فى حياتنا على الاطلاق ... كانت دقيقة الوجه دقيقة الملامح ، أنفها الصغير ينبت وسط وجهها كبرعم لزهرة ستتفتح ، عيناها بلا لون محدد ، لكنهما تجمعان كل ألوان الدنيا الجميلة ... وكان جسدها ينسدل فى تناسق لين ، واذا سارت راح يتثنى ذات اليمين وذات اليسار بلا فجور ، وكان ذيلها يبدو مثل مؤخرة فستان عروس فى ليلة زفافها ..

وأصبح حبهما مضرب الأمثال ... ومبيتهما كل ليلة مبعث شجار بين الرجال ..

وكان على نعيمة أن ترضى الجميع ... فهى ليلة فى فراش هذا ، وليلة فى أحضان ذاك ، بالدور ... وكان صاحب الدور يبدو سعيدا كأنه عريس ، كان الواحد منا ينظف فراشة ساعة النوم ويجهز فيه مكانا لنعيمة ، وكان سعيد الحظ هو من يستطيع ابعاد حسن عنها ، فاذا انطفأ النور وساد السكون الا من طنين الآلات الدائرة بغير توقف ، استشعر الواحد منا دفء نعيمة فى أحضانه ... كانت تتمدد بطول جسدها اللدن الدقيق ، تحوطها ذراع الرجل منا فى حنان ، وينبعث صوت تنفسها فى

هدوء الليل كالنغم ... غير أننا غالبا ماكنا نفاجأ بحسن وقد تسلل — لايدرى أحد كيف — الى حيث تبيت نعيمة . وقد يصحو الواحد منا على جسده الضخم وهو رابض فوق الصدر تماما . وقد تحول صوت تنفسه الى زمجرة ، فاذا ماازحناه بعيدا ، ماءت نعيمة فى عتاب ، ثم قفزت وراءه الى حيث يذهب ... ودائما ماكانا يختفيان فى مكان لايدريه أحد !

نعيمة؟

كانت الأنثى الوحيدة التى أجمع الرجال على حبها ... ولاشىء كان ينغص علينا حياتنا سوى أنها لم تحمل مرة ، ولم تلد أبدا ... ولقد عذبنا هذا كثيرا ، وثار بعضنا على حسن ، واتهمه البعض بأنه ليس رجلا ، واقترح الباشريس أن نزوجها لقط غيره ... كنا نتوق جميعا لأن تلد لنا نعيمة عددا من الأولاد يملأ علينا حياتنا فى السفينة ... غير أن هذه الرغبة دائما ماكانت تختفى فى الليل ، عندما يتشاجر رجلان على مبيت نعيمة ، وتمضى ساعة أو ساعتان فنسمع صراخ صاحب الدور وهو يطرد حسناً ، ومواء نعيمة وهى تتبع حسن الى ذلك المكان الذى احترنا فى العثور عليه !!

ثم جاء مشمش ومعه فردوس!

ويوم جاءا ، حدث فى السفينة مالم يحدث فيها من قبل .

كان الباشريس هو الذى اشتراهما من احدى دول افريقيا السوداء ، وكان الرجل يصيح فينا وقد تجمعنا من حوله :

«ماهو لازمن عيال يملوا علينا المركب ... لازمن عيال ... والبت نعيمة عقره ، والواد حسن باين عليه خيبة ومش نافع!» ..

كان مشمش وفردوس صغيرن قذرين أسودين يبدوان وكأنهما متشردان عثر عليهما الباشريس على رصيف الميناء . كانا يبدوان منذ اللحظة الأولى وكأنهما دخيلان غريبان ... لم يكن لهما مواء كمواء حسن

أو نعيمة ... كانا اذا ماءا صدر منهما أنين ضعيف لايلبث أن يتقطع ويتمزق رعبا أمام زمجرة حسن أو صوت نعيمة الرقيق الصافى ..

... فى البداية ، شغلنا بمشمش وفردوس يوما أو يومين ، ثم عاد كل شيء الى حاله ..

عاد حسن ونعيمة يملآن علينا السفينة ، وانزوى مشمش وفردوس فى كابينة الباشريس وكأنهما آمنا منذ اللحظة الأولى أن أحدا لايريدهما هنا ... كان أحدنا اذا رآهما صرخ فيهما وطاردهما ، حدث هذا مرة ومرة ومرات .. فلم يعودا يغادران الكابينة أبدا ... واكتفيا بحب الباشريس الذى كان يكتم غيظه ، والذى أصبح لايجد لذة تعادل لذته وهو يحمل نور بالعمل ليل نهار ..

أيام وأيام كانت تمضى بنا دون جديد ، تشرق الشمس فى الصباح على زرقة المياه الصافية ، وتطل فى الظهر على موج صاخب أو مدفون ، وتغرب فى المياه البعيدة كل مساء ... ثم تشرق من جديد فى صباح اليوم التالى ...

أيام وأيام كانت تمضى بنا ... ولكن مشمش كان ينمو بسرعة ، وكان جسد فردوس يفور ويستوى ويترعرع ويمتلىء ليصبح متناسقا فى أنوثة متفجرة ، وكان وجهها يستدير فى حلاوة ، وامتلأ عجزها باللحم ، وأصبح جسدها يتثنى كلما سارت فى فجور لفت أنظار الرجال يوم تشاجر حسن مع مشمش ، وكاد أحدهما ان يقتل الآخر ..

هكذا انفجر كل شيء فجأة وعلى غير انتظار !!

وهبت على السفينة ريح دافئة يوم قال نور فى ثورة عارمة أن فردوس تهوى حسن ، وأنها تريد أن تخطفه من نعيمة ... كان نور غاضبا شديد الغضب ، كان ثائرا وهو يتحدث ... وكاد ذات ليلة أن يمسك بخناق

الباشريس الذى بدأ غضبه يجتاح السفينة والرجال ، والذى أصبح يهدد بتزويج مشمش لنعيمة نفسها!

وكان كل شيء محتملا الا هذا!

حسن يحب فردوس ...

نعم ...

كان الرجال يرونهما معا ويلحظان اختفاءهما فى متاهات السفينة التى لايعرفها سوى حسن .

ولكن أن يتزوج مشمش من نعمية ... فهذا مالايطيقه أحد ، ولايقبله رجل من الرجال .

«ومن غير مانمسك فى بعضينا ياجدعان ... وهى نعيمة ترضى بكده؟!»

قال أحدنا هذا وهو يشير نحو نهاية الممر حيث كانت نعيمة تقف وظهرها الى الحائط تصرخ فى مشمش بعصبية وهو يحاول التودد اليها .

واندفع نور يجرى نحوهما وهو يتخبط فى حيطان الممر ، وانقض على مشمش بقدمه فى ركلة هائلة كادت تصيبه لولا أن قفز هذا قفزة بارعة ابتعدت به عن الركلة القاتلة ... وجن جنون الباشريس ، واجتمع الرجال فى المساء فى جلسة صاخبة ، وارتفعت الأصوات ، وكان الجو فى الخارج عاصفا ، واشتد صخب الأمواج ، وصفير الرياح ... وكاد نور أن يقتل الباشريس ليلتها ، ثم اتفقا مع أول خيوط الفجر على حل أرضى الجميع .

لم يكن هناك مفر من هذا ... عزلنا حسن ونعيمة فى طوابق السفينة العليا ... وأبقينا مشمش وفردوس فى الطابق السفلى .. ونام الرجال ليلتها وذقونهم طويلة ، وكل منهم يحدث نفسه بحكاية بدت له غريبة!!

جاء العصر علينا والسفينة تتهادى فوق سطح شديد الهدوء ، وشاهد الرجال الباشريس فى مؤخرة السفينة وهو يضاحك نور ويقدم له سيجارة دون عتاب ... وكان أحدنا اذا سمع مواء حسن ، ونداء فردوس استغرق فى الضحك ... لكن أنين نعيمة بدأ يغزو القلوب .. كان أنينا غريبا لم نتعوده منها . وكادت قلوبنا تنخلع يوم صاح نور فى الميس الكبير أن بطن نعيمة منتفخة ... وأنها حامل فى ستة أولاد!!

كانت السفينة أيامها قد انحرفت الى المحيط وراحت تخب فيه نحو الشمال . وكانت ريح الشمال كلما هبت علينا أنعشت فينا ذلك الاحساس الغامض بالرغبة فى الانجاب ... وأصبح همنا جميعا أن نهيىء لنعيمة كل أسباب الراحة ... وكان نور يسأل الباشريس كل ساعة عما يجب عليه أن يفعله اذا ما حانت لحظة الوضع ... وكان مشمش يبدو فى الأيام الأخيرة شرسا كثير المواء متفردا جواب ممرات وأسطح ... وكان حسن قد عثر لنفسه على مخارج من الأسطح العليا الى الأسطح السفلى ... وتعلم مشمش كيف يقفز من فوق السياج الى أعلى ... وكما يفعل الآباء عادة عندما يستسلمون لطغيان الابناء ، بدأ الرجال يستسلمون أمام اصرار حسن وفردوس ، ومواء مشمش ، وأنين نعيمة ... وبدأ البعض منا اذا رأى شيئا هنا أو هناك أخفى هذا عن الآخرين ... وكانت بطن نعيمة تزداد انتفاخا ، وبدأنا نتراهن على عدد الأطفال ، وبدأ كل منا يتودد الى نعيمة ويدثرها ويطعمها اذا ما لجأت اليه وامتلأت السفينة من حولنا بالحياة ، ولم يعد المحيط موحشا ، وافتقد البعض منا ذلك الصمت الكئيب الذى كان يدثرنا اذا ما غابت السفينة فى البحر أسابيع ... وتعالت الضحكات ، وبدأ البعض يفكر فى الزواج اذا ماعاد الى الوطن يوما!!

ثم حدث ما حدث فى ذلك الصباح الغريب الذى ماتت فيه نعيمة!

كان باب الممر الايسر مفتوحا على مؤخرة السفينة ، وبدأ المحيط من خلفه مثل كرة لامعة معلقة فى فضاء بلا نهاية ... وكان نور يقف قبالة الباشريس وفى يده سكين ، ومن بين شفتيه كان الغضب يتناثر كالرصاص الملتهب ...

«أنا قلت لك ياباشريس ... أنا قلت لك أن ده حايحصل!»

فى البداية ـــ وعندما بدأنا نتجمع من حولهما ـــ لم يكن أحدنا يفهم شيئا مما يدور ... حتى حانت من أحدنا نظرة الى كابينة نور المفتوحة الباب ، فشهق!

كانت نعيمة ممددة فوق الفراش وسط بركة من الدماء .. وكانت عيناها باهتتين تطل منهما نظرة تصرخ بالألم .

«دى بتولد!»

وصرخ الباشريس فى وجوه الجميع :

«عقل نسوان ... هى اللى جابته لنفسها!»

«فردوس هى السبب ... هى اللى جريت وراه!»

«لم لسانك يابحرى ... ايه اللى نزل حسن هنا؟! ..»

«حانقتلها!»

«وأنا حاندبحك!»

«وعزة اللّه لو مديت ايدك عليها لنقطعك حتت ونرميك للسمك فى الميه!»

كان الشجار يشتد ، وأنين نعيمة يتردد بلا انقطاع ... ونحن جميعا نقف مكبلين بحيرة شديدة ... كانت دماء نعيمة تنزف بلا توقف ، وكان أنينها يخفت ويخفت ... وتناثرت الحكاية من فم الباشريس ونور ... وكان الباشريس يرى أن المسألة مسألة نسوان ، وكان نور يرى فيها جريمة ... وانه لابد أن يثأر ويقتل فردوس!

فى الصباح قفز حسن من السطح العلوى ، ثم ماء بعلو صوته وأمام الرجال ، كل الرجال ... وردت عليه فردوس وهى تفر اليه من كابينة الباشريس يتبعها مشمش صامتا ... والتقى العاشقان وسط السطح السفلى وراح كل منهما يتمسح فى الآخر ... ولم يكن أحدهما ليأبه بمواء مشمش أو زمجرته ، غير أن حسن توقف عن الغزل عندما سمع صوت نعيمة تناديه من أعلى ...

نادت نعيمة بصوت واهن : «نووووو!»
وزمجر حسن فى غضب : «نااااوو!»
وصاح نور فى الرجال من حوله وقد تحجر الدمع فى عينيه :

«مارضيش الندل يسأل فيها ... اداها ضهره وراح للبت فردوس تانى ... نادت عليه نعيمة لما حسها اتنبح ، تعمل ايه؟! ... نطت له من فوق!»

وصرخ الباشريس منتصرا :
«هى النطه دى اللى سقطتها!!»
« اسأل الرجاله اللى كانو واقفين ياباشريس ... نعيمة نطت زى الفراشة ... ووقفت قدامه هنا هو ... هنا هو!»

كان المشهد لابد عنيفا . انزوى مشمش بعيدا وهو يرى مخالب نعيمة وأنيابها وهى تصرخ فى وجه فردوس ... وحاول حسن أن يطردها فلم تطعه ... رفع يده عليها فصفعته على وجهه وصرخ مشمش وقفز عليه ، غلا الغضب فى عروق حسن فهوى بقبضته فوق رأس نعيمة ، صرخت فردوس وانشبت أظافرها فى جسد مشمش ، وماءت نعيمة وهى تسقط على الأرض بلا حراك ، وهجم مشمش ليلتحم بحسن فى عراك وحشى ، وانقضت فردوس فوق جسد نعيمة وراحت تضربها بلا رحمة ... وتعالى الصراخ والمواء والتحمت الأجساد ثم تفجرت الدماء من جسد نعيمة على غير انتظار .

وقتها فقط كف الجميع عن العراك .
«بتولد .. العيل نازل آهه .. دى بتولد!» .

خفقت قلوبنا جميعا ونحن نندفع نحو الكابينة ، وكان الدمع فى عينى نور قد سال ، وكف الباشريس عن صراخه وزاحمنا جميعا حتى وصل اليها ... كان هو الوحيد فينا الذى يعرف ماذا يجب أن يفعل ، وانحنى فوق نعيمة فى رفق ... وضع كفه الأيسر فوق جسدها ، وامتدت يمناه تجذب الطفل فى حنان ... وساد الصمت تماما ، ثم جاء صوت الباشريس خافتا :

«العيل نازل ميت!»
وهمس نور فى توسل :
«شوف الباقى ياباشريس ... العيال التانيين!»

وانت نعيمة أنينا خافتا ، وبدأنا جميعا ننسحب وفى حلق كل منا غصة ، كان حسن يقف فى آخر الممر وحيدا وهو ينظر نحونا ، وعلى بعد خطوات منه رقدت فردوس فوق الأرض وتمددت فى استرخاء ... وعندما غادر آخر الرجال كابينة نور ، جاءنا صوت الباشريس أشد خفوتا وحزنا :
«لاحول الله ... التانى ميت برضه ياجدعان!»

وصرخ أحدنا فى توسل :

«العيال فى ستين داهية ... المهم هى ... نعيمة يا باشريس ، أوعى تروح من ايدك!»

لم يستطع أحدنا أن ينظر فى عينى صاحبه ، وعندما صرخت نعيمة كانت صرختها ضعيفة مزقت قلوبنا ... وقال الباشريس أن الطفل الثالث جاء هو الآخر ميتا ، ثم ساد بعدها الصمت تماما ... لم يعد هناك حس ولا صوت ، ولاأنين ولاصراخ ، وطالت الدقائق دقيقة بعد دقيقة ، وبدأ

القلق يأكلنا ولم نكد نسأل عن الخبر حتى دهمنا وجه الباشريس وقد استدار الينا ، كان ملامحه الصخرية قد تحولت الى قطعة عجين بلا ملامح ، وكانت عيناه الضيقتان الثاقبتان شديدتى الاحمرار ... وقف الرجل أمام نور وكان واضحا انه يقاوم ، غير أن مقاومته انكسرت عندما فرت من عينه دمعة وهو يقول :

«تعيش انت يانور ... تعيش انت!!»

كان جسد نعيمة قد سكن تماما وهو ممدد فوق الفراش وسط بركة من الدماء اللزجة ... ومن حول الجسد كانت أحلامنا قد ولدت ميتة!

ذهبت نعيمة ... ماتت!

ولقد دفناها كما ندفن كل الرجال الذين يموتون منا ... وكان مشهد سقوطها الى المياه وهى مدثرة بذلك الرداء الأبيض ، كمشهد عذراء تزف الى اله مجهول ... وبعض الرجال منا ذرفوا دموعا ، وبعضهم أغرق أحزانه فى الخمر ... رجل واحد اختفى من السفينة فى نفس الليلة دون أن نعثر له على أثر ... اختفى وظل اختفاؤه حتى الآن سرا لايعرفه أحد ..

وكان هذا الرجل هو مشمش !

«١٩٦٢»

# غراميات بحار صغير السن

كان من المستحيل على أى مخلوق فى الدنيا ، أن يفكر فى مثل هذا الجو الراكد الملتهب ، ورغم هذا فلقد كان الضابط الصغير مصمما على أن يفعلها ، ويفكر ... ولقد خطرت بباله «ماريا» ، فهمس لنفسه بصوت مسموع :

«اتجوزت!» ..

ثم تسربت الأفكار من ذهنه ليبقى عقله شاغرا ، ورغم هذا كان يشعر أنه لابد وأن يفكر فى شىء ما ، فمن المستحيل أن يكف العقل عن الحركة ، كالقلب تماما ... وفى مثل هذا الجو الآسن يصبح التفكير بطيئا ، ملولا ، يتسكع فى ثنايا الذكريات كالسكران ، يبحث لنفسه دائما عن مكان يكن اليه ... وعادت ماريا تلح على ذهنه من جديد ، فتأفف ... وقال لنفسه دون همس :

«اتجوزت ... خلاص اتجوزت!» ..

كان المحيط يبدو ساكنا لامعا كأنه سطح اناء مملوء بالزئبق ... كان واسعا مخيفا يمتد ليشمل الدنيا من كل ناحية ، ويحاصرها ... والسماء صافية شديدة الصفاء ، فى وسطها كان قرص الشمس يصب نيرانه بلا رحمة .. وبدت السفينة وكأنها لعبة ساكنة ، وبدت وكأنها لاتسير ، حتى

نفثات الدخان التى كانت تتصاعد بين الحين والحين من مدخنتها كفت ... وبدت للعين وكأنها مهجورة!

على السطح ... لم يكن هناك أحد ...

وفى الداخل ... كان صوت الآلات يطن كالأبد ... لايتوقف ولايكن ، كان بدوره قد أصبح صمتا لايسمع ، وقد استلقى الرجال على الأسرة والمقاعد وفوق الأرض عرايا الصدور ، نابتى الذقون ، هامدى الأجساد كأنهم جثث ... ولم يكن هناك واحد منهم يدخن سيجارة!

وشعر الضابط الصغير وكأنه نقطة بيضاء من الظل تتحرك بجوار دفة القيادة ، ولو كان فى الشمس أحياء لبدا لهم الآن كذبابة حائرة ... هو يعرف كل شىء عن نفسه ، عن ذقنه النابتة التى تعمد أن يترك شعيراتها تستطيل ، وكان يعرف أيضا أنها تبدو كالنشاز حول وجهه الدقيق التقاطيع ... وكانت ماريا تناديه دائما : «ياطفلى» ، وكان هذا يغيظه ويسعده فى نفس الوقت ... وأثبت لها المرة بعد الأخرى أنه رجل كالرجال ، ورغم هذا فلم تكف ، رغم أنها تصغره فى السن ..

«اتجوزت ... قلناً اتجوزت!» ...

كان قميصه ملتصقا بلحمه تماما بفعل العرق ، فدلف الى الداخل وخلعه وجفف به عرقه الغزير ثم القاه فى ركن الغرفة ، وتحسس صدره العارى من الشعر ، ثم نظر الى أصابع قدميه من خلال الحذاء المفتوح فبعث منظرها القذر السرور فى نفسه ... حملق فى البوصلة فلم يقرأ شيئا ، تحرك نحو الدومان وتسلق بعينيه جسد البحار الواقف خلفه ، ثم فكر فى النوم !

رغم أنه يعلم أن شيئاً من هذا لن يحدث ، فقد بدت له الفكرة محتملة ومعقولة ، ولو حدث وتغير الاتجاه وانحرفت السفينة ونام كل من فيها يوما كاملا ، فلسوف يستيقظون قبل الوصول الى أقرب الشواطىء اليهم بأيام وأيام ..

«اتجوزت ... قلنا ستين مرة اتجوزت!!»

قالها هذه المرة دون أن تخطر بباله ماريا ، قالها دون أن يعى ، وتحركت عينا البحار الواقف خلف الدومان وزمجر :

«هى مين اللى اتجوزت ياقبطان؟» ..

غادر غرفة القيادة الى الممشى من جديد ، وحاول أن ينظر فى عين الشمس فلم يستطع ، وتمنى لو انشق البحر عن سفينة أخرى أو طائر أو حوت أو كارثة تبدد هذا الأسن ... ثم تلكأ ذهنه عند كلمة «فراغ» فبدت له عظيمة المعنى ، ثم بدت وكأنها تعنى «لاشىء» فعاد الى الداخل وراح يحدق فى البوصلة وصمم على أن يقرأ ، ووجد اتجاه السفينة صحيحا ، ورغم هذا قال :

«٥ درجات يمين!» ..

ردد البحار من بعده فى آلية :

«٥ درجات يمين!» ..

أخذ يرقب السفينة وهى تنحرف عن طريقها وتغير اتجاهها ثم اكتشف أن شيئا لن يحدث ، وأنها سوف تظل سائرة فى المحيط دون أن تثير سمكة صغيرة ، فعاد يقول :

«٥ درجات شمال!» ..

وبدا البحار كأنه لم يسمع ، غير أنه قال مرددا :

«٥ درجات شمال !» ..

ظلت عيناه تحملقان فى البوصلة لكنه لم يقرأ شيئا ، ولقد أسعدته ماريا طوال عام كامل ... الكئوس والعشاء والثلج السابح فى الجو كقطع القطن المندوف ، ولونه الناصع يكسو التلال والجبال وفروع الأشجار والمنازل ..

«الا تريد أن تقبلنى؟!» ..

صفرت الريح فالتهبت أذناه من البرد ، وكان طعم شفتيها دافئا . وأحس بعد أن قبلها أنه أكل فى تلك الليلة أكثر مما ينبغى ، وعاد الى السفينة وكأنه ينزلق فوق سفح من الثلج الأبيض ، وأقسم ليلتها أنه يكره حياة البحر ، ولم يذكر تريزا على الاطلاق !

«اتجوزت ... ماريا اتجوزت!» ...

همس بها الى قرص الشمس وهو يعود الى الممشى ، وبعد أيام سوف يصلون الى الشاطىء ، ولسوف يجد أرديكا فى انتظاره ، فى خطابها الأخير كتبت له : «مع حبى» ... ولقد كان يعلم أنه سيعود اليها ذات يوم ، فكتب لها عشرة خطابات من العشرين خطابا التى يملكها ، وهو لم يقبلها فى المرة السابقة ، لكنها بدت له شهية كقطعة لحم انضجتها نار هادئة وضعت يدها فوق ذراعه ، فرفع اليد والصقها بخده ، ثم قبل أطراف أصابعها البنية اللون ... وعندما حكى لهم ماحدث ضحكوا جميعا منه ، وأخرج أحدهم من أنفه صوتا قبيحا ، وقذفه آخر بفرشاة الرأس ، وقالوا عنه أنه خيبان ... وكانت ماريا تناديه : «ياطفلى» وكان هذا يغيظه ويسعده ، وطلبت منه أرديكا ليلة الرحيل أن يكتب لها كل يوم ... وهمس لنفسه :

«بكره تتجوز!» ..

همسها وهو يعود الى الداخل متأففا ، ورفع عينيه الى البحار وسأله :

«تشرب ليمون؟!» ...

وبلل البحار شفتيه الجافتين بلسانه ، ولم يرد ... فقال الضابط الصغير :

«بيزود العطش ... كل الواحد مايشرب يعطش زيادة ، كل مايشرب ، كل مايعط ......» .

كف فجأة عن الكلام ، وخفق قلبه .

لماذا لايبدأ الليلة؟!

ولأول مرة تبرق عيناه ، فبعد ثلاثة أشهر على الأكثر سوف يرى تريزا ... سلمته نفسها من أول لقاء ولم تطالبه بشيء ... وكانت أول جملة تقولها له :

«ظللت أنتظرك ساعة كاملة!» ..

ولم يشعر بالسعادة فى حياته قدر احساسه بالسعادة ليلتها ..

«ظللت أرقبك منذ دخلت مع أصدقائك!» ..

وعندما ضمها الى صدره وهما يرقصان أحس بالبرودة تسرى فى جسده ، واستكانت رأسها فوق صدره ..

«ياأميرى الصغير!»

رغم صغر سنها كانت كلماتها كبيرة ..

«لاتفكر فى كثيرا ، فعندما تعود سوف تجدنى فى انتظارك !!»

وقرر ذات يوم أن يتزوجها!

«أصلك عبيط ومختوم على قفاك!» ..

كان منعم أشد الساخرين يومها .

«لن تجد من تحبك أكثر منى!»

وعندما احتواها أحس وكأنه يحتوى ذاته!

«مغفل!» ..

ومنذ ثلاثة أعوام وهى تناديه : «ياأميرى!» .... وذات مرة كاد يكسر ضلوع ماريا فلم تتألم ، وهمست فى أذنه :

«ياطفلى العزيز!» ...

وقالت له أرديكا وهى تضم كفه الى صدرها : «فى المرة القادمة

سأريك الجنة!» ، ثم دعته الى رحلة فى الغابة ..

وذات ليلة جلس يكتب حتى الصباح ، وملأ كراسة كاملة بالخطابات ، وكلما رأى تريزا ازداد شوقه اليها ، وكلما ابتعد عنها كلما خفت حدة رغبته فيها ... وكان موقنا أنها ستتزوج ذات يوم ، وكان اذا اقترب من احدى الموانىء فتح الكراسة ونقل خطابا من خطاباته العشرين ... ثم أرسل لماريا خطابين من الكراسة ، والى أرديكا عشرة ، وكان قد استنفدها جميعا فى خطاباته الى تريزا ... ولذا أصبح عليه أن يكتب خطابا ، وأن يفكر ... فالميناء يقترب ، وهى تعرف موعد وصوله!

بدا المحيط ساعتها وكأنه شىء بلا اسم ، فليس هناك اسم يحتمل هذا الاناء الرهيب ... وعندما أخبرته ماريا أنها تزوجت قالتها فى جملة واحدة : «تزوجت فى الأسبوع الماضى وهو يشبهك الى حد كبير!» ... وكتبت له تريزا فى خطابها الأخير : «ان خطاباتك تثير فى نفسى الحيرة ، كأن الذى كتبها مؤلف قدير!» ... وتفصد جسده بالعرق ، وبدا له المحيط محتملا ، وأطل على المياه وراح يرقب السفينة وهى تسير ... ولسوف يقبل أرديكا هذه المرة حتما ، واستدار نحو الداخل وصاح فى البحار : «تشرب ليمون؟!» ..

وغمغم البحار بكلام لم يسمعه ، ففتر حماسه على الفور ، وكانت مياه المحيط تبرق بضياء يأخذ البصر ... فتثاءب ، ثم خطر له الخاطر مرة أخرى ... فلماذا لايبدأ الآن؟!

واندفع نحو الداخل بخطوات سريعة ، ودق قلبه بعنف . وعندما أستند الى حافة النافذة كان الورق تحت يده ، والقلم بين أسنانه ، وكان يرقب البخار المتصاعد من المياه فى سحابات متموجة ، وكان قرص الشمس يزداد التهابا ، عندما لمعت فى عينيه نظرة شديدة المرح ، ثم انثنى يكتب فجأة :

«حبيبتى ... أكتب اليك وضوء الفجر يبزغ من خلف الأفق ، ظللت صاحيا طوال الليل أفكر فيك ، وحملنى نسيم الصبح على جناحيه لأرفرف بروحى فوقك ... ولازالت نجمتنا تطل على من أعلى وتحكى لى عنك كثيرا ، هل رأيتها بالأمس؟ .....».

استغرق الضابط الصغير فى الكتابة ، ولم يسمع صوت البحار وهو يسأله بلسان جاف :

«تشرب ليمون ياقبطان؟!» .

«١٩٦٢»

# حادث فى عرض البحر

ـ ١ ـ

كان الصالون الكبير يموج بالحركة ، الضباط والركاب والضحكات والصيحات والموسيقى الصاخبة ... وكان القبطان يبدو شديد الوسامة وهو يراقص سيدة عجوزا لاتكف لحظة عن الحديث ... وفى ركن من الصالون تهامس اثنان من الضباط وكان أحدهما يبدو صغير السن الى حد لايصدق ، وهما ينظران الى القبطان ، ثم ضحكا معا وقد بدا أن الخمر لعبت برأسيهما قليلا ، واقتحمت عليهما خلوتهما فتاة كان الحب يطل من عينيها دون مواربة ، وصاحت فى الضابط الصغير :

«ألا تريد أن تحيط خصرى بذراعك؟!»

وانحنى صاحبنا انحناءة كبيرة ، وابتسم لصاحبه ثم غمز له بعينه ، واندفع يحيط خصر الفتاة بذراعه وهو يهمس :

«قلت لك أنك صغيرة السن ، ولاتصلحين حبيبة لمن هو مثلى!»

ومن الطرف الآخر للصالون ، صاح رجل أسمر الوجه ، كان واضحا أشد الوضوح أنه مثقف هندى ، وهو يوجه حديثه للقبطان ضاحكا :

«هل أنت متأكد من أن السفينة تسير فى الاتجاه الصحيح ياكابتن؟!»

وتوقف رجل قصير القامة عن الرقص ، ودس يده فى جيبه وأخرج رزمة من الأوراق المالية الخضراء ، ورفع يده فى الهواء ملوحا بالنقود صائحا بلسان متلعثم :

«أنا رجل أمريكى ، وكرجل أمريكى أراهن بمائة دولار أن السفينة تعود بنا الى مصر ، وأن هؤلاء المصريين يستعدون لوليمة يأكلوننا فيها ... من يراهن ؟ ! »

ولم يبد على أحد أنه سمع الرجل الأمريكى ، ولم يتوقف أحد عن الرقص ، ولم تكف الموسيقى عن الصخب بطبيعة الحال ... ولم يلتفت القبطان ، وابتسم للسيدة العجوز قائلا :

«أرجو أن تستمر الرحلة على مايرام مسز تورمى!» .

«أنت وسيم جدا ... يافرعونى الصغير!»

كان لسانها متلعثما تترنح الكلمات فوق طرفه ، وحانت من القبطان نظرة نحو باب الصالون ، فلمح طالبا بحريا يقف فى فانلته السوداء ، وقبعته المتسخة ... وكان يبدو على الطالب البحرى أنه متردد ، فأومأ القبطان برأسه ... واندفع الشاب يخترق جموع الركاب مسرعا ..

وعندما غادر الطالب صالون السفينة كان كل شىء كما هو ، الركاب والضباط والرجل الأمريكى والفتاة الصغيرة ، وكانت الموسيقى تعزف لحنا حالما فهدأت حركة الراقصين ، وتأبطت العجوز ذراع القبطان وهما يعودان الى المائدة ، ولم تر تلك النظرة السريعة التى قذفها القبطان فى وجه أحد الضباط ... وسرعان ماتبادل الضابط نظرة أخرى مع الضابط الصغير وهو ينسحب نحو الباب مسرعا ... وكان القبطان وقتها ينحنى على مسز تورمى وهو يهمس :

«هل تسمح سيدتى!»

«أنت رقيق!»

وغاصت الابتسامة فى وجه القبطان فتحجرت ملامحه ، واستدار مبتعداً لايلوى على شيء ...

## ــ ٢ ــ

فى الخارج كانت مياه البحر تبدو شديدة الصفاء ، وكان القمر بدرا يطل من أعلى فى كبرياء فضية اللون ، وكانت السفينة تتمايل يمنة ويسرة فى خفة ورقة ، وكان السكون شاملا ، والصمت عميقا لدرجة كانت تحبس أنفاس الرجال الذين بدت أشباحهم هنا وهناك ... أما غرفة القيادة فكانت مظلمة ، وكان الضباط قد تناثروا فيها صامتين ، وبدا البحار الواقف خلف الدومان كجذع صارى ثبت فى مكانه ، وأشعل القبطان سيجارة توهجت فى الظلام لفترة ، وسأل وهو يحملق فى المياه الممتدة أمامه :

«العمق كام ياعادل؟!»

«٦٩ ياقبطان ...»

لم يكن هناك سوى شعاع مصباح أحمر صغير ، ودلف الضابط الأول ــ وكان قد خلع ملابسه وارتدى معطفا ثقيلا أسود اللون ــ من الشرفة اليمنى على عجل ، وقال للظلام الأحمر فى لهجة سريعة حاسمة :

«فيه فنار باين قريب ... المسافة كام يافاخر!»

واندفع الضابط الصغير نحو الرادار ، ودس وجهه فى فتحته ، وحرك يمناه زرا ، ومضت لحظة صمت قال بعدها :

«١٠ ميل!»

وأتى صوت القبطان متسائلا فى هدوء :

«ألسطة المخطاف؟!»

فرد الضابط الأول :
«كله ألسطة!»

قالها وهو يندفع مغادرا الغرفة على عجل .

كانت السفينة واقفة فى عرض البحر ، وكان واضحا أن هدوء البحر هذا ليس سوى كذبة كبرى ، فالأمواج المدفونة كانت تدفع السفينة الوَاقفة فى عرض البحرْ نحو الجزيرة القريبة ... وعم الصمت هذه المرة طويلا وكأنه لن ينتهى ... وكان الرجال واقفين وكأنهم تماثيل من الظلال ، ثم جاء صوت القبطان بعد أن توهجت السيجارة ذات مرة :

«العمق كام ياعادل؟!»
«٦١ ياقبطان!»
«الجزيرة نوعها ايه؟»
«صخرية ...»
«المسافة؟!»

وصاح الضابط الصغير :
«٨ ميل ياقبطان!»
ولم يدم الصمت طويلا هذه المرة ، فقد صدر الأمر حاسما :
«ألسطة المخطاف!»

ورفع أحد الرجال سماعة التليفون ثم قال :
«ألسطة المخطاف!»
«اسأل الماكينات!»
«آلو ... يامكنات ... فاضل لكم قد ايه؟!»
ثم وضع البحار السماعة والتفت نحو القبطان وقال :
«قدامهم عشر دقايق!»

— ٣ —

دب النشاط فجأة فى أجساد الرجال عند المقدمة ، كان ضوء القمر يظهر كل شىء بوضوح كامل ، وكان الضابط الأول يقف وهو يصوب مصباحه نحو الونش الصغير ، وهوت يد الباشريس فوق السلسلة الضخمة فتحركت حركة واحدة دوت فى السكون ... وهمس الضابط الأول :

«فوندا واحدة واحدة!»

وارتفعت يد الباشريس مرة أخرى فى ضوء القمر ، وهوت بمطرقة فوق قفل حديدى ضخم ، فانفجر القفل مفتوحا وبدأت السلسلة تتحرك فى ضجيج بدد سكون القمر ، وتعلق الضابط الأول بسياج السفينة ، وتدلى جسده نحو المياه ، وصوب مصباحه نحو المخطاف الهائل الذى كان يتدلى ببطء نحو المياه حتى لامسها ... فصاح الضابط الأول :

«اييها!»

وتوقف الونش وهو يئن بثقل المخطاف ، وساد الصمت تماما ، وخطا الضابط الأول نحو تليفون صغير ، ورفع سماعته ثم قال :

«ألسطة المخطاف!»

كان الجو شديد البرودة ، وبدأت أيدى الرجال تتجمد ، وتجمدت أجسادهم وقد تعلق بصر كل منهم ببقعة لا معلومة من الكون الصافى من حولهم كالبلور ، كانت الدنيا تبدو فى تلك اللحظات غريبة ، كانت تبدو شديدة الوداعة ، رقيقة ، حالمة ... كأنها فتاة فى الرابعة عشرة .

غير أن السكون بدأ يتبدد تحت وقع خطوات ثقيلة راحت تدب فوق السطح نحو الرجال ... والتفتت كل الرءوس نحو الشبح الذى كان يقترب ... ورغم أن كل واحد منهم كان يعرف صاحب هذه الخطوات ، ورغم أن كلا منهم كان متأكدا من أن ظنه صحيح ، الا أنهم ظلوا

يحملقون فى الجسد المترنح الآتى من الداخل ، كأنهم جميعا قد اتفقوا على ألا يصدق أحد منهم نفسه ... لكنه كان عم حسنين .

«ايه اللى حصل؟!»

قطع صوته الشك بيقين لايقبل الجدل ... وصاح الضابط الأول غاضبا :

«انت سبت سريرك ليه ياعجوز؟»

«ايه اللى حصل؟!»

وقال رجل كان يقف فى نهاية مقدمة السفينة فوق البحر تماما :

«ياراجل انت عيان ، روح نام الا تموت باذن اللّه كده!»

«ماتقولوا ياولاد ايه اللى حصل ... المركب واقف ليه؟!»

«وحانرميك للسمك ياكلك!»

وصاح عم حسنين فجأة فى وجوه الجميع :

«المركب واقف فى عرض بحر ... أسيبكم لوحدكم ازاى؟!»

ولم يستطع أحدهم أن يرد عليه!

— ٤ —

لثوان خاطفة بدا الجو فى صالون السفينة يكفهر ، توقفت الموسيقى وترنح الرجل الأمريكى أمام العجوز صائحا :

«مسز تورمى ... أنا رجل أمريكى ، وكرجل أمريكى اراهن انك حزينة لغياب القبطان!»

واشتد احمرار وجه مسز تورمى ، وتلفتت حولها باحثة عن لاأحد ... وتقدم المثقف الهندى من الرجل الأمريكى وقال :

«عزيزى داڤيد ... أنا رجل هندى ، وأنت رجل أمريكى ... وكرجل هندى لرجل أمريكى أراهنك انك شربت كثيرا هذه الليلة!»

ومد الأمريكى يده مصافحا وهو يقول :

«قبلت الرهان!»
فصاحت مسز تورمى :
«سوف تخسر!»
وصاح الأمريكى مصدقا :
«اذن سأدفع ... موهامد ... موهامد ... زجاجة ويسكى!»
وانفجر الجميع فى الضحك ... وصفق كل من فى الصالون ، ماعدا الفتاة الصغيرة ... كان شعرها الأصفر مهدلا فوق وجهها ، وكانت تقف بجوار احدى النوافذ وهى تطل على البحر ، وبدا عيلها أنها تعانى من احساس غامض ، لكنها يقينا كانت تفكر فى الضابط الصغير السن الى حد لايصدق !

ـ ٥ ـ

دق جرس التليفون فى صراخ حاد ... وكانت غرفة الآلات تشغى بالرجال والضجيج ، وصاح المهندس الأول من بين قضبان الآلة :
«قول لهم عشر دقايق!»
ورفع الوقاد سماعة التليفون وقال قبل أن يسمع شيئا :
«عشر دقايق!»

ثم وضع السماعة وخطا نحو الامام خطوة ، ثم قذف بجسده فى الهواء وقد تعلقت يداه بسياج الممر الحديدى ، ودثرته على الفور سحابة من الهواء الساخن المتصاعد من الآلة ، وكان المهندس الأول راقدا وقد تدلت رأسه فى فجوة فى أرضيه الغرفة ، وراحت يداه تعملان بسرعة، وكان العرق يتساقط من كل مسام جسده ، وهدير الآلات المتوقفة يسد على الآذان كل منفذ ، وبدأ المهندس الأول يخرج رأسه من الفجوة ، ثم قفز ناهضا وهو يصيح بكل صوته فى اذن مهندس آخر :

«افتحوا البلوف وشوفوا الزيت علشان نجرب!»

وهز المهندس الآخر رأسه وانصرف ، واستدار المهندس الأول نحو الآلة وهو يمسح يديه من آثار الزيت والشحم ، ثم تجشأ ، وابتسم ، وهمس لنفسه متحدثا الى الآلة بصوت عال :

«عارفة يابت لو مشيتى ، تبقى حبيبتى صحيح! ...»

وعلا صوت صفير حاد من آخر الغرفة فاعتدل فى وقفته ، وعاد المهندس الآخر مسرعا ثم راح يفتح أحد الصمامات فى بطء ، وتركزت كل الأنظار على ذراع الآلة اللامع ، وزمجر البخار فى الداخل فزمجرت الآلة وهى تتحرك فى بطء ، وازدادت ابتسامة المهندس الأول اتساعا ، وتحرك الذراع منتفضا فى قوة ، ثم هدرت الآلة وهى تتحرك مسرعة ، وقفزت السعادة من عينى المهندس الأول وهو يصيح :

«آهو كده تبقى حبيبتى صحيح!»

وقبل أن يكمل جملته ، تجشأت الآلة كمية هائلة من البخار فى وجهه ، ثم همدت حركتها دفعة واحدة ، وسكنت تماما .

— ٦ —

قال القبطان بصوت هادىء :

«فوندا المخطاف!»

وسمع الرجال فى غرفة القيادة صوت الباشريس فى مقدمة السفينة وهو يصيح :

«فوونداااا»

وانفجر صوت السلسلة وهى تهوى بالمخطاف نحو المياه فى جعجعة بددت السكون لثوان ، وكان صوت السلسلة وقرقعتها تخفت تدريجيا ، ودق جرس فى المقدمة دقة واحدة ، وظلت السلسلة تهبط ببطء ، ثم دق الجرس دقتين ، وساد السكون تماما .

وتهادت السفينة فوق موجة لاتظهر للعين ، وبدأ البحر فى ضوء القمر كأنه نوع من الأبدية ، كأن الشمس لن تشرق أبدا ... ثم هبت ريح خفيفة ، وأشعل القبطان سيجارة جديدة ، وجاء صوت الضابط الصغير شديد الثبات :

« الفنار قرب على سته ميل ! »

واشتد هبوب الرياح فجأة ، وتمايلت السفينة أكثر ، وقال الضابط الآخر :

«العمق ٥٧!»

فقال القبطان :

«ألسطة مخطاف جنب شمال!»

وقفز الضابط الصغير من مكانه نحو الممشى الأيسر ، تقدم من السياج ببصره نحو الرجال عند المقدمة ، كانوا يبدون له كظلال يعرفها جيدا ، وتصاعدت اليه مع نسمة هواء أنغام موسيقى الصالون الصاخبة ، وتذكرها ، فمال بعينيه نحو السطح اللامع بضوء شديد النقاء ، وتساءل بينه وبين نفسه ... هل من الممكن أن يعرف الانسان الظلال؟!

وبدا له السؤال غريبا وبلا معنى ... وألقى ببصره نحو المياه فرأى حركة السفينة مع الرياح ، بلل أصبعه ثم شرعه فى الهواء ، وهمس وهو يعود :

«ريح شمالى ... الدنيا برد!»

وأطفأ القبطان سيجارته وقال :

«فوندا مخطاف شمال!»

وتعالى ضجيج السلسلة الأخرى وهى تهوى بالمخطاف نحو المياه ، وتعكر السطح من حول السفينة ، واستدار القبطان لأول مرة نحو

الداخل ... فأضاء مصباح فى وسط الغرفة ، وبدا وجه القبطان غريبا ، وتحرك الرجال بسرعة ، وبعد ثوان كان النور يغمر السفينة كلها ، وبدت فى ذلك الليل وكأنها كرة من الضياء تاهت وسط الكون!

«حضروا قوارب النجاة!»

قالها القبطان وهو يخرج الى الممشى الأيمن ، دون أن يختلج صوته فى حرف مما قاله .

ـ ٧ ـ

همس أحد الرجال وهو يدس كفيه تحت ابطيه ويعطى ظهره للريح :

«الريح شدت ، النوة نازلة»

ورفع زميله رأسه نحو السماء ، ورأى ركاما من سحب سوداء تزحف من الشمال وتخفى النجوم وتحجب القمر ... وأشعل الضابط الأول سيجارة وهو يحملق فى الظلام المحيط بهم ، وألقى ببصره نحو جسد تكوم بجوار لفة هائلة من الحبال ...

كان الرجال يبدون جميعا وكأنهم تجمدوا ، كانت أجسادهم ثابتة ساكنة تماما ، ثم صاح أحدهم فى الجسد المكوم بجوار الحبال :

«حاتموت وحياة المرسى أبو العباس ، وحانرميك للسمك ياكلك!»

ولوح العجوز بذراعه منذرا :

«اسكت ياجدع أحسن ربنا يسخطك!»

وقال الضابط الأول :

«مين اللى قالك تقوم من السرير!»

«ماكينة الدومان تحت ودنى ، وعمود الرفاص ساعة مايقف لازم نصحى من أحلاها نومة!»

«ياراجل انت عيان ، وقدامنا كتير على مانوصل ، والدكتور

قالك .....»

«أنا ماأحبش الدكاترة!»

«والنبى حاتموت!»

«عمود الرفاص وقف صحيت من النوم ... تبقى المركب واقفه فى عرض بحر وجنبها صخر واسيبكم لوحدكم ازاى؟!»

عوت الرياح فأدار الرجال وجوههم بعيدا عنها ، وانحنى كل منهم على نفسه وهو يدس يديه تحت ابطيه ، وتلاعبت الأمواج بالسفينة فتمايلت أجسادهم فوق سطحها فى ثبات ، وسعل العجوز طويلا ، سعل وسعل وسعل ثم نهض الى السياج وبصق فى وجه البحر !

كان واضحا أن المرض يشتد عليه ، لكن أحدا من الرجال لم يقل شيئا ... وعندما دق جرس التليفون المعلق بجوار الآلة ، استدارت نحوه كل الرءوس ، واستمع الرجل الى ماقيل ثم أعاد السماعة وهو يقفز من مكانه كالملسوع :

«فوندا كل المخطاف ياقبطان ... الريح شادة والجزيرة قريبة والعمق بيقل!»

وقفز عم حسنين من مكانه مرة واحدة ... ودبت أقدام الرجال فوق السطح ، وكانت أشباحهم تبدو من غرفة القيادة ، وكأنها لوحة رائعة لمصور عبقرى!

— ٨ —

«موهاميد ... موهاميد ... أين كل الضباط ... هل حدث شىء؟!»

كانت العجوز تترنح فى جلستها وقد انتابها القلق ، وكان الرجل الأمريكى يقف عند البار وهو يقول :

«موهاميد ... أنا رجل أمريكى ، وكرجل أمريكى أستطيع أن أراهن بعشرين دولارا أنى لم أشرب كفايتى هذه الليلة ، هل لديك مزيد من الويسكى؟»

وسار المثقف الهندى نحو النافذة ، ووقف بجوار الفتاة الصغيرة وراح يطل معها على المياه فى الخارج ، ومالبث أن أشعل غليونه ونفث الدخان بعيدا ثم تمتم :

«ليلة جميلة ياماری!»

وهزت ماری رأسها دون كلمة ...

«السفينة لاتتحرك!»

وهزت ماری رأسها مرة أخرى ، ولم تنطق!

«لابد أن شيئا حدث ... انهم جميعا فوق !»

وأشعلت ماری سيجارة من صندوق كان فى يدها ...

«انت تدخنين كثيرا!»

«انى أحب التدخين!»

«انك لازلت صغيرة!»

والتفتت ماری نحوه بحدة ، وبدت عيناها الزرقاوان لامعتين كعينى قطة تستعد للوثوب ...

«مستر بهادر ... لست أدرى مارأيكم فى الشرق فى هؤلاء الذين يقعون فى الحب ، ولكن ... ألم تقع فى الحب مرة فى حياتك!»

هز المثقف الهندى رأسه وقلب شفته السفلى وقال :

«اننى عجوز ياصديقتى ... اننى فى الأربعين !»

«ألم تقع فى الحب وأنت شاب!»

«ولكنى لازلت شابا ... »

«ألم تقع فى الحب مرة؟!»

«ان رجال البحر يضعون قلوبهم فى ثلاجات تجمدها!»

«صدقنى ... اننى أحبه!»
«سوف تنسينه بعد بضعة أشهر!»
«اننى فى الرابعة والعشرين!»
«عندما رأيتك لأول مرة ظننت أنك فى الرابعة عشرة!»

«ان الشبان يهربون منى من أجل هذا ، غير أن هروبهم لم يكن يعنينى فى كثير أو قليل!»

«والضابط الصغير ... ان وجهه صغير الى حد لايصدق !»
«ليس الأمر كما تظن ، ليس نزوة مستر بهادر !»
«لقد وقعت مسز تورمى فى حب القبطان وهى فى الستين!»
«انها تقع فى حب أول رجل تراه بعد الكأس الأولى !»
«هل تظنين أن شيئا حدث فى الخارج!»
«نعم ... ان صوت الآلات كف عن الدوى ... السفينة واقفة فى عرض بحر الآن ، ولقد سمعت سلسلة المخطاف وهى تهوى الى المياه!»

«لكنها سرعان ماترتفع من جديد ... ولسوف تمضى السفينة حتما .. فليس للسفن بيوت تأوى اليها!»
تنهدت الفتاة الصغيرة ، ثم قذفت بالسيجارة فى الظلام ، وقالت :
«لسوف تمضى حتما ... أو تغوص الى القاع!»
مضت الفتاة وحدها وسط سحب الدخان الكثيف فى الصالون ، وبقى المثقف الهندى ينفث دخان غليونة وهو يتبعها بعينيه ، ثم مالبث أن أزاح خصلة شعره الشديد السواد عن جبينه ، واستدار من جديد نحو النافذة ، وراح يحملق فى المياه المظلمة فى الخارج ... ولم يكن يفكر فى شىء على الاطلاق!!

أغلق الرجال أبواب السفينة تماما ... وبدت أشباحهم فوق السطح كبقع تتحرك وسط هالة من الضياء ... كانت الريح تشتد لحظة بعد أخرى ، وارتفع صفيرها فى أرجاء السفينة كالعواء ... ورغم الضوء الذى اشتعل فوق ظهر السفينة ، الا أن الدنيا بدت شديدة الظلام ، وكان لون المياه أسود ...

فى المقدمة كان كل الرجال قد تكوروا فى أماكنهم ... وكان سعال عم حسنين يزداد حدة ، ورفع أحد الرجال رأسه اليه وصاح :

«ياراجل قوم انزل سريرك ... انت عيان!»

وقبل أن يفتح العجوز فمه انفجر فى الجو صوت اهتزت له قلوب الرجال ... قفزوا جميعا فى وقت واحد وكأنهم لدغوا ، وصرخ عم حسنين وهو يلقى بنفسه فوق ذراع الونش :

«السلسلة حاتنقطع ... بلغ القبطان ياجدع وهات لى تلات اقفال لجنب شمال وزيهم لجنب يمين!»

كان كل مايقوله عم حسنين ينفذ دون كلمة ... وكانت احدى حلقات سلسلة المخطاف الأيسر مفتوحة وكأنها قطعة عجين ، وأيقن الجميع أن سلامة السفينة أصبحت على كف الريح تماما ... واندفع الضابط الأول يهبط الدرج ويقفز الممرات ويخترق الأبواب كالمجنون ... ولمحته الفتاة الصغيرة وهو يمضى بجوار الصالون فصاحت به :

«كابتن!»

غير أنه لم يرد عليها ، واندفع الى الخارج وراح يعدو فى الممر الأيمن ولم يكن يشعر بلسع الريح أو قرص البرد لوجهه ... بعد ثوان كان يقف بجوار الرجال ثم يذوب جسده وسط أجسادهم وقد انحنوا جميعا فوق الحلقة

المفتوحة ... وعرف من أول نظرة أن السلسلة من الممكن أن تقطع ، وأن المخطاف من الممكن أن يضيع فى المياه ، ولن يكفى مخطاف واحد لحمل السفينة فى وجه هذه الرياح ، وليس بينهم وبين الصخور سوى أمتار ، وتفصد العرق فى جبينه وهو يلقى بنفسه فوق القفل الحديدى ويضغط ، لكن الحلقة المفتوحة كانت تتحرك ، فصرخ بكل صوته :

«واحد يساعد العجوز ويمسك دراع الونش!..»

واندفع رجل نحو ذراع الونش ووقف حائرا ، كان جسد العجوز منتصبا كالوتد ، وكانت يده تقبض على ذراع الونش وقد برزت عروق رجهه وجحظت عيناه ...

«ايدى معاك ياعجوز!»

«ساعد القبطان ... أنا هنا كويس!»

وصرخ الضابط الأول :

«ياراجل انت عيان !»

وتمتم الباشريس :

«حاتموت ومقام المرسى!»

وصرخ عم حسنين بكل صوته فى الفضاء :

«يامرسى يابو العباس .. يامرسى!»

وتوقفت السلسلة المفتوحة عن الحركة ، وثبت الضابط الأول القفل فى مكانه ، ثم نهض وقد علت وجهه ابتسامة عريضة ... وما كاد يفتح فمه ، حتى تجمدت الكلمات على شفتيه ، وجحظت عيناه وتسمر فى مكانه مشدوها!

— ١٠ —

صعد المهندس الأول من تلك الفجوة فى أرضية غرفة الآلات وكان منظره يبعث على الضحك ، كان يبدو كأنه استحم فى زيت قذر ، وكانت

عيناه تبدوان حائرتين ، ودق جرس التليفون فصاح :

«قول لهم ألسطة!»

لم يكن واثقا مما يقول ... مسح العرق عن جبينه ثم نظر الى الآلة في شغف ..

«كده برضه تكسفيني؟!»

ثم تقدم منها خطوة وتحسس ذراعها اللامع في حنان ...

«أنا عارف انك محتاجة لحاجات كتير ... لكن أعمل ايه ، مش بايدى !»

واستدار بعينيه نحو المهندس الآخر وقال :

«الزيت مضبوط؟!»

«مضبوط ياباشمهندس!»

«افتح البلوف واحدة واحدة ..»

وما أن مضى المهندس الآخر حتى التفت المهندس الأول نحو الآله من جديد :

«المركب حاتروح مننا وانتى السبب!»

وعلا الصفير الحاد من آخر الغرفة فمسح على ذراعها اللامع من جديد :

«حاتدورى المره دى على طول . كلها تلات أيام وأجيب لك طقم جديد!..»

ووضع يده فوق الصمام وعيناه مثبتتان بالذراع ... وتحركت يده في بط شديد واحتبست أنفاس الرجال وظلت الذراع ساكنة ... تحركت يده تفتح الصمام اكثر ، وعلا صفير البخار في أذنيه ، وزامت الآلة ، ثم تثاءبت في حركة بطيئة طويلة ... وهمس المهندس الأول متوسلا :

«علشان خاطرى!»

واندفع الذراع اللامع مترددا فى حركة سريعة صاخبة ... ثم انتظمت الحركة تدريجيا ، ورفع المهندس يده من فوق الصمام وراح يرقب الآلة فى اعجاب ... والتفت نحو المهندس الآخر والقى اليه بنظرة ، فقفز هذا الى التليفون ، ورفع السماعة وصاح :

«كله تمام ... الماكينات ألسطة!»

## ـ ١١ ـ

اطلت مسز تورمى من النافذة اليمنى للصالون وراحت تحملق فى الفضاء ... وطلب الرجل الأمريكى لحنا صاخبا جديدا ، ووضع المثقف الهندى غليونه فى جيبه واستعد لمغادرة المكان ، وكانت الفتاة الصغيرة تجلس وحدها فى ركن الصالون ، كانت تدخن بشراهة ، ثم انتفضت على صراخ مسز تورمى :

«اننا نغرق ... اين القبطان ... اننا نغرق !»

انتاب الجميع وجوم مفاجىء وهم يرون العجوز وهى تندفع كالمجنونة :

«صدقونى ... انهم ينزلون قوارب النجاة !»

وصاح الأمريكى :

«أنى أرحب بالموت .. لأنى لن اتزوج بعده!»

«مارى ... كابتن ... موهاميد ... اننا نغرق!»

ودلف الضابط الصغير من باب الصالون ، فاندفع الجميع نحوه ...

«لماذا تنزلون قوارب النجاة؟!»

«لقد كانت السفينة واقفة!»

«هل نحن فى خطر ؟..»

وتقدمت مارى من الضابط حتى كادت تلتصق به ، ثم رفعت عينيها الى عينيه وعضت شفتها :

«فاخر ... هل حدث مكروه؟!»

وابتسم الضابط ابتسامة باهتة وهو ينحنى نحو مسز تورمى :

«أنها مجرد مناورات مسز تورمى!»

«لقد انزلتم قوارب النجاة!»

«هذا روتين لابد منه!»

«اسمع ياضابط ... أنا رجل أمريكى ، وكرجل أمريكى اراهن ... ...»

«لقد كسبت الرهان مستر داڤيد ... هل تقبل دعوتى على كأس؟!»

وتفرق الجميع ضاحكين ... وكانت مارى تنظر فى عينى الضابط .

«ان عينيك حمراوان!»

«كانت الريح شديدة!»

«كأنك كنت تبكى منذ لحظات!»

«ألم أقل أنك لازلت صغيرة السن؟!»

«ماذا حدث؟!»

«تعطلت احدى الآلات وكنا بجوار جزيرة صخرية!»

«هل كنا فى خطر ؟!»

«نعم ... »

«فلماذا كنت تبكى اذن؟!»

## — ١٢ —

كان الجسد مسجى فوق الفراش ، وبدا الوجه المجعد شديد الاصفرار ، وكانت الشفة السفلى مقلوبة فى اشمئزاز ... وظل القبطان ينظر الى الوجه الساكن طويلا ، وكانت عيون الرجال جافة جاحظة ، وبدا بعضها مبللا بدمع خفى ، وعندما تحركت عينا القبطان خفض الضابط

الأول عينيه وهمس :

«محدش قدر يرجعه السرير ، كانت السلسلة حاتنقطع وهو اللى شال حمل الدراع كله ، قلت لواحد من الرجاله يقف معاه ويساعده ، هو اللى مرضيبش ، حطينا القفل واطمنا على المخطاف ... بصيت لقيته بيشهق ... هى شهقة واحدة سقط بعدها!»

«ماقالش حاجة؟!»

«ابدا ... شفايفه اتحركت!»

«كان عاوز يقول ايه ؟»

«كان عايز يتف!»

ونظر القبطان الى الوجه الجامد مرة أخرى ... ثم تمتم متسائلا :

«مفيش فايدة يادكتور؟!»

كان يبدو غير مصدق ، وأطلت الحيرة من عينيه وهو ينظر الى الطبيب الذى ارتكن الى الحائط منكس الرأس ... ولم يقل الطبيب شيئا فى البداية ، هز رأسه نفياً ثم توقفت هزات الرأس كمن تذكر شيئا فجأة وصاح :

«أنا قلت لهماينزلش من السرير ...»

كان صوت الطبيب عاليا كأنه صراخ ... وانفجر رجل كان يقف خارج الغرفة فى بكاء مكتوم ... وترقرقت الدموع فى عينى القبطان فهز رأسه عجبا ونظر الى الوجه الجامد وتمتم :

«كده تعملها برضه ياعجوز ؟!»

وتمايلت السفينة مترنحة تحت ضربات الموج الذى كان يعلو لحظة بعد لحظة ... وكانت الأنوار على السطح قد أطفئت كلها ، ولم يكن هناك قمر ... فازداد ظلام الليل سواداً ، كان الظلام يبدو كقبة مخيفة لاملامح

فيها الا لنجوم باهتة بدت من وراء ذيول السحب السوداء وهى تمضى مسرعة ..

وكان الصالون مظلما خاليا ... وبين الحين والحين كانت تتوهج فى ظلامه سيجارة ، وكان الوهج يكسو وجها صغيرا جميلا لفتاة تبدو فى الرابعة عشرة ، فى عينيها الزرقاوين ، أثار دموع .

# اللهـب

كان سطح المياه يكاد يلتهب تحت قرص الشمس الذى بداكجمرة رهيبة معلقة فى الفضاء الصامت الآسن ... وماتكاد العين أن تلتقى بالسطح المترقرق اللامع حتى تجفل مذعوة ، وترتد الى ظل خانق كئيب ... ثم تجذب جفنها وتسبح فى ظلام أشد كآبة .

كانت السفينة تنزلق على السطح بتثاقل شديد ، وصوت الآلات يطن فى الداخل ، ومع طنينه الرتيب كانت تنبعث من الآلات حرارة تنتشر فى الممرات وتختلط بحرارة الجو فتزيد من شدة الاختناق .

الممرات كئيبة مظلمة ، والمراوح تعمل بلا انقطاع منذ يومين ، ثم أصبحت هى الأخرى تنفث هواء ساخناً ملتهبا ، فامتدت اليها الأصابع وأسكتت حركتها وأخمدت دورانها ... ومالبث أن ران جمود رهيب على كل شىء ... حتى على نفوس الرجال وأجسادهم العارية المستلقية فوق سطح السفينة فى استرخاء وكسل .

كانت ثمة مجموعات متناثرة ، وهناك فى الطرف الأيمن ، كانت مجموعة من أربعة رجال منهمكة فى لعب الورق ، قد ظللتهم قطعة سميكة من القماش ، بانت وقتها كأنها كابوس يكتم الأنفاس ... كان الرجال عراة لا يستر أجسادهم سوى سراويل قصيرة ، والعرق يتصبب من جباههم ،

ويسيل على وجوههم وأعناقهم ويتخلل شعيرات صدورهم ، وأصابعهم تمسك بالأوراق والأقراص الملونة وهم غارقون فى اللعب ... متأففون منه فى ذات الوقت .

وكانت المجموعات الأخرى المتناثرة تمارس أشياء مختلفة ... فمن حديث كسول ملول ، الى شراب بارد تحول فى لحظة الى شراب يغلى .. وفى نهاية المؤخرة كان ثمة شاب يافع ناعم الوجه مستلق وحده ، شاخص بعينيه الى المظلة السميكة ... بينما فى وسط المكان كان عملاق ضخم الجثة قد تمدد وراح فى نوم عميق .

صرخ أحد اللاعبين وسب الأوراق وسب زملاءه وسب الحر والبحر والدنيا بأجمعها اثر خسارته لمبلغ كبير ، ثم تساءل وهو يهرش لحيته النابتة عن موعد وصول السفينة ... فرد عليه آخر بانت على وجهه العريض ــ الذى يتوسطه أنف أفطس كبير ــ امارات قلق وضيق :

« ان شاء الله ماوصلت ، هى جهنم حاتبقى أكتر من كدة ؟ ، علشان تتمرن من دلوقت على الشوى » .

كان الشاب المستلقى فى نهاية المكان لايزال يحملق فى المظلة المعلقة فوق رأسه ، وصدره العارى الخالى من الشعر يعلو ويهبط فى سرعة وضيق ، وعيناه قد احمرتا ... وشفتاه جفتا وأصبحتا كقطعتين من الصخر .

أما العملاق النائم فى الوسط ، فكان شخيره قد ملأ المكان ، فصرخ فيه أحد اللاعبين ، ولكنه كان غارقاً تماماً فى النوم ، وشخيره المنتظم يتصاعد من أنفه وفمه المفتوح ... وانطلقت ضحكات ملولة ، سرعان ما ماتت عندما أصابت العملاق النائم فردة حذاء خلعته من نومه خلعا ... فنهض مذعوراً ، وتلقفته سبة بذيئة أطلقها أحدهم ، اصطدمت بأذنيه ، ولكنه بدا وكأنه لم يسمع شيئاً ، فأمسك فردة الحذاء

بكف غليظة هائلة ، وأطاح بها فى الهواء فطارت ثم استقرت على سطح المياه ، ثم غاصت فى جوفها ببطء ، ومالبث أن عاد إلى مكانه من جديد مسنداً رأسه إلى ذراعه المثنى .

وعلت فى الجو صرخة مهددة :

« والله لاتشترى لى غيرها .. انت حر ، ياكده ياأخرب بيتك » .

تصاعدت الضحكة الملولة ، وسرعان ما ماتت من جديد فى صدر صاحبها ... وصرخ أحد اللاعبين متهما زميلا له بالغش ، ورد زميله عليه بصرخة مماثلة ، وهدده بإلقائه فى المياه ... وهمد الأمر بعد لحظات ، وعاد السكون والهدوء إلى المكان . وعلا حفيف المياه المحتكة بجوانب السفينة ، وتصاعد فى الجو بخار خانق رطب ، وصبت الشمس شواظها بلا رحمة وبإصرار قاتل ... وهتف رجل :

« هوا .. شوية هوا .. »

وران الصمت من جديد ... عميقاً . عميقاً .

وظهر فى أعلى سلم صغير رجل أخذ يهبط الدرج فى بطء وتثاقل ، كان بادياً عليه أنه يملك الأمر والنهى ، كان القائد ... وتحولت إليه الرؤوس لفترة ، وشملته العيون بنظرة ، ثم استدارت فى محاجرها وعادت إلى أماكنها غير مبالية .

علت شفتى الرجل ابتسامة واهنة مرهقة وهو يومىء برأسه إلى الشاب المستلقى فى المؤخرة ... ثم سأله فى صوت أجش خافت :

« مالك ؟! »

أدار الشاب بصره دون أن يرد عليه ، ثم انقلب بجسده كله الى الناحية الأخرى ، بينما صدره يعلو ويهبط فى انفعال وسرعة . كان الشاب نحيلا أسمر الوجه ضئيل الجسم ، وجهه الصغير الناعم يثير تساؤلا بين

لوجوه الخشنة الرهيبة ... وقال القائد فى اقتضاب وهو يمضى وكأن الأمر لايعنيه :

« انت تعبت من أول سفرية ؟! »

ولم يتلق جواباً ... وكأنه كان يعرف ذلك ، فقد دس بين شفتيه سيجارة اشعلها ، وجذب منها نفساً سرعان ماطرده فى الهواء وألقى بالسيجارة إلى المياه ، ثم استدار وعاد من حيث أتى .

علا شخير النائم مرة أخرى ، فزأر العملاق ذو الذقن النامية ، وامتدت يده إلى فردة الحذاء الأخرى وطوحها تجاه الرجل النائم ، فارتطمت بوجهه فى شدة ، وهب الرجل غاضباً مزمجراً ، واطبقت يده على فردة الحذاء وطوحها بكل قواه فأصابت الرأس ذات الأنف الأفطس العريض الذى كان مائلا فوق جسد ضخم كانت ذراعاه منهمكتين فى اللعب .

وبدأ العراك .

كان واضحاً فى البداية أن كليهما يريد أن يحطم الآخر ، وقد هم بعض الرجال أن يفرقوا بينهما ، ولكنهم عادوا باسترخائهم إلى أماكنهم وقد بدت السعادة على وجوههم ... ومع صوت اللكمات ، اشعلت السجائر ، وانتشرت الابتسامات على الوجوه ، بينما كان الرجلان يتقاتلان ويئنان من وقع ضرباتهما .

قال رجل من بعيد :

« كفاية يا محسن .. »

ودوى فى المكان صوت لكمة ، ودار أحد الرجلين وهو يهجم كالوحش على زميله ... وعم السكون تماماً إلا من صوت الضربات المتلاحقة فى البداية ، والتى أخذت بمرور اللحظات تتباعد وتتباعد ، واسترخت الأجساد المشدودة بعدما بدا أن الرجلين قد نالهما التعب تماما . وأن أذرعهما قد وهنت ، وأصبح واضحاً أنهما سفترقان بعد لحظات ...

ولكن هذه اللحظات لم تطل ، إذ علا فى الجو صوت غريب ... غريب جداً .

كان نحيباً متصلا ، وبكاء حارقاً ... وكان الشاب الصغير الراقد فى مؤخرة السفينة قد دفن رأسه بين ذراعيه ، وأخذ جسده ينقبض وينفرد فى حركات تشنجية ... كان يبكى بحرقة .

وتوقف الرجلان فجأة ... واسترخت أذرعهما ، وهما يحملقان فى الجسد الممدد الذى انصبت فوقه كل العيون ... وهمس أحدهما بصوت مسموع :

« الولد بيعيط ! »

وقهقه الآخر وهو يمسح بظهر كفه دماء كانت تسيل من جانب فمه ، وهو يقول فى سخرية :

« نجيب له بزازه ؟! » .

كانت دهشة الجميع شديدة عندما التوى جسد الشاب ، والتفت برأسه الصغير نحو الرجل القائم وسط المكان ، هائلا عملاقاً كأحد ملوك البحر الطغاة ، وصرخ الشاب بكل صوته :

« اخرس ... »

ضحك العملاق وهو يقول :

« حاتسكت وإلا أحطك فى اللفة ؟! » .

« اخرس ياكلب .. » .

كان المنظر فريداً ، فتراخى جسد العملاق الآخر ، واستلقى فوق الأرض . بينما كان الشاب قائماً على ركبتيه وذراعيه متحفزاً كقطة متوحشة أمام أسد ضخم مفترس ... وعاد الشاب إلى الصراخ بكل صوته المختنق ، ودموعه تسيل من عينيه فتختلط بقطرات العرق النابتة فوق وجهه :

« وحوش . وحوش . كلاب » .
قهقه العملاق وقد بدا له الأمر مسلياً تماماً .. وقال فى برود :
« تحب أجيب لك شخشيخة ياابنى »؟
وقفزت القطة فى سرعة وأنشبت أظافرها فى عنق الأسد ، والتحم الجسدان التحاماً غير متكافىء ... وتصلبت عضلات الرجال وتوترت أعصابهم وهم يرون جسد الشاب يهوى مرتطما بالأرض فى قسوة ... وصاح أحدهم من نهاية المكان :
« بالراحة عليه يامحسن » .

قفز الشاب من جديد ، وارتفعت يده وهوت فى صفعة هائلة فوق وجه محسن ، ورد محسن بصفعة أكثر قسوة ، وجرت الدماء من فم الشاب وأنفه ولطخت وجهه ... كانت الدموع قد جفت تماماً ... وعيناه قد اختفى احمرارهما ، والعرق ازداد تصبباً فوق وجهه وجسده ، وأنفاسه قد انتظمت ، بينما الآخرون قد استلقوا فى أماكنهم تماما فى استرخاء لذيذ . لذيذ ! . والعرق السائل من مسام جلدوهم ينزلق فى بطء ... ونسمة من هواء ــ لايدرون من أين ــ هبت فشملت أرواحهم . وتباعدت أصوات الضربات ، وتباعدت وتباعدت ، ووضح أن المتعاركين قد وهنت قواهما ، وسرعان ما توقفت أصوات الضربات وران سكون ، قطعة صوت قدمى العملاق وهما تزحفان فوق أرض المكان ... ثم هوى جالساً فى مكانه من الجماعة ... وقال فى صوت لاهث مستريح :

« فرق الورق ، وبلاش سرقة ! »
وفجأة ...
توقفت ساقان بجوار جسده ، وهوى الشاب جالساً إلى جانبه ، ثم قال وفى عينيه نظرة ارتياح ، وبقايا الدماء تلطخ وجهه :
« وسع لى مكان .. عاوز ألعب معاكم .. »

وعادت الشمس ترسل شواظلها إلى سطح المياه الذى كان يضوى ملتهباً ، وما تكاد العين أن تلتقى به حتى تجفل مذعورة ، وترتد إلى ظل خانق كئيب ... ثم تجذب فوقها جفنها وتسبح فى ظلام أشد كآبة ، والسفينة تنزلق فوق سطح الماء بتثاقل ... والأجساد ممددة ... ممددة ممددة فى استرخاء ... والجو خانق .

١٩٥٧ .

# الخوف

كبر جابر ، وخط شاربه ، واخضرت ذقنه ، وتعدى الخامسة عشرة ، ورغم هذا لم يستطع أن يقود القارب ! ..

كبر جابر ، أصبح شاباً ، ولكنه وسط الشباب طفل ، والاسم الذى يحمله سيضيع ، وياليته ماكان ، وياليت اليوم الأسود الذى ولد فيه ماوجد ..

كبر جابر ورآه أبوه يدخن ويقهقه كالحشاشين فى المقهى ، ولكنه مازال جباناً يخاف المياه ، ويخاف الرياح ، ويخاف البحر ! ..

كبر جابر الذى سيقول الناس عنه أنه ابن الحديدى ، وياوكسة الاسم ، وياعرة العائلة بجابر آخر سلالتها ..

لايدرى المعلم محمد الحديدى كيف أصبح ابنه هكذا ، لقد رباه فى البحر ، فوق سطح المياه ، ومنذ أن عرف كيف يخطو فوق الأرض وهو يصحبه معه فى غدواته وروحاته ، يضعه فى القارب ، ويتوكل على الله ، يجوب الميناء يحمل هذا ، ويوصل ذاك ، ويأتى الصيف ، ويقل الكثيرين الى كل مكان ، والولد معه ، لم يتركه لحظة .

فى البداية كان يحايله ويلاعبه ويوعده بالكراملة والعسلية عله يمسك الدفة أو يجلس الى المجداف... دون جدوى ، ثم أخذ يتوعده ويسبه ويشتمه

وقد يزغده عله يخاف أو يقدم ... دون جدوى أيضاً . ثم ضربه . ضربه بالعصا ، وضربه بكفوفه ، وضربه بكل ماوصلت إليه يده ، ثم خلع ذراعه الدفة الغليظة وأخذ ينهال به على جسده حتى ازرق لحمه وطفح منه الدم ... ولم يفلح جابر ، لم يمسك بدفة ، ولم يجذب حبلا ، ولم يقبض على مجداف .

والعيال أصبحوا رجالا ، حنفي ، وسيد ، وعبده ، ورومه ، كثيرون كثيرون ملأوا الميناء ، وبلعطوا فى المياه ، وجابوا بالقوارب كل رصيف ، وجاوروا كل سفينة ، واقتلعوا الرزق من أنياب الأمواج ، وزوجهم آباؤهم وفرحوا بهم وقالوا للحديدى « عقبال جابر » ، ولكن جابر لم يبلعط فى المياه ، ولم يكسب قرشا ، ولم يفكر فى الزواج .

ليت الأمر وقف عند هذا ، وليت جابر أفلح فى صنعة أخرى ، انه لايفلح إلا فى التدخين والجلوس على المقهى والذهاب إلى السينما ... والابتسام للناس ببلاهة وعبط عندما يقولون له « ياخرع » !!

يومها كانت الشمس غائبة وراء السحب السوداء ، والأرض مبللة بالمطر الذى ظل يهطل ساعات وساعات ، وسطح المياه يتلوى كظهور التماسيح ، ثم يجرى فى سلسلة طويلة من الأمواج تضرب الرصيف بعنف وتزمجر ، ويتناثر رذاذها على حافته المتآكله وكأنه أصابع كثيرة تريد اقتلاع الأرض من مكانها ، والدنيا برد ، والريح تصفر ، والقوارب ملطوعة بجوار الرصيف كالجثث ، لاحياة فيها ولاحركة ، والرجال قبعوا بجوار المقهى ، بعضهم قرفص على الأرض ، والآخرون يشربون الشاى ... والولد جابر جالس فى الطرف ، عاطل ، ضائع ، لاشغلة له ولاشغلانه . ولايدرى المعلم محمد ماذا حدث ولكنه سمع سيد البوهى يقول لابنه « ياخرع » ... وضحك جابر ، ابتسم فى بلاهة ولم يرد ..

وكل الجالسين فى المقهى ساعتها لم يفهموا شيئا سوى أن الحديدى يضرب ابنه ...

كانت الصفعات والركلات تنهال عليه بلا حساب ، والغل القديم والجديد يسرى فى كفى الأب وقدميه أيضاً لينصب على جسد ولده بلا رحمة ، وهاج الرجال ، « وعيب يامعلم ، مايصحش !» ،وآخرون يقولون : « معلش .. ماكلهم شباب زى بعض » .

هدأ الحديدى وكله نار تغلى ... وعوت الريح مزمجرة بصوتها الثاقب ، وسرت فى الأبدان رعشات ، واصطكت أسنان ، وبكت السماء أمطاراً مجمدة أخذت تضرب الأرض وسطح المياه بقطع البَرَد التى كانت تتفتت وتذوب ، ثم تجرى نحو البحر الهائج ذى اللون الغامق الكئيب ، وكأنه يقتلع أعماقه ، ويتقيأ أحشاءه .

لايدرى المعلم الحديدى لم حدث ماحدث بعدها ... ولايدرى كيف فكر ولاكيف تصرف ... كان قد رمى طوبة جابر منذ مدة ، ولم يعد يعنيه أن يجدف أو يقود القارب ، أو يفرد الشراع ، سلم مجهوده الذى ضاع وهو يعلمه ، وسلم أمره أيضاً للّه ، وسلم كل مافعله يوم كان يصحبه فى الصيف ، والبحر رائق والسماء صافية ، ويجلس أمامه يحادثه ويحثه ..

« ياجابر امسك الدفة كده ، ياجابر حل البارومه كده ، ياجابر القماش لازم تملاه الريح ، واذا كان الريح شرقى خليك بوجى ، واذا كان غربى اضرب بلط يمين وشمال لحد ماتوصل » .

كلام كثير ، وعرق ، ويلهث المعلم وهو يجدف ويفرد الشراع ويعود فيطويه ثم يعود فيفرده ، ويتساقط العرق ، وتلمع بشرته ، وجابر جالس أمامه كالشوال الفارغ ، ملقى فى اهمال وبلاهة وكأنه ليس هنا .

كانت القوارب وقتها تتناثر على صفحة المياه داخل الميناء ، تروح وتجيء وتميل الى اليمين ، وتدور حول نفسها ثم تميل الى اليسار . والعيال يقودونها ، وآباؤهم بجانبهم ، يشجعون ويصفقون ويقولون بمرح « صلى على النبى ياجدع » ، وتدوى أصواتهم فى فضاء الميناء الواسع ، ويرددها الصدى عندما تصطدم بجوانب السفن الهائلة العالية الجدران ... وهو جالس فى قاربه ، ابنه يقبع كابن الموظفين ، جبان خائف ، يرتجف ... وهو محروم من أن يقول ككل الآباء « صلى على النبى » ، أو يقول : « حصوة فى عين اللى مايصلى على النبى »!

ويتمنى ، يتمنى أن يقولها مرة من أعماق قلبه ، وينتظر الوقت الذى سيطلقها فيه ، ويحل الليل ، وينغمها بطريقة ملفتة ، ويقولها فى سره مرات ومرات وعشرات المرات ، ويضيف اليها دعوات ونداءات : « الورد كان شوك من عرق النبى فتح » وغيرها وغيرها ... يحفظ ويحضر ويتمنى ويضطرب قلبه .!

الأيام تروح وتجيء ، والسنين تروح والسنين الأخرى تضاف إلى عمر جابر ، والحسرة فى قلب المعلم لاحد لها ... أصبح بلا ولد ، ذراعه اليمنى مشلولة ، وذراعه اليسرى بنت لن تجلس فى قارب أو تقود فلوكة ... بنت سيزوجها لرجل ، رجل غريب ، ربما أصبح ذات يوم مالكاً لقارب الحديدى ، وتراث عائلة الحديدى .

ولايدرى المعلم لم كان يرتجف كل هذا الارتجاف وهو جالس ، لم كان يرتجف وكأن زمهرير القطب قد لف جسده . الرجال من حوله صامتون ، وهو صامت يغلى ، ودمه يفور ، وعيناه تدمعان فى غيظ ، لايستطيع أن يصنع شيئاً ، تدور عيناه مغلفة بالدموع وتجرى فوق وجوه كثيرة جلست صامتة تنظر إليه باشفاق ، رجال من سنة ، وعيال من عمر ابنه ، كلهم اذرعهم مفتولة ، أكلت المياه من بطون كفوفهم ثم حجرتها فأصبحت

كالحديد ... ولم يكن كالحديد فى الميناء كلها سوى جده المعلم صابر الحديدى .

نهنه جابر فى صوت مكتوم ، وصفرت الريح وعوت ، وتمايلت القوارب وأز خشبها وهى تحتك ببعضها ، وترنحت الصوارى ، ودفعت الريح مقعداً وقلبته ، وخف هطول المطر ، واندفعت الأمواج نحو الرصيف تلطمه بوحشية ، وتخرج منها آلاف الأصابع كأنها تريد اقتلاع حجارته !

قال رجل شيئاً وهو ينفخ فى كفيه ، وغمغم آخر ، ورفع المعلم حديدى عينيه إلى السماء ، وراقب الأفق ، وهبت ريح باردة ، ثم قال :

« محدش يطلع النهارده يارجاله ، دى نوة العجوزة نزلت آهيه ، والبوره نازله من الشرق » .

أمن الحاج حسن على حديثه وهو يرقب الأفق بدوره ويدفىء كفيه فى كوب الشاى الساخن ، وهز المعلم أبو شادى رأسه وقال أن هذه النوة الملعونة عدوة القوارب والبحارة ، وأن أحداً لم يستطع أن يخرج فى البحر أثناءها اطلاقا ... ثم صمت ورفع عينيه الى الحديدى وابتسم وقال :

« الا اتنين من عيلة الحديدى ، الله يرحمه المعلم صابر ، ويديله طوله العمر المعلم محمد » .

لم يدر المعلم أبو شادى وهو يقول تلك الجملة أنه كان يغرس خنجراً فى أحشاء المعلم محمد ، كان الرجل يعلم جيداً أن أحداً فى الميناء لم يستطع أن يقاوم هذه العاصفة ، سواه هو وجده ، وهمهم بصوت خفيض وكأنه يتابع تفكيره :

« أبويا اللّه يرحمه مات فيها !»

وجاءت الأصوات من كل ناحية :

«ألف رحمة تنزل عليه ، الفاتحة له »

وتابع المعلم الحديدى أفكاره بصوت مسموع :

« كان عندى سنتها عشر سنين ، وكان جايب لى الفلوكه الصغيرة الخضرة ، ويومها النوة نزلت على وأنا وسط الميه ، رحت رابط على رصيف الفحم ، وقعدت أستنى ، ومات أبويا قدامى ، رأسه جت فوق حجر الرصيف ، وصرخت عليه ، ومديت له ايديه ، لكن الدم بس هو اللى استنى على الرصيف .. و .. »

وساد الصمت فجأة ، توقف الرجل عن الحديث ونكس رأسه ، كان ثمة خاطر رهيب قد انبثق فى ذهنه ، ورآه الرجال ساعتها وقد اكتسى وجهه بصفرة شديدة ، وسأله أحدهم عما به ، ولكنه ظل صامتاً ، وطلب الجوزة ، وأخذ يجذب منها أنفاساً شرهة وعيناه قد غامتا واكتستا بلون أسود غريب ، كانتا تجولان فى الوجوه ثم تقفان عند وجه ولده ، وتضطربان ، ويسأله الرجال :

« انت عيان يامعلم محمد ؟!.. »

« مالك يامعلم ؟! ».

« قوم روّح وارتاح » .

« ياشيخ وحد الله .. البركة فيك انت .. »

كانوا يتحدثون ويثرثرون ويتكلمون ، ولكن أحداً منهم لايدرى أن كبده كان يحترق ، لم يذكر أحدهم اسم جابر ، ولم يقولوا عنه كلمة ... وهو حزين ، ولكن حزنه يتحول الى ثورة ، وثورته تتحول الى أفكار مجنونة !!

لذلك اصفر وجهه حتى أصبح كالمريض بدوار البحر .

كان ثائراً ، وكان مشفقاً ، وكان حائراً .... وأصبح يتعذب !!

شملت عيناه وجه جابر ثم ارتدتا عنه فى ذعر ، والفكرة تكبر وتكبر ، والأمل ؟ ... ليس هناك أمل ، ولكن ... ولكن الأفكار عادة

ماتأتيه هكذا ، مثل أول مرة خرج فيها فى نوة العجوزة هذه ، تلك العاصفة المجنونة التى لاترحم ، والتى تبتلع كل من يتحداها وتطوية فى جوفها المزمجر الرهيب ، وتطوى معه كل ماتستطيع أن تبتلعه من سفن وقوارب ، ثم تهدأ وتلفظه جثة مهزومة ، لتعود فى العام التالى ، وفى نفس الموعد ، مجنونة شرسة لاترحم .

« يامعلم محمد ماتوحد الله .. »

« لا إله إلا الله .. »

قالها بحزن وكأنه يترحم على عزيز فقده ، فقد كانت الفكرة الرهيبة قد تقلصت كالمرض فى رأسه ، ثم انفجرت وتوهجت وأصبح لامفر ..

« قوموا يارجاله نلم الفلايك فى الكن » .

قالها بهدوء وكأنه لاينوى سوى أن يسحب قاربه الى مكان هادىء فى ركن الرصيف ، ونهض الرجال معه ، وخطا هو خطوة ، ثم التفت الى ولده ، وهوى قلبه بين ضلوعه ، وبردت أنفاسه وتهدجت ثم ناداه :

« قوم ياجابر معايا .. أنا تعبان حبتين » .

ومضى الركب الكبير نحو طرف الرصيف ، كان الموج ينقض عليه وكأنه قبضة هائلة فردت عشرات الأصابع فجأة ، وتناثر الرجال وهم يقفزون كالقرود فوق الرصيف ، يتعلقون بالصوارى . وأخذ كل منهم يعمل ويقاوم الريح ، ويجذب قاربه نحو « الكن » ، وينظر الحديدى الى ولده ، كان يقف مرتجفاً من البرد ، ذراعاه متدليتان على جانبيه فى بلاهة ، وأحس وقتها بالدنيا تدور من حوله ..

ثم ...

لايدرى .. لايدرى كيف تم الامر ، كيف طاوعه قلبه ، لايدرى الى اليوم .

أمر جابر أن يقفز الى القارب ليحمل المجاديف الى الداخل ، ويسوى الأرض ويخلع الدفة ... وقفز جابر إلى القارب فترنح به ، وترنح هو معه ، وانحنى المعلم محمد على الحبل الذى يربط القارب بالرصيف ، وكان ولده لايزال يتعثر ، وفجأة ، أحس المعلم بعينيه تغيمان ، وجز على أسنانه ، وأغمض عينيه بشدة ، ورفع يده بطرف الحبل ، وتردد لحظة ... ولكنها كانت مجرد لحظة قصيرة ، قصيرة جداً ، انحنى بعدها إلى الامام ، ودفع القارب بكل قوته ... وترك الحبل يهوى فى المياه . وهوى مع الحبل قلبه الى قدميه .

ومضت دقيقة ..

مجرد دقيقة كان جابر وقتها لايزال يتعثر ، ولكنها كانت كافية لأن تقذف بالقارب الى وسط المياه والريح والعاصفة والمطر الذى عاد ينهمر من جديد . وتنبه الرجال الى صرخة خالوها تصدر من أعماق ألف رجل :

« ياترجع انت والقارب ، يامترجعوش انتوا الاتنين ...فاهم ؟! »

وصرخ جابر فى توسل وقد شله الرعب :

« فى عرضك يابا .. »

وران سكون عميق ، وشلت الألسنة ، وحتى القلوب كادت تتوقف وتقفز فى اضطراب من الحلوق التى كانت مغفورة فى ذعر .

ورغم أن أحدا من الرجال لم يستطع أن يقترب من المعلم محمد الحديدى ، الا أن كلا منهم وقف ينظر الى القارب الذى كانت الريح تحمله الى بعيد فوق سطح مزمجر متلاطم ، وانطلقت صرخات جابر وتوسلاته ، وحملتها الريح إلى أذنى والده ، وخفق قلب العجوز وكاد يبكى ، بل انه أحس بالدمع يغزو عينيه ، وتقدم نحو أحد القوارب خطوات ، ولكنه تراجع مرة أخرى ، وقلبه ينفطر وهو يرى الأمواج الصغيرة تتكسر

وتجرى نحو القارب كأنها أسنان وحش سيفترس ولده ... أفاق للحظة ، وتقدم نحو قارب ... لكن الوقت كان قد فات !.

كانت هناك همهمات ودمدمات :

« الراجل اتجنن .. »

« الولد حايموت .. »

« ياحول الله .. »

« وده اسمه كلام برضه ؟! »

« خليه يتعلم .. »

« والعلام يبقى بالشكل ده ؟! »

« ولو جرى للولد حاجة ، حايعمل ايه ؟! ».

* * *

كان جابر وقتها يبكى بلا دموع ، كان يعلم تماما أنه لن يستطيع شيئا ، لم يدر مم كان يخاف ، ولم كان الذعر يلم به كلما رأى ذراع الدفة الطويلة الغليظة ... ترنح به القارب ، مال الى اليمين ، ومال الى اليسار ، وتسربت إليه المياه ، واقتلع الذعر قلبه ونفضه نفضات رهيبة ، وجرى نحو الدفة ، وأمسك بالذراع فى يده ، وانحرف القارب ، وعاد يترنح ويدور حول نفسه ، واضطرب جابر ، ونهض فجأة من مكانه ، كان الذعر قد شل عقله تماما ، والقارب يبتعد عن الرصيف ، وراح ينهنه فى ذعر ، وهبت ريح قوية دفعت بالقارب فمال بشدة ، وترنح جابر ، وتمايل جسده النحيل ... ثم هوى إلى المياه !!

عندما دوت صرخات الحناجر الكثيرة فوق الرصيف ، كانت ذراعا جابر تتشبثان بحافة القارب ، وقد غرق جسده فى المياه الباردة كالثلج ، وارتفع رأسه فوق اللجة ، ورأت عيناه السماء سوداء مقبضة ، وتحولت

قبضتاه الى قبضتين من الصخر ، وثمة شيء يجذبه نحو الأعماق ، ويشد جسده كله ، ويميل معه القارب ..

وصرخ !!

واندفع جسده فجأة إلى أعلى ، كان يحس رعباً غريباً ، رعب تبخر تماماً عندما أحس بساقيه فى الهواء ، وشعر بصلابة قاع القارب ، فاستدار ناحية الرصيف بسرعة وكأنه يصد وحشاً يريد التهامه ، وكان ثمة قارب يشق المياه ، وأيقن أنه أبوه .

وعندما نظر الى الخلف ، وجد قاربا يندفع بشراعه نحو رصيف الفحم ، حيث آثار دم جده ، ولم يكن هناك مفر ، وجد نفسه يعمل دون وعى ، يداه تعملان ، ورأسه يعمل ، وساقاه تقفزان هنا وهناك ، وغاب تماماً ، كل مايذكره أنه كان يقفز فى القارب ويمسك بالحبال ويوجه الدفة ويفرد القماش ، وكأنه صنع ذلك آلاف المرات من قبل ، لم يكن هناك خوف ، أبداً ، وأحس بنار غريبة تندفع فى صدره ...وهمس بصوت مرتجف مرتعب :

« مش عاوز أموت ، مش عاوز أموت » .

وعندما رفع رأسه ، كان أبوه يقف كالعملاق فى القارب الآخر ، يدور به ويندفع مسافات بعيدة ، ثم يدور ويتجه نحوه من جديد . ولكنه فى لحظة كان قد نسيه تماماً ... نسى أباه ونسى كل شيء عدا الشراع الذى انفرد فى فرقعة مدوية ، وصفق القماش ، وأصبح هائلا كبيراً كجناح طائر ضخم .

قبض على ذراع الدفة بيسراه ، ثم مال الى الخلف وهو يجذب حبل الشراع بكل قواه ... وتوقف القارب عن الزحف وترنح ، ثم مال بشدة ... ثم استقام وبدأ يندفع إلى الأمام .

لم يصدق جابر نفسه ، ولم يصدق المعلم الحديدى عينيه ، ولم يصدق الرجال الذين كانوا على الرصيف مارأوه !

أحس الحديدى وقتها كأن الدنيا كلها لاتسعه ، ووقف برهة يحملق فى قارب ابنه الذى كان يشق طريقه فى سرعة ، وقد امتلأ الشراع بالهواء ، وجابر هناك ، بجوار الدفة ، متحفز ، نصف قائم ونصف جالس ، واضطرب قلب الرجل ، وجاش صدره بكل مافيه من حب وأمل ... وانطلق صوته هائلا مدوياً :

« صلى على النبى ياجدع .. صلى على النبى .. ترضى النبى .. حصوة فى عينك ياللى ماتصليش .. على النبى!!» .

وتردد الصدى وحملته الرياح الى كل مكان ، ثم ارتد اليه مدويا حلواً كأحلى ماسمع من أنغام .

استدار بقاربه نحو الرصيف ، وانثنى الشراع ثم مال ، ثم امتلأ بالهواء وكأنه يشير الى ولده أن يتبعه ، ودار قارب جابر ، وانثنى الشراع ، ثم مال ، ثم امتلأ بالهواء . وكأنه يقول « حاضر » !! .

والرجال على الرصيف يهللون ، والقاربان يعودان ، والريح تعوى وتزمجر وتصفر فى غضب كأنها وحش قيدته سلاسل ، والقاربان يشقان الطريق وينزلقان فوق السطح المربد بسهولة وقوة .. و ..
وكبر جابر ..

١٩٥٨

# قاع البحيرة السوداء

تجمع الرجال حول القوارب ، وتمددت أجسادهم السمراء اللامعة فى استرخاء ... ووراءهم وأمامهم وفوقهم وعلى جوانبهم ، كانت الشباك ملقاة ومعلقة فى تهدل واستسلام ، كأنها هى الأخرى تستريح من عناء اليوم ... وسبح كل شيء فى ضوء القمر .

ورغم أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل ، إلا أن آثار الشمس كانت لاتزال عالقة بكل شيء ، ولم تفلح النسمات الرطبة الندية فى تخفيف تلك الحرارة ، وذلك الصهد الذى كان يتصاعد من الرمال ومن سطح مياه البحر .

والتقت النسوة فى حلقات حلقات ... أغلبهن قد ألقمن أطفالهن أثداءهن ، وضممنهم إلى صدورهن ، وأخذن يثرثرن ويعبثن بأصابعهن فى رمال الشاطيء .

وخلف أحد القوارب المنتصبة على الرمال فوق قوائم بدت وكأنها أرجل قصيرة غليظة ... كانت امرأة عجوز قد استسلمت للصبية والفتيات الملتفين حولها وقد تعلقت عيونهم بها ، وقد همت أن تقص عليهم القصة للمرة المائة أو المائتين ، وربما كانت المرة الألف ... فهى لاتدرى ، ولاتمل من حكايتها ، كما لايمل الصغار سماعها .

صاح أحد الرجال ينادى على ولده ... فتململ الطفل فى مكانه ، وتعلقت عيناه بوجه العجوز دون أن ينطق كلمة ... بينما ابتسمت هى وقالت :

« شوف أبوك داكر عايز ايه .. مش حاحكى إلا لما تيجى! »

قفز الصغير بسرعة وانطلق يعدو فوق الرمال ... بينما عينا العجوز تتبعانه فى وله وشغف ، وبدا لها شبحه فى ضوء القمر طويلا ... أطول من سنه بكثير ... كان الطفل فى الثامنة من عمره ، بينما كانت قامته قامة صبى فى الثانية عشرة ، وكان جسده عريضاً وذراعاه مفتولتان ، فتعلق نظر العجوز به لفترة ، ثم قالت بصوت خافت :

« اهو أنا وعيت عليه كان فى طول سيد تمام .. بس كان أصغر منه بسنتين !»

وسرعان ماانتصب بجوار الصبى رجل عملاق الجثة ، وضع يده على كتفه ومضى به بين القوارب ... فارتجف قلبها ... وقالت إحدى الفتيات :

« هو عمى داكر رايح فين ؟ ..»

وساد الصمت برهة . صمت مزقه صوت امرأة تنادى على ولدها ... فتململ الصبى وسط الحلقة ... وابتسمت العجوز وهى تقول :

« بلاش النهارده ياولاد ، بلاش ... أنا تعبانه »

زام البعض ... وهم البعض بالاحتجاج ، ولكنها كانت قد أطرقت ، فأيقنوا أنها لن تحكى ... ثم أخذوا ينهضون فى تثاقل وينفضون من حولها ... وفى لحظة ، كانت قد أصبحت وحيدة .

امتدت يدها فغرفت من الرمال الدافئة حفنة ... وامتدت عيناها

فتعلقتا بقرص القمر ... ثم انزلقتا إلى سطح المياه ... وسبحتا بعد ذلك فوق السطح فى رحلة طويلة عبرت بها مدخل الخليج الضيق .... ثم سرح خيالها فقفز بها فوق القمة السوداء الشامخة ... ووراء القمة حدث كل شىء .

وقد مضى زمان طويل ... زمان لم تعده بالسنين وإن كانت قد عدته بدقات قلبها .

كانت أيامها عروس .

لم يكن قد مضى على زفافها أكثر من قمرين اثنين ... وكانت الحياة فى الخليج شاقة ، والأسماك قد شحت وقلت ، وتعرض الرجال للأمواج الصاخبة خارج الخليج حيث كان جوف البحر يبتلعهم مع قواربهم وشباكهم . ولايلفظ منهم شيئاً . فانكمشت رحلاتهم ، وشح رزقهم ، وجاءت عليهم أيام سوداء ... أيام كانت الشباك تخرج من المياه كما تلقى اليها فارغة . فلا هم قادرون على الخروج إلى البحر بقواربهم الهزيلة الصغيرة ، ولا أحدهم بقادر على الاقتراب من البحيرة السوداء .

كم تناقش الرجال وتحدثوا وحكوا الحكايات عن جيوش السمك التى كانت تملأ البحيرة ، وكم سمعتهم أيامها يصفون أنواع السمك الكبير والصغير ، الغالى والرخيص ، جيوش وجيوش كانت تقفز أمامهم فى مرح فوق سطح البحيرة ... ولكن أحدهم لم يستطع أن يقربها .

حتى عندما تسلقوا الصخرة الكبيرة الشامخة ، وهبطوا الى شاطىء البحيرة ثم ألقوا بشباكم إلى مياهها ، وما يكادون يجذبونها حتى يجدوها مهلهلة ممزقة ... فحاولوا وحاولوا ، أيام وأيام ، فى الليل والنهار ... ثم أيقنوا بعدها أن كل ماسمعوه كان صحيحاً ، وأن البحيرة لابد مسكونة بجنية شرهة !!

ثم قرر رجلان أن يدخلا البحيرة ، فدخلاها ، ولكنهما لم يعودا . لم يعد منهما شيء سوء أشلاء القوارب ، وبقع دماء طفت على سطح المياه ... ثم ذاب لونها الأحمر فى لون مياه البحيرة السوداء .

ومرت شهور قاحلة ، لارزق فيها ولاعمل ... يلقى الرجال بشباكهم لتخرج فارغة . وتنظر عيونهم إلى البحيرة فى حسرة . ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على الاقتراب منها .

ثم قرر الرجال أن يقتلوا تلك الجنية .

لايذكر أحد من الذى قال هذا ... ولكن الذى حدث أن الشاطىء تحول فى يوم وليلة إلى جيش . الرجال والعيال والنساء والفتيات . حمل الرجال الحراب والسكاكين والفؤوس والأسلحة والعصى . وحملت النسوة المشاعل . وتجمع العيال بالحصى والحجارة والطوب . وتسلق الجميع قمة الصخرة الشاهقة وهبطوا واحداً وراء واحد إلى الشاطىء ، ثم أحاطوا البحيرة من كل جانب ... حتى مدخلها الصخرى الضحل ، وقف فيه عدة رجال ، غمرت المياه سيقانهم حتى منتصفها ، وعلى أكتافهم وفى أيديهم أسلحتهم . وسدوا الطريق إلى البحر . ومرت ليلة ، ثم ليال سبع وهم ينتظرون دون جدوى . سبع ليال طويلة لم ينم فيها أحد ...

ولكن الجنية لم تظهر !! .

كانت ليال غريبة . الشاطىء يخلو . والجميع يسهرون . وفى النهار يعملون . ولحظات النوم تمضى كالريح . والأكواخ شح فيها الطعام .

كم من ليال مرت عليها لم تكن تجد ماتقدمه له من طعام ، ولكنه كان دائماً مشرق الوجه ... تقاطيعه لم تنسها رغم الأعوام الطويلة ، كم أحبت تلك التقاطيع ، وكم سحرتها وفتنتها . كانت سعيدة أيامها ، وكان يقول لها :

« انتى حلوة يانرجس .. حلوة زى القمر ..»

ولم تكن تخجل من غزله ، بل كانت دائماً تستزيد منه وتقول له :

« زى القمر بس ؟ ! »

فينطلق ضاحكا ويعابثها قائلا :

« انتى يابت مش بتنكسفى أبداً ... انتى مش وليه ؟!»

كم أحبته ... وكم بكت عليه .

* * *

غنى رجل ، فسبح صوته فى ضوء القمر وهو يغمر الشاطىء ، ولمعت أطراف المياة وهى تلتقى بأطراف الرمال لتضع معها خطا متعرجاً كعلامات الطريق . فألقت بحفنة الرمال مْن يدها وأسندت رأسها إلى يسراها . وامتدت أصابع يمناها تعبث فى الرمال من جديد .

* * *

كيف فعل مافعل ؟

إنه لم يذكر لأحد شيئا . ولقد كانت يومها سعيدة ، كانت فرحة تكاد تطير من الفرح . وكانت تبحث عنه . خرج فى الصباح ولم يعد . سألت عنه فقالوا لها : « فى الميه » .

وغربت الشمس وسألت عنه فقالوا لها : « مع الرجاله » .

كان ذلك فى الليلة الثامنة ... وكان اليأس قد أخذ بتلابيب الرجال ، بعضهم كان يعد العدة للرحيل ، فلم يعد فى المياه سمك ، ومياه الأرض واسعة . وبعضهم تشبث بالشاطىء . وكان هو أكثر المتشبثين به . لقد سمعته ليلتها يتحدث بحدة ... كان الرجال يتناقشون ، وكان يتناقش معهم ، ولم يظهر عليه شىء ، ولم يحدث أحداً عما كان ينوى أن يفعله .

سمعته ليلتها يقول للرجال بصوته الثابت القوى :

« نسيب الشط لمين ؟ .. داحنا اتولدنا عليه ، وعشنا فيه ...

جنيّه ايه يارجاله ، مفيش جنيّه ، لازم فيه حاجة ... حاجة !» .

فصاحوا فيه : « حاجة ايه ؟!»

وصمت ...

كان هذا مايدهشها منه ... سألته ذات ليلة نفس السؤال ، فصمت ، وطال صمته ، ثم قال :

« يعنى الجن مالقوش غير البحيرة اللى حيلتنا ؟ ... أبهاتنا ماكانوا بيصطادوا فيها .. »

« ماهى انسكنت بعدها »

« ياوليه اعقلى ... بقى لها قد ايه مسكونه ؟!»

وكان يعرف كما كانت تعرف ... كان يعرف أن الجنيّة جاءت مع تلك العاصفة المشئومة ، عاصفة هوجاء لم ير الشاطىء لها مثيلا ... أطاحت بالقوارب والأكواخ ، وابتلعت ناس وألقت إليهم بجثث ناس آخرين ... ناس من أرض بعيدة .

ورغم هذا ، كان دائماً يقول : « مفيش جنيّه ! » .

وقد قال ذلك للرجال فى تلك الليلة ... واحتدم الحديث بينهم ... كانوا جميعاً فى كوم ، وهو وحده مع اثنين آخرين فى كوم . ثم تحول النقاش إلى صياح ... ثم سمعته يقسم ألا يبيت معهم حول البحيرة . فذهب الجميع ليلتها إلا هو .

لو كانت تعرف ماسوف يحدث لما غادرته ، ولكنه صامتاً كقلب الرمال الباردة . ثم اختفى ولاتدرى أين ... فذهبت ليلتها مع الذاهبين إلى شاطىء البحيرة ، كم تمنت أن تلقاه ولو للحظة .

حملت مشعلها فى يدها وأخذت تحملق فى سطح المياه الساكنة الذى كان ينشق بين الحين والحين عن أسراب وأسراب من الأسماك العابثة

اللاهية . وكانت الحسرة تاكل قلبها كما كانت تأكل قلوب الجميع .

وفجأة ... انعصر قلبها حتى كاد يتوقف .

فعلى اليسار ، هبطت العيون إلى أسفل حيث مدخل البحيرة . ورأى الجميع قارباً صغيراً يسبح فى بطء وسكون ، يضرب مجدافيه سطح المياه ، وتشق مقدمته أمواجها الرقيقة فى قوة واصرار ... وصاح أحد الواقفين عند المدخل :

« مين هناك ؟!»

وعلت الهمهمة هنا وهناك ... وتحول شاطىء البحيرة إلى خلية من الأجساد المتحركة القلقة ... والرؤوس قد استدارت كلها إلى حيث القارب ، بينما العيون تجاهد فى ضوء القمر الشاحب أن تلمح صاحبه . والقارب يقترب ويقترب ، والصياح يعلو فيشق الفضاء :

« مين فى القارب ؟! »

وأضاء أحدهم مشعله . فأضاءت امرأة مشعلها . ومرت لحظات غمر الشاطىء بعدها ضوء عشرات المشاعل ، وانعكس على سطح البحيرة وترقرق . وذاب ضوء القمر تماماً . وجاء بعدها صوته :

« أنا داكر .. »

وشهقت . ثم جمدت ولم تدر ماذا تفعل أو تقول . كان القارب لايزال يقترب من البحيرة ويقترب ، والأصوات قد علت وعلت . ثم صاح أحد الرجال :

« أرجع ياداكر .. ارجع حرام عليك شبابك » .

وتوقف المجدافان ، ثم وقف داكر بقامته المديدة الفارهة فى وسط القارب ، وصاح فى الرجال الواقفين عند المدخل :

« اللى عايز ييجى معايا ييجى .. واللى مش عايز .. »

وقاطعه صوت أبيه من فوق الشاطىء البعيد :

« ارجع يابنى .. ارجع حرام عليك .. كفاية اللى راحوا فى جوفها .. كفاية اللى بلغتهم » .

وقد عاد الى المجدافين ... وأخذ يضرب بهما سطح البحيرة فى قوة ... والقارب يسبح ويسبح ويسرع فى إنزلاقه ... ولم يستطع أحد من الرجالَ أن يعترض طريقه ... بينما ضوء المشاعل يغمر سطح البحيرة ... والقارب يتوغل ويتوغل ... وصوت يدوى فى الفضاء :

« حاتعمل إيه ياداكر ؟ » .

ولايرد داكر ، بل يوغل ويوغل ، حتى توسط القارب البحيرة تماماً ، ونهض من مكانه ، وجمد للحظة . ولكنها كانت لحظة مرت كلمعة البرق . ثم أخذ يخلع ملابسه . فانطلقت الصيحات تغمر الفضاء . كانوا يعلمون كما كانت تعلم أن البحيرة عميقة عميقة . وكان الكبار منهم يقولون إنها بلا قرار . فلم تستطع أن تكتم صوتها ، فصرخت . صرخت ملتاعة حتى أخرس صراخها كل الأصوات ... وأخذت تقترب من الشاطىء ، وخطت فى المياه خطوة ، فى يدها المشعل يضىء وجهها المفزوع ، ثم خطت خطوة أخرى ... وامتدت أكثر من يد تمنعها ، ولكن الأيدى لم تمنع صوتها :

« ارجع ياداااكر .. ارجع .. »

فاستدار بوجهه ناحيتها ... ورغم بعده الشديد ، فقد خيل إليها أنه يبتسم . وكانت تعلم أنه لن يرد ، ولكنها عادت إلى الصياح بصوت مختنق :

« ارجع .. ياداااكر .. أنا بطنى مليانه .. أنا حبلى ياداااكر .. حبلى .. » .

ساعتها ، خيل إليها أنه وجم ، فقد توقفت يداه عن خلع ملابسه ، واستدار نحوها تماماً . ومرت لحظة صمت عميق ... عاد بعدها يخلع ملابسه ثم تخلص منها تماماً . وانحنى إلى قاع القارب والتقط سكيناً لمع فى ضوء المشاعل . دس السكين بين أسنانه ، وانحنى والتقط سيخاً طويلا ... ثم هوى جسده الى المياه .

* * *

تنهدت العجوز ، وغرست أصابعها فى الرمال كأنها تريد اقتلاع شيء . وتمتمت شفتاها بلا حديث . وأغمضت عينيها كأنها لاتريد رؤية ماحدث بعد ذلك .

لقد اقتلع قلبها ليلتها منظره وهو يشق المياه عائداً ، ويتعلق بحافة القارب لاهثا ، والأصوات تدوى من حوله :

« فيه ايه ؟ .. لقيتها ياداكر ؟ .. »

« لقيت الجنيّه ؟ ! »

« ياأخى ماترد .. شفت حاجة ؟! » .

وصاحت هى بكل جوارحها :

« ياداكراااااكر .. يادااااااكر »

وعاد يختفى فى المياه من جديد .

وماكادت تمر لحظة حتى فار جوف المياه ، فار وغلى كأن لهيب الدنيا قد وضع تحت قاع البحيرة ... وشقت السطح سحابة رهيبة من الرذاذ المتناثر ، فصرخت . وصرخ الرجال ... وقالت أصوات :

« آهى هاجت .!»

« حضر نفسك ياجدع انت وهوه »

« خلى بالك هناك .. »

« اضربوا يارجاله على طول !»

« اوعى تفلت منكم »

فى لحظة ... نسيه الجميع إلا هى . وعيناها الجاحظتان تحملقان فوق السطح الثائر الرهيب بحثاً عنه . بينما الجميع فى تحفز منتظرين الجنيه .

ومن وسط سحب الرذاذ الذى امتلأ به سطح البحيرة ، سمعت صياحه . وسمعه الجميع . ولكن أحداً لم يره وقتها . كان يصيح بأعلى صوته :

« ده حو .. و .. ت . حو و و وت . حو و و ت محبو .. و .. وس .. حو .. و .. »

وضاع صوته المرتعب . كانت صرخاته مذعورة مذعورة . ولم تعرف صوته ... وردد الجميع فى ذهول وتساؤل : « حوت ؟!! » ... بينما كان صراخها يشق الفضاء :

« دااااا اكر .. دا اااكر .. »

وصاح من ورائها صوت مفزوع :

« آهو .. داكر آهو .. جنب القارب .. »

وتحولت العيون كلها إلى القارب ، كان داكر يتشبث بحافته فى استماته ، وكان وجهه يبدو من خلال سحابة الرذاذ باهتاً ، ورأته . رأت كفاه وذراعاه وهما يجاهدان ويتشبثان بخشب القارب . ويجاهد . وصرخت . ويعافر . وصرخت . كان كمن يقاوم شيئاً يجذبه إلى القاع . ولكنه أفلح . وصعد إلى القارب . وصرخت بصوت كان يحمل كل أحشاءها ... كان بلا ساقين !! .

شق صوته الفضاء فى وهن :

« حووت .. حوووت .. حو .. »

وانشقت المياه عن رأس شيطان هائل ، رأس كبيرة كبيرة .

عيناها واسعتان هائلتان . وسرعان مادفعت الرأس جسد القارب دفعة انقلب بعدها ... وغاص فى المياه ... وغاصت الرأس وراءه .

ولم تر منه شيئاً . لم سوى بقع دماء طفت على سطح البحيرة ، ثم ذاب لونها الأحمر فى لون مياه البحيرة السوداء .

همهمت العجوز بصوت خافت ، وأصابعها لاتزال مغروسة فى جوف الرمال . وعيناها معلقتان بالذرات الصفراء الرطبة ... وكان صوتها ضعيفاً متهدجاً :

« وبعدها ياولاد ... قتلوا الحوت . جابوا الحكومة موتته ... كان ييجى قد الجبل . قالوا إنه جه مع النوة الكبيرة اللى ماخلت ولاسابت . وإنه انحبس فى البحيرة . حاكم مدخلها واطى . الميه فيه تيجى شبرين . و .. ولدت عمكم داكر بعد تسع شهور تمام . هو راح فين ؟! .. قولوا له ييجى ياخدنى العشه .. الله .. انت رحتم فين ؟ . مشيتم ؟! . نمتم ؟ . نـ .. نهايته . كان السمك إللى فى البحيرة يغطى عين الشمس . والأشياء بعدها بقت معدن . ولااتجوزتش بعده راجل . مملاش عينى راجل غيره ... وكان محدش من الرجاله طلبنى ياولاد .. الله يرحمه .. »

وسقطت من عينها دمعة ، لمعت فى ضوء القمر .

١٩٥٧ .

# قصة رجلين

وأخيراً ... وبعد كل هذه السنوات ، أصبح على مدكور قبطان أن يقود السفينة . ثلاثون عاماً كاملة عاشها فوق الأمواج ، وطاف فيها حول الدنيا ، وخبر فيها مياه العالم شبراً شبراً ، وخور العالم ومحيطاته موجة موجة ، وصارع العواصف عاصفة عاصفة ... ورغم هذا ، فهو لم يك قائداً لسفينة قط .

ثم يقولون له اليوم ، وبعد هذا العمر الطويل ، تسلم السفينة وأقلع بها ... فأنت القائد ، انت القبطان !

وأصبح عليه أن يتسلم السفينة ، وأن يقلع بها ... فهو القائد .

ثلاثون عاماً كاملة ومدكور قبطان يشرب الخمر بلا حساب ، يجرع الكأس كأنه قطرة ، ويجرع الزجاجة كأنها كأس ، يشرب ليلا ، ويشرب نهاراً ، ولايكف عن الشراب ، ولايفيق ، ولايغيب مرة عن الوعى .

ثلاثون عاماً كاملة ومدكور قبطان يعمل كما يشرب ، يعمل فى الصباح ، ويعمل فى المساء ، يعمل فى النهار ، ويعمل فى الليل ، لايكف عن العمل ولايكف عن الحركة ... يصادق الناس ، ويصادق الرياح ، ويحادث الأمواج ، ويضحك للقمر عندما يطل عليه من السماء ، ويعبس فى وجه السحب عندما تخفيه عنه ... يضاحك هذا ، ويعابث ذاك ،

ويجلس مع البحارة كما يجلس مع القباطنة ، ويشرب مع الضباط كما يشرب مع الوقادين ... الكل أصدقاؤه ، يحب الجميع ، ويحبه الجميع ، ويشهدون له بأنه بحار من الطراز الأول ... ورغم هذا ، فهو لم يتسلم فى حياته سفينة ، ولم يك فى حياته قبطاناً لمركب .

وتساءل الناس كثيراً عن السبب ، وثرثر البحارة فى جلساتهم وهم يحكون عنه الحكايات ، ويقولون أنه سكير ، ولذلك لم يقد سفينة ، وأنه لايفيق ، ولهذا فهو لايستطيع أن يتحمل مسئولية !.

على أن مدكور قبطان لم يفكر فى هذا مع الناس ، وإن كان قد فكر فيه مع نفسه . ولم يتحدث فى هذا مع أحد ، وإن كان قد تحدث فيه مع عبد الباسط .

وعبد الباسط عجوز خفيف الدم ... قال الجميع عنه إنه ومدكور قبطان كأنهما فولة انقسمت إلى نصفين ، أحدهما مدكور ، والنصف الآخر عبد الباسط .

وعبد الباسط بحار مخضرم ، عمل فى الآلات وقاداً سنوات وسنوات ، وعمل على السطح نوتياً سنوات وسنوات ، وأمسك الدومان دومنجيا سنوات أخرى وسنوات ... وجذب الحبال والأشرعة مرات ومرات ، وآلاف المرات ، ولايزال يعيث طول النهار فى السفينة ، ويعمل فى كل شىء ، ولايطلب منه أحد أن يعمل شيئاً .

وهو الآن سفرجى .

يقول للناس ساعة انبساط ، أو ساعة غضب ، أنه وعى فوجد نفسه يركب مركبا ، وأنه خبر كل شىء فى السفن ، وعرف مخابئها واسرار قيادتها ، وأنه لو كان فى هذا البلد انصاف ، لأصبح اليوم قبطانا يشار إليه بالبنان ... لولا العمر ، ولولا السنوات التى حطت فوق رأسه فأشعلته

بالشيب ، وفوق جلده فجعدته وهدلته ، وفوق عينيه فأضعفت نظره . وأنه لو كان قد وعى لنفسه كما يفعل الرجال ، لكان اليوم يعيش فى قصر وينفق ببذخ ، ويكتنز من الأموال الوف الجنيهات وعشرات الألوف ... لولا الخيابة وصغر العقل ، ولولا الكأس الملعونة التى جعلته يبعثر باليمين ماكسبه باليسار ، ويقطع حياته عن أهله ، ويعمل بعد طول حياة صاخبة سفرجيا على سفينة .

ورغم هذا فإن عبد الباسط ليس سفرجيا إلا بالإسم فقط ، فكل القباطنة ابناؤه ، وكل هؤلاء الضباط تخرجوا من تحت يديه ، كلهم يحبونه وهو يحبهم ، لايفضل أحدهم على الآخر ، لايخدم أحداً ، ولايحمل طبقا أو صينية ... اللهم سوى زجاجة مدكور قبطان والثلج ، ولوازم القعدة فى الليل ... عندما يهدأ العجوز مدكور من دورانه وعبثه وعمله ، ويحط جسده السمين العريض فوق فراشه الصغير ، وينادى على عبد الباسط ، وتصبح الحياة وقتها حلوة . يتهامس ساعتها العجوزان . وتميل رأس إحدهما على الآخر . ويحكى كل منهما للآخر . ولاتقرع الكؤوس ببعضها ، بل تقرع بالشفاه ، وتفرغ زجاجة ، واثنتان ، وأحيانا ثلاثة ، وفى بعض الاحيان يطلع عليهما النهار ومدكور يقول لعبد الباسط : « أنا مايهمنيش ياعبد الباسط ياخويا ، أنا مش عاوز ابقى كومندان ، إنما العدل ، مفيش عدل ، والانصاف ، مفيش انصاف » .

وقد تكون الزجاجات قد كثر عددها ... وليلتها ربما تدمع عينا مدكور قبطان من الألم ، وربما دمعت مع عينيه عينا عبد الباسط وهو يواسيه ، ويسب الظلم ويقسم أنها لابد أن تتعدل ذات يوم ... وأنه لابد وأن يصبح قائداً لسفينة .

وعبد الباسط مؤمن أشد الايمان أن القبطان مدكور أحسن قبطان فى الدنيا ... وأنه قادر على أن يقود أكبر سفن العالم ، وأنه لولا البخت ،

وفى الحقيقة ، لولا الكأس ، هذه الملعونة التى كانت سبباً فى بلواهما ، لتغيرت الحال وأصبحت غير الحال ، ولكنه الحظ الأسود والبخت النكد .

وعلى كل ، فلن يأخذ أحدهما من الدنيا شيئاً ، فلن يعيشا قدر ما عاشا ، والآتيات أصبحن أقل من الرائحات ، وليشربا فى صحة مذكور قبطان ، وفى صحة عبد الباسط ، وليقرعا الكؤوس هذه المرة ، ولتزحف على شفاههما ابتسامات واهنة مرة ، وليقل كل منهما للآخر أن الصداقة هى كل شىء فى الدنيا ، وأن الصديق أحسن من الأخ ، وأحسن من الأب ، وأحسن من الزوجة ... وليتقارب قلباهما ، ويقسم كل منهما أنه مستعد أن يضحى بحياته فى سبيل صاحبه ، ولتتسع الابتسامات الواهنة وتصبح ابتسامات كبيرة تشمل الوجهين والعيون الأربعة ... وسيمضى الوقت ساعة وراء ساعة ، ويمضى معه العمر الذى مضى أغلبه .

ورغم هذا ، فلقد كان الرجلان أول الداهشين لهذا الأمر ، وأكثر الناس عجباً ، ولكن الدهشة مهما بلغت ، فإن الحقيقة دائما هى الحقيقة ...

وكان على مذكور قبطان أن يقود السفينة .

قال عبد الباسط يومها : « ألف نهار أبيض ... والف مبروك » ، ومضى فى السفينة فرحا مسروراً يصفق كطفل صغير ، يداعب هذا ويعابث ذاك ، ويقدم للرجال السجائر والكاسات ، ومضى يضحك ويضحك ولايكف عن الفرحة أو الضحك ، فاليوم هو يومه ، والدنيا أصبحت عال ، وكل شىء قد تعدل ... وأصبح مذكور قبطان قائداً للسفينة .

ولكن مذكور قبطان لم يضحك ، ولم يفرح ، ولم يترك كابينته منذ ساعات ، ولم يحادث أحداً ، ولم يضاحك أحداً ، وهز للرجال الذين هنأوه رأسه ... وقال هؤلاء عنه أنه كان شاحب الوجه . صامتا لايتكلم ؛ وأنه

ليس كعادته .. و .. و .. وثار عليهم عبد الباسط ، وقال انهم كذابون ، وأنه ليس شاحب الوجه ، وليس صامتا ... ثم لعن الناس والسنة الناس وحديث الناس .

حقا أن مذكور قبطان لم يغادر كابينته منذ أن علم بالأمر ، ومنذ أن عرف أن عليه أن يقلع اليوم . ولكن ليس معنى هذا أنه شاحب ... وحقاً أن وجهه مصفر قليلا ، ولكن ذلك من أثر سهرة الأمس التى شربا فيها كثيراً ... وحقاً أنه لم يكلم أحداً على غير عادته ، ولكنه ليس صامتا .

صحيح أيضاً أن عبد الباسط دهش من هذا فى البداية ، ولكنه قال أن ذلك من أثر الفرحه ، وصحيح أنه حاول أن يجعله يتكلم ، لكنه كان مقتضب الحديث ، وصحيح أن دهشة عبد الباسط كانت شديدة للغاية . وأنه ساءل نفسه عما اعترى الرجل ... ولكن دهشة الرجال كانت أشد عندما سمعوا مذكور قبطان يصرخ فى وجه عبد الباسط ، بل ويطرده من الكابينة ويقول له بأعلا صوته : « اطلع بره » .

وخرج عبد الباسط من الكابينة مذهولا ، وقبع فوق فراشه لايبرحه ، وحاول الرجال أن يكلموه فلم يتكلم ، وحاولوا أن يضحكوه فلم يضحك ، فقدموا له كأساً وسألوه عما حدث ، فقال لهم أنه لم يحدث شيء ... فقدموا له كأساً أخرى وسألوه عما حدث فقال لهم : « مصارين البطن بتتعارك » ... وقدموا له كأساً ثالثة وسألوه أيضاً عما حدث فسهم وقال شيئاً لم يسمعوه ... وأخرج أحدهم زجاجة ووضعها أمامه فعب منها ... ثم حكى لهم عن هذا الذى حدث .

والذى حدث شيء غريب ... سأل عبد الباسط مذكور قبطان عما به . فقال هذا : « ولا حاجة »، ... وضحك عبد الباسط وقال له : « ولا حاجة ازاى ...انت مش زى عوايدك » ... فرد مذكور قبطان : « سيبنى فى حالى » ... وقدم له عبد الباسط كأساً وهو يقول فى مرح :

« يحيا العدل ... والنبى انت سيد القباطين » ... وزجر مذكور فى جفاف : « قلت لك اسكت ياعبد الباسط » . وألح عبد الباسط فى عشم : « والنبى مانا ساكت الا لما تضحك وتفرفش وترقص كمان » ... ولكنه لم يضحك ولم يفرفش ولم يرقص ، بل صرخ فيه وسبه وقال له : « احترم نفسك » ... ثم قال : « اطلع بره !! » .

واقلعت السفينة ... وتهادت كالعروس وسط الميناء ، ثم انطلقت بكل سرعتها إلى عرض المحيط ... وخبت فى المياه ، وشقت طريقها ... وسبحت فى الوعاء البللورى الأزرق ، وتنسم الرجال الهواء البارد ملء صدورهم ، ونظروا إلى المياه الزرقاء العميقة الزرقة ، وإلى السماء الصافية المرصعة بنتف السحاب فوق صفحتها اللامعة الرائقة ... وتضاحك البعض ، وثرثر البعض ، وشرب البعض الآخر ... ولكن مذكور قبطان لم يتغير ، ولم يخرج عن صمته ، بل هو لم يترك حجرة القيادة الزجاجية الحوائط ولادقيقة ... ومضت ساعة وساعات ، وغربت الشمس ... ولما جاء الليل دلف إلى حجرته في صمت ، ولم يطلب عبد الباسط ، ولم يسأل عنه ، ولم يجالسه ، ولم يحادثه .

فحادث عبد الباسط نفسه ، وحادث الزجاجة ، وحادث الرجال ، وقال أهذه هى نتيجة صداقة العمر ... تستطيعون أن تقولوا عشر سنوات ، أو عشرين ، وهو لايذكر فربما كانت خمسة وعشرين سنة وأكثر ... ثم بعد هذا يقول له : « اطلع بره » .

وابتسم الرجال وهم ينظرون خلسة إلى بعضهم البعض ، وقال له رجل : « معلش ... الدنيا مافيهاش أمان » ، وهز عبد الباسط رأسه مصدقا ... وتركهم ومضى ، مضى إلى السطح ، وتمسح فى كابينة مذكور ، واقترب من الباب ، وسعل بصوت عال عله يسمعه أو يناديه ، ولكن الباب ظل مغلقاً ، ولم يسمعه مذكور أو يناديه ... فهم بأن يقرع الباب ،

ولكنه عاد من حيث أتى ، ووجهه المغضن محتقنا ... وعقله لايكاد يصدق .

وفى آخر الليل ... بكى ، وهطلت الدموع من عينيه كثيرة ؛ وأقسم ألا يحدث مدكور بعد ذلك ، وألا يحمل له الزجاجة والكأس ، وألا يستمع اليه ... وأن يتركه وحيداً كما تركه هو وحيداً . وأخذ بعد ذلك يشنج كطفل صغير ، وانكفأ على المنضدة ، وظل يبكى فى صمت ... ثم نام فى مكانه .

وفى اليوم التالى ، نسى الرجال حكاية عبد الباسط ، بل انهم نسوا عبد الباسط نفسه .

وفى اليوم التالى ، نسى عبد الباسط حكايته ، ونسى هو الآخر نفسه .

ذلك أنه فى اليوم التالى ... كانت العاصفة الرهيبة قد هبت ! .

ولاأحد يدرى كيف هبت تلك العاصفة ، كانوا يعلمون أنها ستهب بعد ذلك بأسبوع ، وكانوا يعلمون أنهم سيجتازون الخليج الرهيب بعد ذلك بساعات ، وكانوا أيضاً يعلمون أن الاقتراب منه ، وفى تلك العاصفة اللعينة ... أمر غير معقول .

وحدث الرجال أنفسهم ، وحدث بعضهم البعض ، وتساءلوا فى دهشة كيف هبت العاصفة ، وكيف سيعبرون الخليج ... ثم مضوا يعملون وهم يفكرون ويتساءلون ، والسفينة تترنح وتترنح ، واستيقظ النائمون ، وتحفز المستيقظون ، ووقفوا يرقبون البحر والسماء والأمواج ، وينتظرون بقلوب واجفة وصولهم الى الخليج ... الخليج الذى يبتلع له فى كل عام سفينة أو سفينتين ، والذى يحكى الرجال عنه الأساطير ، ويقول العجائز منهم إنه مسكون بالشياطين .

لم يكن أحدهم قد فكر فى العاصفة ، وإن كان مدكور قبطان قد أمضى يومه وليله يحسب حسابها ، ولافكرة فى رأسه إلاها .

... كان واقفاً ساعتها فى مكانه من كابينه القيادة ، صامتاً لايتكلم ، السيجارة مدلاة من بين شفتيه ، والكأس تتمايل بين أصابعه ، وشعره الأبيض مهدلا فوق جبينه ، وعيناه لاتبرحان الأفق .

وساعة أن رأى بوارد العاصفة من بعيد ، أيقن أنه كان على صواب .. وأيقن أنه كان على حق عندما هم ألا يقلع بالسفينة وقت أن قالوا له أنت القائد ، وعليك أن تقلع بها ... وأن يقول لهم أن العاصفة وشيكة الهبوب ، وأن اجتياز الخليج أثناءها أمر رهيب . وتردد كثيراً ، وساءل نفسه كثيراً وهو ينظر إلى العمود الفضى الذى كان يهبط فى مجراه الطويل منكمشاً من البرد ... وساءل نفسه كثيراً وهو يرقب المؤشر الذى كان ينوء بحمل الهواء الرهيب القادم من بعيد ... ساءل نفسه كثيراً ... أيقلع أم لا ؟ ... وساءل نفسه هل يستطيع أن يجتاز العاصفة ، ثم ساءل نفسه عن مصير الرجال ، وساءل أيضاً نفسه عما سيقولونه عنه لو أنه تردد فى الإقلاع بالسفينة !... ووقتها ، سأله عبد الباسط عما به ، فصمت ، وألح عبد الباسط عليه ، فكاد أن يخبره بالأمر ، ولكنه خجل ، وضاحكه عبد الباسط عندما كانت الحيرة تمزق عقله ... فصرخ فيه وسبه وقال له : « احترم نفسك » .. ثم قال : « اطلع بره » .

ومضى النهار وهو يسائل نفسه ، وحان الوقت ... وأقلع .

وما أن سبحت السفينة فى عرض المحيط ، حتى نسى كل شىء عدا تلك الفكرة المجنونة التى كانت تنهش عقله وصدره ، نسى نفسه ، ونسى طعامه ، ونسى حتى شرابه ، ونسى عبد الباسط ، ولم تذق عيناه طعم النوم ... وبقى متحفزاً يأكله القلق ، ويأكل هو قلقه ، وتمر الدقيقة وراء الدقيقة ، وتحمل له الدقائق الخوف ، وتحمل له الساعات نذر العاصفة .

... ثم هبت العاصفة .

كانت السحب السوداء تزحف من الأفق فى جحافل لانهاية لها ، جحافل ثقيلة باردة ، تسبقها تلك الطلائع الوحشية من الرياح ... وتحملها على ظهرها متقدمة نحو السفينة فى سرعة رهيبة ، ومالت الرياح إلى سطح المحيط ، واقتلعت منه أمواجاً كانت تعلو فى الهواء كالجبال ، وتصنع قممها زبداً أبيض فى لون الثلج ، وتتقوس سفوحها وتتقوس ، ثم تطبق على السفينة فى عنف ، وتتفتت رذاذاً يتناثر فيملأ الجو ، وترتج السفينة وتتمايل تحت قوة الضربات المتلاحقة التى كانت تنهال عليها من كل جانب ... والرجال قد تناثروا فوق ظهرها وفى داخلها ينتظرون ، والرجل الواقف إلى عجلة الدومان قد بدأت قدماه فى الانزلاق مع تمايل السفينة الشديد ... ومدكور قبطان لايكف عن العمل ، ولايكف عن الانثناء فوق الخريطة ... ثم الحملقة فى الأفق واصدار الأوامر !!

ومع جحافل السحاب المحملة بالأمطار والثلوج ، هبت من الأفق جحافل الظلام تغزو معها الخليج الثائر ... وارتفعت السفينة إلى أعلا فوق قمة موجة حملتها وهى تزمجر وتزحف فوق السطح المربد الثائر ، وسرعان ماانحسرت الموجة وأسرعت تذوب فى الخضم الهائل ، وهوت السفينة بكل ثقلها إلى أسفل ، وهوت معها قلوب الرجال واضطربت ، وانزلقت قدم الرجل الواقف أمام عجلة الدومان ، ومالت ذراعاه ، ومالت العجلة ، وانحرفت السفينة وهى تهوى . . ثم ارتطمت بالسطح الرهيب ، وفى نفس اللحظة انقضت عليها موجة غضبى ، وأطبقت عليها كأنها تريد افتراسها ، واهتزت السفينة اهتزازاً شديداً ، وأنت جدرانها ...

ودوت فى داخلها صرخة !...

وتصلبت الرؤوس ، وجحظت العيون وهى تتجه كلها نحو مصدر

الصرخة ، وارهفت الآذان ، وجاء الصوت من الداخل رهيباً فزعاً :
« المركب انفتحت ... »

وتنبه وقتها عبد الباسط ... وضرب جبهته بكفه ، وارتجف قلبه . ورأت عيناه الجسد السمين القصير ، والرأس الأشيب ذو الشعر المهدل فوق الجبهة العريضة وهو يهرول نحو مكان العطب ... وأيقن كل شيء ... وتلاشى الحزن من نفسه فى لحظة ، واحتضنت نظراته جسد صديقه ، وارتجفت جفون عينيه كأنها تربت على كتفه ، ثم هز رأسه فى اشفاق وخجل كأنه يقول لصديقه : « حقك على ، أنا فهمت .. »

ساعتها ، كان مذكور ينظر إلى الجرح الطويل فى جانب السفينة ، وهو ينز مياها كانت تتدفق بسرعة ، وفكر فى أن يعود بالسفينة من حيث أقلعت ، واضطرب قلبه ، وعوت فى رأسه أفكاره السوداء ، أيعود من حيث أتى ويترك وراءه الأعوام الثلاثين التى قضاها فى الانتظار ... وليقولوا عنه مايقولون ، وليحرموه بعد ذلك ، أو ينبذوه ، أو حتى يشنقوه ... وانفرجت شفتاه فى تردد ، وكاد أن يصدر أمره ، وكاد أن يرجع بالسفينة ، واستدار مهرولا ، ورفع عينيه إلى أعلا ، فالتقتا بعيون الرجال الكثيرة المحيطة به ... فتوقف ، ونكس رأسه ، وجز على أسنانه فى غيظ وألم ... وقرر ألا يعود .

وتحدث رجل ، وهمس آخر ... وصرخ ثالث وهو يغلق باباً ضخماً كاد أن يبتر ذراعه ، وهرول رجال كثيرون إلى هنا وإلى هناك ، وجاءوا بحبال وأشرعة ، ومراتب ، ومضت الدقائق ، وظلت المياه تتدفق من جانب السفينة الممزق المفغور كفم وحش يتقيأ حمما سائله ... ومالت السفينة إلى اليمين ، وانحسرت المياه عن أرض العنبر الصغير ، وانزلقت قدم رجل ، فسقط على الأرض ، وارتفعت موجة عاتية ، ثم هوت فى صفعة حادة فوق الجرح الطويل فازداد طولا واتساعاً ، ومالت إلى اليسار ، وتدفقت المياه

كالسيل من الفتحة الرهيبة ... وحملت معها جسد الرجل الملقى فوق الأرض ، وقذفت به إلى الحائط الصلد فى وحشية ... وارتطم الجسد كله بالحائط ، ثم هوى فوق الأرض بلا حراك .

وهرول إلى الجسد رجل ورجلان ... وهرول عبد الباسط نحو صديقه ، زاحم هذا ، ودفع ذاك ، وانحشر بين الاجساد ، ثم أصبح وراءه تماماً ... وكاد أن يلتصق به ، وكاد أن يربت عليه ، ثم سمعه يصدر أمراً ... واندفع بلا وعى ينفذ أمره .

وعلت المياه داخل العنبر ؛ وغاصت فيها الاقدام ، والسيقان . وأخذت تعلو وتعلو ، وأخذ الرجال يحاولون ويحاولون ، وازت فى جوف السفينة أصوات المضخات الهائلة تمتص المياه من العنبر ، وزأرت الأمواج وهى تلقى إليه أفواجاً أخرى من المياه وأفواجاً .
ومضت الدقائق ... ودوت فى السفينة صرخة أخرى . كانت الأمواج قد مزقت مكاناً آخر ، وتدفقت جيوش المياه إلى السفينة دون عائق ، وأخذت تسبح وتتسلل إلى كل مكان فيها ، كانت تتسرب من الأبواب والفتحات والشقوق ، وأخذت تغمر كل شىء ، وأغلق الرجال أبواباً وأبواباً ، ثم أغلقوا كل الأبواب ... دون جدوى !

كانت السفينة تترنح وتتمايل فى شدة ، وكانت الأمواج العاتية تزداد عتواً وتجبراً ، والرياح تهب سريعة مجنونة ، والسحب أخذت هى الأخرى تعتصر نفسها فى غيظ وتلقى إلى المحيط بأفواج تلو أفواج من الأمطار وحبات البَرَد التى أخذت تقفز هنا وهناك وتتطاير فى الجو ، وتذوب فى المياه ، والسفينة وسط كل هذا تنهال عليها الضربات من كل جانب ، فتتأرجح وتميل إلى الامام ، وتغوص مقدمتها فى المياه ، وتنقض عليها الأمواج ، موجة تلو موجة ... وتزحف لتغطى السطح ، ثم لتضرب حوائط الحجرة الزجاجية بلا شفقة ...

كانت العاصفة مجنونة !
وكان الرجال أكثر جنوناً ...
وكانت المياه تتسرب إلى الداخل ...
وكانت السفينة تغوص فى اليم ...
ومضت ساعة ... ساعة واحدة .

والعاصفة تزداد عنفاً ، والسفينة تزداد ضعفاً ، ومدكور يزداد يقظة ، عيناه تنفذان إلى كل مكان ، وعقله يعمل ، ويداه تعملان ... يهرول إلى داخل السفينة تارة ، ويحكم اغلاق الأبواب بنفسه ، ويدير المضخات بأقصى سرعتها ، ويتوسل إليها فى همس أن تمتص المياه وتمتصها ، ثم يهرول إلى السطح تارة ، ويرقب العاصفة فى ألم وتحد ، ويهرول إلى كابينة القيادة تارة ثالثة ... وينكفىء فوق البوصلة ، وتمتد ذراعاه إلى الدومان ... والسفينة تترنح وتترنح وتتلقى الضربات .

ووهنت الأذرع المفتولة ... ودوت فى الداخل صرخة ثالثة !..
واعتصر الذعر قلوب الرجال ...
كانت السفينة تغوص فى اللجه العارمة بسرعة رهيبة ...
وثقبت الآذان استغاثة رجل اقتلعته موجة وحملته فى جوفها وهى تزغرد فى وحشية ، وضاع صوت الرجل وسط الظلام والهول .

ثم دوت صرخة فزعة ... « المركب بتغرق » !! .

كانت السفينة قد مالت نحو اليمين ميلا شديداً وقد حاذى سطحها سطح المياة وأخذت الأمواج تغطيها ، وسرى الذعر إلى نفوس الرجال ، كل الرجال . فحمل أحدهم طوقاً للنجاة وقفز ... واندبت فى قلب مدكور قبطان لوعة حارقة ، وصرخ فيه أن يعود ، وتلاه رجل آخر ، وصرخ العجوز مرة ثانية ، واندفع فوج من الرجال نحو قارب النجاه ... وسرعان ماكان القارب يسبح بهم وسط الظلام والعاصفة ... واعتصر الألم قلب

العجوز ، واندفع نحو الرجال الفزعين ، يمنع هذا ، ويتشبث بذاك ، ويقول فى لهفه : « المركب مش حاتغرق .. » ، راح ، وجاء ، هدد ، وحايل ، وتوسل ، ورجل يقفز وراء آخر ، وقوارب النجاة تلقى وسط الأمواج فتحملها هذه إلى بعيد ... وهو يصرخ ، وعيناه قد جحظتا ، وذراعاه قد تشنجتا إلى الأمام ... وهو واقف عند قمة سلم صغير ، تحمل الرياح صرخاته وتبتعد بها دون أن يسمعه أحد ، وبح صوته من الصراخ ، واستدار مترنحاً ودلف إلى كابينة القيادة ... وكاد أن يصعق .

كانت الكابينة خالية تماماً ..!!

وتنبه ... كان دوى الآلات قد توقف . وساد السفينة صمت رهيب ، وكانت الأمواج تتقاذفها وتحملها مزغردة وسط العاصفة التى راحت تزأر فى الخارج .. واستدار نحو الباب ، ونظر فى جوف الظلام ، وبانت له أشباح الرجال وهى تذوب وتختفى ، وقفزت إلى ذهنه فى لحظة ، ثلاثون عاماً طويلة ، وتداخل لحم وجهه ، واستند بظهره إلى الحائط ، وتمايل بشدة مع تمايل السفينة ، وصعدت الدموع إلى عينيه ، ثم انزلقت فوق وجنتيه واختلطت برذاذ المياه ...

ولطمت موجة جبارة جانب السفينة ، فارتجت فى عنف ، وسقط فوق الأرض ... وسكن لحظة ، مجرد لحظة ، هب بعدها كالمجنون ، ودلف إلى كابينة القيادة ... ونظر إلى عجلة الدومان التى كانت تدور يمنة ويسره بلا رابط ، وملأ الغيظ قلبه ، وضاقت عيناه ، وهجم على العجلة ، وأمسكها بكلتا يديه ، وتشبث بها فى قوة وصرخ بكل قواه :

« المركب مش حاتغرق ، مش حاتغرق ... »

وامتدت يده إلى ذراع الآلات ، وحركة فى عنف كأنه يستجدى الآلة الصماء أن تدور ، وترك الذراع ، وراح يذرع المكان كوحش حبيس ... كان وحيداً ، وكان يضرب جبهته بكفة ، وينظر فى غيظ الى

الأمواج فى الخارج ، وجسده يهتز ويترنح كأنه يشرب ألف زجاجة ، وعوت الأفكار فى رأسه ، وعلت الضجة تطبل فى كيانه ، وعلا صوت الآلات ووصل إلى أذنيه ... وتوقف .

ظن أنه يحلم ...

وجاءه الصوت من جوف السفينة فى دوى مكتوم .

حملق فى الظلام غير مصدق .

واستمر الصوت ، واستقامت السفينة قليلا .

وصرخ ...

وهفت فى رأسه فكرة ...

كانت مجرد فكرة قفز بعدها كالمجنون نحو التليفون المعلق على الحائط ، ورفع السماعة وألصقها بأذنه ، ثم امتدت يده تدير الذراع القصير ... وجاءه الصوت عبر الأسلاك :

« أيوه .. مذكور قبطان ؟ »

« عبد الباسط ؟! .. عبد الباسط ؟!»

« إيوه ياقبطان .. »

وارتجفت كل خلية فى جسده ، وغامت عيناه ، وعاد يصرخ من جديد :

« انت مجنون ، اطلع ياعبد الباسط ، اطلع ، المركب بتغرق ، اطلع ياعبـ ... »

وقاطعه الصوت هادئاً :

« المركب مش حاتغرق ياقبطان ، مش حاتغرق . أنا قفلت الأبواب كلها ، الميه بتخش دلوقت بسيط قوى ، وشغلت طلمبات الشفط ... وبتسحب جامد ، والماكينات شغالة ... وعندنا سولار كفايه .. و .. و .. »

« عبد الباسط . انت زعلان منى ؟! .. »

« لأ ... »

« عبد الباسط ... حقك على ، أصل أنا كنت خايف من الـ ... » .

« ياقبطان عيب .. داخنا إخوات .. »

« عبد الباسط .. انـ .. ت .. حا .. تغر .. ق .. عبد .. الـ ... »

« مش عيب تبكى ياقبطان ؟!»

« عبد الباسط ، مش أنا قبطان كويس ؟!»

« إنت أحسن قبطان فى الدنيا .. »

« وحامشى المركب ؟ » .

« أيوه ... »

« وحانوصل ؟!»

« لوحدينا وحياة من جمعنا سوا .. »

وارتجت السفينة ... وسقط مدكور فوق الأرض ، وكانت الابتسامة تعلو وجهه وهو ينهض ويختطف حبلا ، ويربط جسده إلى عامود طويل ... ويمسك بالعجلة المترنحة ، وتستقيم السفينة ، وتترقرق دموع فى عينيه ، وتمتد يده إلى ذراع الآلات ، ويطلب ، ويلبى عبد الباسط ، والعاصفة فى الخارج قد ازداد جنونها ... وعوت الريح أكثر ، وزمجرت ، وهبت الأمواج كالوحوش تنقض على السفينة من كل جانب ... وتشبثت يداه بعجلة الدومان ... ولطمت موجة السفينة ، ثم ارتفعت أخرى ولطمتها ، فاهتزت ، وتمايلت ، وتكاثفت السحب ، وازداد هطول الأمطار ...

ومضت الدقائق ...

وصنعت الدقائق ساعة ... وساعتين ...

ومضت الساعات ، فأشرق الصباح ...

وبزغت من الأفق سفينة ينطلق دخانها فى الهواء ، وكانت تسبح فوق السطح الهادىء ، وفوقها كان الرجال يعملون فى نشاط ومرح عندما أطلق أحدهم صيحة ...

والتفتت الرؤوس ... والتقطت صورة شبح جاثم على سطح المحيط بلا حراك .

وأصدر القائد أوامره ، ودارت السفينة متجهة نحو الشبح ... وهبط قارب يحمل رجالا ، وأطلقت اشارات وصيحات ، ومضت دقائق ، ومضت ثلاثون دقيقة ، وستون ...

وامتدت يد قائد السفينة إلى ورقة والتقطت أصابعه قلماً ، ثم أخذ يكتب ، وتسلمت الورقة يد ، وهرولت قدمان ، وامتدت اليد بالورقة فتسلمتها يد أخرى ، وسقطت عليها عينان ، وسرعان ماأخذت أصابع اليد تعمل على زر صغير فى حركات سريعة ، ودقات متقطعة ، وسرت الدقات فى صارى السفينة الممتد نحو السماء ، وانطلقت منه فى موجات سريعة ، وسبحت الموجات تدور حول الأرض ، والتقطت آذان صفير الموجات ... وسرعان ماترجمتها إلى كلمات .

« عثرنا على نفرتيتى . مصابه بعطب شديد . الأمل كبير فى سحبها إلى ميناء قريب . القائد كان مربوطاً إلى عامود إلى عجلة الدومان . مصاب بشظية من الزجاج إخترقت القلب تماماً . يبدو أنها من زجاج كابينة القيادة المحطم بفعل العاصفة . على السطح عثرنا على وقاد فى حالة انهاك شديد . يبدو أنه كان فى حجرة الآلات . جارى إسعافه . يهذى باسم مذكور قبطان . وضع تحت العلاج مباشرة . الآلات متوقفه منذ فترة وجيزة . السفينة خالية تماماً من الرجال . أدينا التحية لجثة القائد . محفوظة بثلاجة السفينة . نرجو الإفادة » .

# العروسة

عشرة أعوام كاملة ... وهو يشترك فى السباق ، ويخسر .

عشرة أعوام منذ أن أصبح له قارب ، وهو يبذل كل جهده وطاقته لكى يكسب ولو مرة ، مرة واحدة ، دون جدوى .

كانت الأيام دائما تقترب من يوم السباق ، وكان العام يمر كالريح ، والرجال يستعدون ، وهو يستعد معهم ، يخرج القارب إلى البر ... ويظل شهرا دون عمل ، ولم يكن يهمه ، لم يكن يعنيه أن يأكل أو يشرب ، كل الذى كان يشغل باله هو أن يستعد ، كان يعرض قاربه الكبير للشمس حتى يجف ... ويطليه حتى يخف ، وينظفه حتى يصبح كالعروسة ... وكان اسم القارب العروسة .

ويأتى يوم السباق ... وتزدحم الميناء بالخلق الكثير ، ويقف الرجال مهللين ومغنين ... ويمتلىء سطح المياه بالقوارب الصغيرة ... ويمتلىء الجو بالأغانى وصوت الدفوف والمزمار ...ويمتلىء هو بالقلق والأمل ، وتنطلق الاشارة ، وينطلق القارب وينزلق فوق المياه بشراعه ... محروس يجلس بجانبه ، يشد الحبال ، ويرخى قلعا ليفرد آخر ... والريح تملأ الشراع ، والمياه تجرى من تحته لها أنغام كشقشقة العصافير ، وقلبه يخفق ، والأصوات تصل إليه من بعيد ، أصوات الأصدقاء ، وأصوات الشامتين ، وتعلو الصرخات من كل جانب ، وينقلب سطح المياه فى الميناء إلى زفة ، وتتطلع

كل العيون ، والقوارب تجرى من حوله ومن أمامه ، وتنساب إلى باب البوغاز ، ثم تنثنى إلى الفنار ، ومن الفنار تنحرف نحو الرصيف الكبير الملىء بالناس ...

ولكنهم كانوا دائما يصلون قبله ..

فى العام الأول قال « معلش » ... وفى العام الثانى قال « برضه معلش ، أنا لسة صغير » ... وفى العام الثالث لم ينم ليلة السباق ... ولكنه قال أيضا « معلش نأخذها السنة الجاية » ... وجاء العام الخامس فبكى من الغيظ . ثم ، مرت الأعوات العشرة وأصبح عمرة ثلاثين عاما كاملة ... ولم يكسب فيها مرة !!

وهذا العام قرر ألا يدخل السباق .

بل أصبح لايطيق ذلك اليوم ... ويفر من كل جلسة تأتى فيها سيرته . ومرت الأيام ... وطوت فى داخلها عام .

وقرر سيد الحموى ألا يدخل السباق هذا العام ... فهو لن يجنى منه سوى الوكسة والعار . واسمه سيكتب دائما فى الذيل .

سنوات عمره كلها قضاها فى البحر ... يداه منذ الصغر لاتعرفان الطريق آلا للمجاديف وحبال الشراع ، والدفة فى يده أليفه ، لينة طيعة ... والقارب كله ينصاع لقيادته كما تنصاع له أصابعه .

ورغم هذا فهو لايكسب !

وسيد الحموى قد قرر ألا يدخل السباق بعد ذلك .

قال له محروس : « عيب ياسيد ، لازم تخش ، ويمكن .. يمكن تكسب »

ورد عليه فى ضيق : « مش حانخش السبق ، خلاص يامحروس »

خلاص ... قرر سيد ألا يدخل السباق ، ولن يدخل سيد السباق .

وبقى من الزمن شهر .

وأخرج الرجال قواربهم إلى البر ، وبقى قاربه فى الماء .

وامتلأت ساحة الخليج بأرضها اللينة المنخفضة بالقوارب ... قوارب كبيرة تستعد لليوم الموعود ، وقوارب صغيرة تستعد للزفة والتشجيع ، والرجال يكحتون ، وينكتون ، والعمال يعملون ويصنلحون ولايهدأون . كان الرجال كثيرين كالقرود ، يتسلقون ويهبطون ويقفزون ويعملون ويأكلون ويشربون الشاى ويدخنون السجائر والجوزة ... الرايات الملونه غسلت وعلقت ترفرف فى الهواء ، والأشرعة البيضاء بانت مشرعة على الأرض كأنها كسوة العيد ... والساحة أصبحت كخلية النحل ، والرصيف قد خلا من القوارب ، إلا من قلة ضئيلة هزيلة من بينها قاربه ، بانت وقتها غلبانه منكسرة لا حول لها ولا طول ..

كان يمر على الرجال فى الصباح فيجدهم منهمكين ... محمود ينظف قاع قاربه ، وزينهم يحكت الجوانب ، وعمر يحرق الطلاء القديم ، والحاج حسن حوله عشرة صبيان تحت امرته ، والألوان الزاهية تبهر العين وتفرح القلب ، ودبت فى المكان ضحكات العيد ، وقاربه فى المياه ... لاطلاء أحرق ، ولاقاع كحت ، ولارايات غسلت ، ولاضحكة رفت على شفتيه .

وحدثته حسنية ذات مساء ، فكاد أن يضربها ، وكادت أن تترك له البيت غاضبة ... وقالت له فى ثورتها وهى تصرخ فى وجهه :

« أنت خايف ياسيد ؟! »

وصمت ليلتها سيد ... ولم يرد عليها سيد ... ودفن رأسه فى الوسادة وهو يقول لنفسه اللهم اخزيك ياشيطان ... ولكنه لم يخز

الشيطان ، بل هب واقفا كالنمر الهائج وصرخ فيها ، ورفع يده عليها ثم عاد وتكوم فى الفراش ، ثم عاد ونهض ودخن ، ثم قام وترك لها البيت وخرج إلى الطريق .

الدنيا كانت ليل ... والفوانيس معلقة هناك فى الساحة الواسعة ، والرجال لايزالون يعملون ويضحكون ويستعدون للسباق ... وهو قد صمم ألا يدخل السباق ... قاربه قائم وحده كالحوت ، لاأنيس ولاسمير سوى قوارب صغيرة كالأسماك الوليدة ، يتلاعب شراع قاربه المطوى بينها فى الظلام كعملاق مسلول .

ووقف سيد امامه .

الدنيا ظلام فى ظلام ، وكل شىء راكد ، كل شىء هامد ، لاحياة ولا حركة ، ولا طلاء ولا رايات ، واقترب من القارب ، ومد اليه يده ، وربت على جانبه ، ثم مد قدمه وقفز إلى داخله ، وجلس فى الليل يدخن ، ينظر إلى النجوم المنثورة فى السماء ، ويصغى إلى الأصوات الآتية من هناك ، ويضرب قلبه جنبات صدره ، وتغرق عينيه فى ظلام الماء الساكن تحته ، وتمتد يده الى الماء فتعبث فيها أصابعه ، ويتمنى أن يقفز اليه ، ويدثر نفسه فى طياته ، ويغوص ويغوص ... ويعيش وحده فى القاع ، وهو قد يفعل ذلك ... لولا حسنية .

ولايذكر سيد بعد ذلك شيئا ... كل الذى يذكره أنه قال للقارب :

« ليه مش عاوز تنصرنى ؟ »

ولم يرد عليه القارب !! .

وفى الفجر مضى الى البيت .

فى الصباح قالت له حسنية : « انت لسه زعلان ياسيد ؟ » . وقال لها : « لأ مش زعلان » . وقالت حسنية : « ياسيد دنامراتك ، انت نسيت ياسيد آنى نبقى مين ؟!» . وقال بجفاء : « اصطبحى على

الصبح ياولية » . وقالت حسنية : « العروسة لسه مانسيتش » . وقال سيد : « يافتاح ياعليم » . وألحت حسنية : « مش أنا برضه حسنية ؟ » . وقال سيد : « وأنا قلت حاجة ؟ » . وقالت حسنية : « مانا عاوزاك تقول ياسيد » . فتسائل : « بس أقول أيه ؟». وقالت حسنية : « وحياة غلاوتى تقول ، إيه اللى مزعلك ؟ » . وقال سيد بلا وعى : « أنا ... أنا خايف ياحسنية » .

* * *

ووجم سيد ... وابتسمت حسنية .

« خايف من إيه ياسيد ؟ » .

ولم يرد سيد ... ترك البيت وجرى .

ووجد نفسه فى وسطهم من جديد ... وقال زينهم : « نويت على ايه ياسيد ؟ » ... وقال سيد : « مش داخل السبق » ... وصمت زينهم وتركه ، وجلس سيد ينظر إلى القارب .

جاء زبون ، وقال سيد : « أنا تعبان » . وجاء آخر ، وقال سيد : « مانيش طالع » ... ومضى النهار ، وسيد ينظر إلى القارب .

يوم وراء يوم ، والساحة لاتنام طيلة الليل ، والرجال يستعدون للعيد ، وحسن ومحمود وزينهم يحدثون سيد : « عيب ياسيد ، محدش ضامن » ... ولكن سيد لن يدخل السباق ، ولن يكتب اسمه بعد اليوم فى الذيل ... ويكفيه من العمر عشر سنوات .

جلس فى المقهى ذات يوم ... لايدرى ما الذى حدث سوى أن الحاج حسن قال : « السبق للجدعان » .. وقال سيد : « يعنى هو اللى مايخشش السبق مايبقاش جدع ؟ » .

وقهقه الرجال ... وقال الحاج متهكما : « عيب ياسيد .. حد

داس لك على طرف ؟ » .

عشرة أعوام وهو يدخل السباق ... عشرة أعوام وهو ينتظر اليوم ويستعد ... يكحت ويطلى ويعلق الرايات ويبخر القارب ويقسم أن يقيم ليلة للّه ... عشرة أعوام والعروسة تنطلق وسط القوارب كالعروسة ، مزينة لامعة ، تتهادى فى البداية وتمخر المياه ، وتسبق ، ثم تثقل وتتراجع ، ويكتب اسمه دائما فى الذيل ! .

لا ... لن يكتب اسمك ياسيد بعد اليوم فى الذيل .

كفاك ياسيد وكسة ... وكفاك ذلا ، وكفاك ماقالوه فى كل عام ... وكفاك أنك لم تكسب ولامرة ... فما الذى تجنيه سوى الغم والكمد ، وكتابة اسمك دائما فى الذيل .

وليلة السبق لم ينم سيد ... حاول أن ينام ، ولكنه لم ينم ، حاول أن يجلس مع الرجال ، ولكنه لم يستطع ، كانوا هايصين ، الحاج يجلس وسط شلة ، وعبده وسط شلة ، ورومه وحسين وعلى ومحروس ... والدنيا كلها ، والقوارب نزلت إلى المياه ، وراحت فوقها وجاءت ، وتهادت وتبخترت ، وقاربه ملطوع فى مكانه لم يتحرك .

وطلع النهار .

ووجد سيد نفسه فى وسطهم .

رصيف الميناء كان يشغى بالخلق ، العيال والبنات ، خواجات وأولاد عرب ، وناس ، ناس كثيرون كأن السماء أمطرتهم فأغرقت بهم الدنيا ... وهو فى وسطهم حائر ، عيناه زائغتان ، وقلبه يتهاوى بين ضلوعه ، وأنفاسه ... أنفاسه باردة لاهثة ، وحسنية بجانبه ، وزغدانه سيدة ، وعطيات ، وكلهن كلهن تجمعن ووقفن يرقبن مع الخلق الكثير ، القارب لايزال يتطوح صاريه كالمارد المسلول ... وقالت حسنيه :

« مالك ياسيد ؟ » .
« ولا حاجة ياحسنية »
« سيد ؟ .. »

ولم يرد سيد ... كانت عيناه معلقتان بالقارب الذى كان يتمايل وسط القوارب المزوقة كالأجرب ، لاحياة فيه ولابنادير ، ولا طلاء جديد ولا أعلام ، وقالت حسنية :
« سيد ؟ »
ورد سيد ... وقالت حسنية :
« انت نسيت ياسيد ؟»

لا ... لم ينس سيد ... لم ينس أيام أن كان يصحبها فى العروسة ، وكانت حسنية وقتها عروسة ، يطوفان المياه ، يشرق ويغرب ، يتهادى ويتمايل ، ويغرقان فى الضحك ، ويربت على جوانب العروسة فى فرحة وهو يقول : « ياالله ياعروسة .. اسبقى الريح ياعروسة »

لا ... لم ينس سيد ... لم ينس وغلاوة حسنية عنده ، لم ينس أبداً أنه قال لها وهو يضحك : « وأيه يعنى لما أخسر ، حافضل كل سنة وراهم وراهم لحد مااكسب ياحسنية »
وجاءه الصوت من بعيد :
« انت نسيت ياسيد ؟ »
« لا ... مانسيتش ياحسنية »
الساعات تجرى ، وسأل سيد أحد الأفندية : « ساعتك كام يافندى ؟» ... وقال الأفندى : « أربعة إلا ربع » .

بقت ربع ساعة ياسيد ، وبعدها تنطلق الطلقة ، وتفر القوارب كلها إلى عرض المياه ، وقاربك ملطوع ياسيد ، وأنت واقف هنا تتفرج ، كالأغراب ، كأنك لست ابن كار ، وكأنك لم تركب فى حياتك قاربا .

هل هذا كلام رجال ياسيد ؟ ... له حق الحاج عندما ضحك عليك وقال السباق للجدعان ، أليس السباق حقاً للجدعان ، وألست أنت أحد الجدعان وأولاد الكار ياسيد ؟ ... إياك أن تترك السباق ياسيد ... فجأة صرخ سيد :

« حسنية .. »

ونظرت اليه حسنية ... عيناها حلوتان تجذبان القلب من موضعه ، كانت فى صمتها تقول دائما « ياعنين حسنية » .

« البنادير ، البنادير ياحسنية ... تقدرى تجيبيهم من البيت قبل الـ ... »

« البنادير فى القارب ياسيد .. !»

« ايه ؟ ... مغسولين ؟»

« ومكويين وحياة غلاوتك .. »

« والغيار ؟ »

« معاهم ياسيد .. ربنا ينصرك ياسيد » .

وانطلق سيد كالمجنون وسط الزحام يدفع الناس ، ويلهث من الاضطـراب ، وينـادى بأعلى صوتـه : « يامحروس ... يامحروس ...يامحرووس »

وانطلق صوت حسنية وسط الضجيج والغناء كالزغاريد تنادى هى الأخرى على محروس .

وقفز سيد إلى القارب كالجن المصور ... وانقضت يداه لتفتحا باب الدولاب الكبير فى قاع القارب ، وجذبت أصابعه اللفة الضخمة ، وأخذ يعمل فى سرعة ولهفة وهو يصرخ على محروس :

« يامحروس .. يامحروس .. حانطلع ، حانخش السبق ، وحياة المرسى لانخش السبق » .

كان صوته يخفت ويخفت حتى أصبح همساً ، وكان يقفز هنا وهناك ، ويجذب الحبال ، ويعلق الرايات ، ويروح ويجيء فى سرعة ، ولايكف عن الحديث مع محروس الذى لم يكن موجوداً ... « يامحروس ، لازم نخش السبق ، لازم نمشي مع الجدعان ، نخسر نخسر مش مهم ، المهم نكون راجل مع الرجاله ، أنا كان جرى لى إيه ياواد ، العروسة لازم تجرى مع القوارب ، ولازم تميل وتتمبخطر ، ونزفوها يامحروس ... يامحروس .. » .

وتلفت سيد ولم يجد محروس ، وانطلق ينادى من جديد ... ولبى محروس النداء من بعيد :

« سيد ياحموى .. سااايد .. سا. ا.ا.ايد » .

وتمايل القارب عندما قفز إليه ، وانضمت يداه الى يديه ، وسرعان ما أخذا يعملان وهما يتكلمان دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر :

« كده ياأبو السيد .. فى آخر دقيقة » .

« ايوه .. »

« نويت ؟»

« ايوه .. »

« جدع والنبى .. »

« ايوه .. »

« رفعت القلع الكبير ؟»

« ايوه .»

« وحانطلع السبق؟»

« ايوه .»

« ياحلاوة النبى .. »

« أيوه .. »

« وإذا خسرت ؟»

« أيوه .. »

« حاتخش السنة الجاية ؟»

وتوقف سيد عن العمل ، ورفع عينيه لبرهة إلى محروس الذى كان يعمل ويعمل دون أن ينظر إليه ، ورفت ابتسامة على وجه سيد ، وقال وهو يعود إلى العمل :

« أيوه .. »

ومضت دقيقة ... واثنتان ... وثلاثة ... وأربعة ... وبقت خمس دقائق .

وانطلقت العروسة نحو الصف الطويل من القوارب الواقفة فى الانتظار ... وسمع سيد من بعيد صوتاً يقول :

« سيد الحموى داخل السبق ياجدعان .. »

« زمر ياجدع .. سلام مربع للعروسة .. »

وانبعث اللحن يزغرد فى الهواء ، واستدار سيد نحو الرصيف فى لفتة سريعة ... والتقطت عيناه صورة الناس والزحام ... ورأى حسنية تقف وسط العازفين وعلى وجهها ابتسامة سعيدة ... وانساب القارب فوق السطح الأملس ، وتمايل ، ودار ، وتطايرت من حوله القوارب الصغيرة المزينة المليئة بالطبل والزمر والضحكات والتهليل ... وأخذت تفر من أمامه مذعورة كالأسماك الصغيرة أمام حوت كبير ... وشقت العروسة طريقها فى سرعة ، وامتلأ شراعها الهائل بالريح ... ومالت على جانبها متبغددة متراقصة ... وكان الصف الطويل من القوارب يقترب ... وكلها مستعدة ، المعلمين الكبار وراء الدفة ، والصبيان على الحبال والأشرعة ، والعروسة تطير وتنزلق وتسبح ، والأعلام الصغيرة تصفق فوق حبالها ... وما كاد سيد أن يصل إلى صف القوارب ويحاذيه ، حتى دوّت طُلقة البداية ... وانطلقت القوارب ، وعلت الضجة ، والصياح ، والهتاف ، وصاح سيد وهو جالس

جوار الدفة نصف جلسة ... صاح بكل قواه :

« ياللّه ياعروسه .. اسبقى الريح ياعروسه .»

١٩٥٧

# رحلـة

كان اليوم من أوله قائماً ، لارزق فيه ولاقرش . السحب السوداء قد تجمعت وصنعت ستاراً كثيفاً ظلل الدنيا بلون داكن كئيب ، وبين الحين والآخر ، كانت ذرات المطر تتساقط فتغسل حجارة الرصيف السوداء العريضة . وتهب الرياح فيترنح كل شيء ويهتز . وسطح المياه يتلاعب بالقوارب الخالية المتراصة فى طابور هامد لاحياة فيه ، تتمايل صواريها العالية فى الهواء ، وتحتك جوانبها فى أزيز متقطع كأنه الأنين .

وبدا الرصيف خالياً من الرجال تماماً . وثمة أصوات تنبعث من داخل المقهى القائم فى ركن المكان ... حيث تناثر الرجال حول الموائد الخشبية الحائلة اللون ، وأخذوا يثرثرون بكلمات ممطوطة متكاسلة ، تخرج من أفواههم لتذوب وسط الكسل الدافىء الذى غلف كل شيء .

ثمة رجلان هنا ، وثلاثة هناك ، وجماعة قد التفت حول أكواب الشاى والقرفة الساخنة ، والدخان يتصاعد من الأنوف والأفواه وأطراف السجائر وأحجار الجوزة ... والكلمات تتناثر ، وينتقل الحديث من فم إلى إذن ، ومن منضدة إلى أخرى ... وزعق رجل ، ورد عليه آخر ، وفتح الصامتون أفواههم ، وحملق الذى كان النوم قد أغلق جفنيه ، وانتفض الكسل ثم ذاب تماماً وسط ضجة النقاش الذى احتدم فجأة فبعث الحياة فى المكان . وبدا الأمر وكان هناك خيطاً يلضم الكلمات

كلمة وراء كلمة ، وإذا الجميع يتحدثون فيما جرى ذلك الصباح .

والحقيقة ــ رغم احتدام النقاش وانقسام الرجال إلى معسكرين ــ أن أحداً منهم لم يكن يدرى ما الذى حدث على وجه الدقة ، كل مايعرفونه ان عم عطية ثائر مغتاظ ... وأن رومه قال له :

« انت متقدرش تجدف لحد رصيف النورس ! »

وسألوا سلامه الجرسون الذى حضر الواقعة ، وقال سلامة أن الأمر بدأ مزاحاً فى مزاح ... ثم انقلب إلى جد ولايدرى كيف ، وأن عم عطية كان يشرب شاى الاصطباحة مع رومه فى أمان الله ، وفجأة ، رآه ثائراً هائجاً يسب آباء رومه وأجداده والذين خلفوه .

وبدا الأمر للرجال ماسخاً لاطعم له ... ان رومه يعرفه الجميع ويعرفون قلة أدبه ولسانه الطويل . وعم عطية رجل عجوز تجاوز السبعين ، خلقه ضيق ، ولايحتمل أن يعارضه أحد فى رأى ، أو يقول له « بم » ...

قال البعض أن رومه عليه الحق ، وأنه غلطان . وقال البعض الآخر فى استهانه : « وفيها إيه يعنى ؟! » ... وانبعث صوت عم عطية ــ وكان حاضراً ــ من ركن المقهى يسب الجميع ويلعن للجميع آباءهم . وبدا الغضب واضحاً على وجه العجوز ، بدا فى عينيه الحمراوين وعروق رقبته البارزة ، وارتعاشه كفه التى كان يطوحها فى وجوههم منذراً محذراً ، ثم يدق بها فوق ركبته وكأن شياطين الأرض قد ركبته وقد يقول :

« آنى منقدرش نروح للنورس تجديف ؟! .. آنى ياولاد الكلاب .. آنى ؟ »

ثم يصمت ملياً ، ويعود ليضرب كفاً بكف فى قوة كأنه يصفع بها أحداً ... ثم يستطرد فى حرقه :

« والله زمن أغبر ياقواريية ... معادش فى البلد رجاله !»

وقال رجل بصوت هادىء يحاول أن يهدىء به ثورة عم عطية :

« معلهش يابا عطيه .. الطيب أحسن .. »

ولكن رجلا آخر أبى إلا يتفرج على ثورة عم عطية ، فغمز جاره بعينه ولكزه بكوعه وصاح وهو يدارى وجهه :

« هو يعنى رومه كفر ؟! .. وألا يعنى رومه كفر ؟! »

وازدادت ثورة عم عطية ... وهم العجوز واقفاً وأخذ يصيح فى الرجال فى هستيرية أذهلتهم . ووقتها فقط ، أحسوا انه غضبان حقاً ، وأن الأمر بالنسبة إليه لم يكن هيناً . فنهض الريس زيد من مكانه متجهاً إليه ... وربت على كتفه فى حنان وقال :

« حقك على يابا عطية .. أمسحها فى أنا » .

وجلس عم عطية فوق المقعد ، وزفر فى غيظ . وعاد الريس زيد يسأله فى حنان :

« نجيب لك واحد شاى يامعلمى ؟»

وقال عم عطية فى صوت مختنق :

« بعد العمر ده كله يازيد ؟.. آنى يازيد ، مش عيب برضه ... آنى منقدرش نروح النورس تجديف ؟ .. بعد الـ..عـ..»

واختنق صوت العجوز ، وارتعشت كلماته فوق لسانه ... وحط السكون على المكان فابتلعه ، حتى كركرة الجوزه كفت ، واستدارت كل الرؤوس نحو الجسد الذى قبع فى ركن المقهى وقد دفن رأسه فى كفيه ... وأخيراً جاء صوت الريس زيد :

« آبا عطية .. وحد الله امال ، رومه زى ابنك برضه !»

وسرعان ماارتفعت الأصوات وكأنها تطارد الصمت بلا هواده ... وتحمس رجل وسب رومه ولعنه ، ونهض آخر وقبل رأس عم عطية ، ودلف رومه من باب المقهى وهو يدثر رأسه بشال صوفى ، والتفتت اليه كل

الوجوه ، وغمزت له أكثر من عين ، وسبه رجل عجوز ، وتشابكت الكلمات ، وساد الهرج ... وعم عطية صامت لايتحدث . ترتجف السيجارة التى قدمها له أحدهم بين أصبعيه ... وتتسرب عيناه خلال الزجاج إلى حيث الرصيف الخالى الممتد ، والقوارب المترنحة الفارغة ، والمياه المتلاعبة ، وتدور عيناه وتدلفان إلى الداخل ، وتسقطان فوق وجوه الرجال ... وكل شىء يبدو باهتاً لا لون له . وفى عقله دوامات تدور وتدور . وأنفاسه تتردد فى صعوبة ، وثقل مخيف يجثم فوق صدره ... وجاء رومه وقبل رأسه واحتضنه وقال له : « حقك على » ... وكانت أفكاره فى تلك اللحظة قد وجدت بؤرتها فتركزت حولها ، وانبثق من عينيه بريق خاطف ، وتصلبت ملامحه وهو يردد :

« معلش .. معلش .. ربك يسترها!»

ونهض على الفور من مكانه ... وتابع الرجال جسده النحيل وهو يغادر المقهى إلى الرصيف ، وعبثت الرياح بملابسه ، وكادت تتلاعب بجسده ... كانت كتل السحاب قد تمزقت وتفتتت فوق صفحة السماء . وأطلت الشمس بقرصها الدافىء وألقت إلى الأرض بشعاع واهن . وسار عم عطية إلى حيث تكوم بجوار الحائط ، واعتمد رأسه بين كفيه . وأخذت عيناه تحملقان فى سطح المياه المتلاعب ، ثم ترتفعان إلى حيث كان يبدو له ظل رصيف النورس وقد نهض وسط المياه كعملاق أسود ضخم ... وعربدت الخواطر فى رأسه ، ثم انزاحت وتركت وراءها خاطراً عربيداً ظل يكبر ويضغط على رأس العجوز حتى كاد ينفجر .

ساعة وراء ساعة ، وعم عطية لايبرح مكانه ، تفر منه عيناه رغماً عنه إلى ظل الرصيف ، والرياح تشتد ويعلو صفيرها وزئيرها ... والجو أصبح رهيبا ، والأمواج تكاثرت وتلاحقت قممها الحادة فبدت كأسنان وحش أسطورى .

وكان عم عطية يتعذب .

وكان أكثر مايعذبه هو ذلك الخوف الذى راح يتسرب إلى قلبه كلما خطر له ذلك الخاطر ، وأخذت عيناه الضيقتان الخبيرتان تجوبان السماء وتنزلقان الى المياه وترقبان الأمواج . وما أن يتملك منه خاطره ، ويهم من مكانه حتى يشعر وكأن قيداً يشده الى الأرض .

ويلح عليه الخوف عربيدا قاهراً ، حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر لايعدو أن يكون مزاحاً . وحاول أن يقنع نفسه بأن رومه قال له « حقك على » . وحاول أيضاً أن يقنع نفسه بأن الرجال يعرفونه ويعرفون مقدرته ومكانته ... ولكن الخاطر الرهيب كان دائما أقوى منه . كان يتمطى ويكبر ويسيطر على مشاعره وينهشه بلا رحمة . وكان الأمر يبدو مستحيلا فى جو كهذا .

وعندما مالت الشمس نحو الغرب .. وأخذ ضوء النهار يشحب ... كانت رأس عم عطية تغلى كبركان . وكان يدخن ويزمجر ويزفر ، ويتحسس ذراعيه بكفيه ، ويزم شفتيه فى قوة ... ثم انفجر الخاطر ... وبرقت عيناه . وزفر كأن حملا ثقيلا قد انزاح من فوق صدره . وتطلع إلى صف القوارب أمامه .

ونهض .

وخطا إلى الأمام خطوة .

وارتعشت ساقاه . وأحسن بقدميه ضخمتين كبيرتين وقد سرى فيهما التنميل . ثم أخذت الحرارة تدب فى أوصاله . وخطا خطوة أخرى . وأخذت قدماه تضربان الأرض ، خطوة وراء خطوة ، والمقهى يبتعد من وراءه ، والقوارب تفر من جانبه ، ثم توقف أمام قاربه .

وعندما انحنى ليفك الحبل الذى يربط قاربه بالرصيف ، عوت الريح ودفعته بشدة ، فمال جسده وترنح ، وتمايل القارب وترنح . ومد العجوز

قدميه إليه ، ثم قفز .

وامتدت يداه الى المجدافين الراقدين فى قاع القارب ، وأخذتا تعملان فى سرعة ... وماهى الا برهة وجيزة ، حتى كان القارب ينزلق على سطح المياه الواسع الممتد الى بعيد .

وبدأت الرحلة .

دق قلبه بعنف ، وتدفقت الدماء فى عروقه ، وانبهرت أنفاسه ، وسهمت عيناه برهة ، وتمايل قارب كبير كان يمر بجانبه ، وتطوح الصارى فرسمت نهايته المدببة خطوطاً متشابكة فى الفضاء ، وتقلص قلبه فترة ، ثم نبض نبضة قوية ، واستوت يداه فانفرد المجدافان على جانبى القارب كجناحين عاريين بلا ريش ، ودارا فى الهواء بنظام تحكمت فيه كفاه الخبيرتان ، ثم هبطا فى وقت واحد نحو سطح المياه وغاصا فيه . ثم ارتفعا من جديد وقطرات المياه تنزلق منهما فى نغمة متآلفة منسقه دفعت بالدفء إلى قلبه ... وأخذ جسده يميل الى الخلف فيندفع القارب ثم يعتدل ويدور المجدافان فى الهواء ، ويميل جسده مرة أخرى ، ويضرب المجدافان سطح المياه ... والقارب ينزلق فى يسر ، وذراعاه قد سرت فيهما رعدات خفيفة لذيذة ... وانتشت نفسه وأخذ يعمل بكل قواه .

كان الصمت يسود كل شىء ، والقارب أخذ يترنح فى سيره فوق الأمواج الصغيرة وقد بدت ككثبان متتالية لانهاية لها ، وعندما استدار ليواجه صفحة الميناء المتسعة المترامية ، كانت الرياح تندفع فى قوة قاهرة ، وقد بدا له صف القوارب فى ضوء الأصيل كأشباح تتلاعب فى الفضاء ، والضوء قد انبعث من المقهى شاحباً ، وقرص الشمس يغوص فى الأفق ... والقارب ينزلق فوق المياه كأنه يعرف الطريق .

كان الرجال فى ذلك الوقت غارقين فى ثرثرتهم وكسلهم ... وأوراق اللعب تصفع أسطح المناضد صفعات متتالية حادة ، والضحكات تختلط بالكلمات ، ورجال أغمضت عيونهم وراحوا يغطون فى نوم قلق ، وآخرون قد تحلقوا حول إحدى المناضد وأخذوا يثرثرون ، وصوت الراديو ينطلق فيحدث مع الأصوات نشازاً هادراً ، وضوء المصباح بدا خافتاً ضعيفاً وسط الدخان الكثيف السابح فى جو المكان .

وفجأة ... مزقت السكون صرخة حادة .

وتوقف كل شيء تماما . الأيدى والألسنة والعيون والرؤوس وأصوات الجوزه . وصمت الراديو دون أن يمسه أحد . ثم اندفع رجل من الباب وقد تهدلت لاسته وبان على وجهه الذعر :

« عم عطية .. عم عطية ... »

تعلقت العيون بوجه الرجل المذعور ، وأصبعه التى كانت تشير عبر الزجاج إلى حيث كان القارب يترنح ويتمايل والرياح تتلاعب به . وسرعان ما اندفع الرجال إلى الرصيف تلفح وجوههم برودة الهواء الرطب اللزج ، وانطلقت أقدامهم تنهب المكان فى سرعة ، وعيونهم تمسح الصفحة الهادرة اللامعة تحت الضوء الأحمر الذى تركته الشمس وراءها بعد أن غاصت تماما ... وجاء صوت خفيض من وسط الرجال :

« الريح جامد .. مش حايوصل !»

وصرخ آخر بكل قواه ينادى عم عطية ، وتكلم ثالث ، وصرخ رابع ، وامتلأ الفضاء بالصيحات التى كانت تتمدد وتتمدد كأنها حبال تسبح فى الهواء ثم تتهاوى حول القارب الذى كان يبتعد فى بطء حاملا عم عطية ...

كانت أنفاس العجوز قد بدأت تتردد بصعوبة ، وأحس بقطرات عرق تنبثق فوق جبهته ، وعيناه كانتا تدوران فى كل مكان ، والمجدافان

يرتفعان فى الهواء ثم يدوران دورة ويهبطان الى المياه ويغوصان فيها . وتبرز عروق رقبته غليظة ممتلئة ، والرياح الباردة تلفح وجهه فى قسوة ، وتنفذ من فتحتى أنفه المتسعتين ... ثم وهنت ذراعاه ، وتطوح المجدافان بلا نظام ، هبط أحدهما الى المياه واستلقى الآخر فوق سطحها كخرقة مهملة . ومقدمة القارب تنحرف عن طريقها ... والأصوات والصيحات والنداءات تملأ المكان من حوله ... ويلتفت هو إلى الوراء ويرى شبح رصيف النورس هائلا ، ويرن فى قلبه دبيب ذهبى صداح ، وتتمتم شفتاه المرتجفتان :

« الرصيـ..ف .. حا .. نو .. صل ... »

وكأن قوة هائلة قد نفخت فى ذراعيه ، فإذا المجدافان يتوازيان ويشقان سطح المياه فى قوة ، والريح تزمجر ، وطرف القارب يميل نحو الاتجاه الصحيح ، ويعتدل القارب ، ثم يدور ببطء شديد ... ثم تتجه مقدمته نحو الرصيف تماما .

والأصوات تعلو وتقترب :

« يابا .. عطيا!!!! ».

يتردد صداها فى أرجاء الميناء الساكن ، ويسبح مع الرياح فتحمله إلى كل مكان ، ثم تخترق أذنيه الكبيرتين ، وتتردد أنفاسه لاهثة متقطعة :

« حا .. نو .. صل .. أنا .. بنـ .. جد .. ف .. لسه .. لسه بعافيتى .. حا .. حا .. »

وتحمل إليه الرياح رذاذاً بارداً كالثلج ، وتضرب به وجهه ويداه لاتكفان عن العمل وقد أحس فيهما دبيب الخور ، والرصيف يقترب ، وعيناه تغشاها طبقة ندية ، والقارب يتحرك فى بطء .

وذاب احمرار الشمس فى المياه ، فاكتست الدنيا بضوء رمادى خافت ، وصفحة السماء أصبحت صافية لامعة ، ولاشىء حوله سوى

السكون تقطعه أصوات المجدافين وحفيف الرياح ، والنداءات قد كفت ، وتباعدت . وذراعاه تخوران ، وثمة تقلصات حادة يحس بها تمزق صدره ، ويسعل ، فتكتم شفتاه سعلته لترتد إلى صدره كسكين حامية ، والرصيف يقترب ، ويقترب ، وبانت حجارته العالية العريضة الصفراء ، وظهر له الفنار الصغير يقبع كالطفل فوق مقدمته ... ورأت عيناه كل شيء ... الأعشاب الخضراء اللزجة وهى تتموج فوق سطح المياه ملتصقة بحجارة الرصيف . والريح تدفع بالقارب ، وذراعاه تعملان ، والأصوات تقترب من جديد ... وضربات المجاديف الكثيرة تمزق السكون وتبدده ... ونظر ، فإذا القوارب متناثرة كثيرة كثيرة ، ونظر وراءه فإذا حجارة الرصيف الشامخة تقترب منه عالية كبيرة صلدة ، وذراعاه أصبحتا لاتقويان على العمل ، وجاءت إليه الأصوات متوسلة ... وغاظه ذلك . فترك المجدافين ونهض فى مكانه ، وترنح جسده وسط القارب ، وصرخ بكل قواه :

« آنى منقدرش ياولاد الكلب ... الرصيف أهه .. حانوصل .. حا .. نو .. صل .. »

واختنقت الكلمات فى حلقه ، وقفزت إلى عينيه الدموع ، وعاد إلى مكانه فى عصبية . وشهق فى ألم وهو يكتم دمعة ، وامتدت يداه مرتجفتين إلى المجدافين وأخذ يعمل بكل قواه ...

كان الهواء يندفع من جانب الرصيف بسرعة وقوة ، والقارب يتمايل مع مد المياه وجذرها بالقرب من حافة الرصيف صانعة تلك الأمواج الواسعة الكبيرة ... وانتشر الألم فى ذراعى العجوز رهيبا . وامتد منهما الى كتفيه ، وأحس بكفيه تتلقصان ولاتقويان على العمل . وخارت قواه تماما .

كانت المسافة قريبة وصدره تمزقه سعلات سريعة جافة ، وأحس كأن قبضة هائلة تنغرس أظافرها فى صدره وتنهش قلبه بلا رحمة . وتردد صوته ضعيفا يهمس فى رجاء : « يامعين !» . ونظر وراءه ، ثمة خطوة ،

خطوة واحدة ... وانغمس طرفا المجدافين فى الماء ، ثم انزلقا فى وهن وتعب وطفيا على السطح ، وأحس الرجل أن جسده كله يخور ، وشعر برغبة فى أن ينام . كان القارب يترنح بلا حول ولاطول . والرصيف قريب قريب ... والأصوات تقترب . وهى خطوة . واندفعت الدموع إلى عينيه ، وانزلقت على صفحة وجهه واختلطت برذاذ المياه فجز على أسنانه فى غيظ ، وبدأ صدره يجيش ، ويشهق ، ويهوى بالمجدافين الى المياه ، ويطلق من أعماقه صرخة ... « يارب ... »

وهوت من عينيه دمعتين ، ثم دمعة ، وشدد على المجدافين قبضتيه الواهنتين ... وتمتم فى حرقة :

« لا .. لاز .. لازم .. لا ..»

وتحرك القارب فى بطء شديد يقاوم دفع الرياح ، وانزلق فوق السطح ، وانحسرت عن الرصيف موجة أخرى فحملته ، وسبح القارب معها فى يسر ... وما أن ارتطمت مقدمته بالرصيف فى دقة مكتومة ، حتى دق قلبه دقة عنيفة . واندفع الدمع يغرق عينيه ، وتحولت أنفاسه إلى شهقات باكية ، وترنح جسده وهو يستدير ويخطو داخل القارب نحو الرصيف .

ومن خلال غلالة الدمع التى غطت عينيه ، ترقرقت الحجارة الداكنة الملساء ، وامتدت أصابعه المرتجفة تتحسسها ، وترنح القارب ، وتسرب شبح ابتسامة إلى الوجه المغضن ، وعلت الأصوات وهى تقترب وتقترب ، وما أن تشبثت كفاه بالحجارة ... حتى انهمرت الدموع تغرق وجهه ... ودفن رأسه بين ذراعيه ، وأجهش بالبكاء كطفل صغير .

١٩٥٦ .

# جابر الصارى

كان نحيفا كصارى السفينة تماما ، يخيل لمن يراه وهو يترنح داخل بذلته الواسعة كأنه عدة عصى ركبت وكسيت بطبقة رقيقة من الجلد ، ثم أطلق على هذا الهيكل اسم جابر ، وأضاف اليه الرجال لقب « الصارى » ... والرجل على سطح السفينة ثروة ، والذراع لها قيمتها التى يعمل لها الجميع ألف حساب ، ولكن جابر لم يكن يصنع شيئا على الاطلاق ، تركه الجميع يجوب ممرات السفينة الضيقة ... يترنح جسده الطويل أثناء سيره ، وتزحف قدماه داخل حذائه الواسع الكبير ، ثم تدفع الحذاء من الداخل فيتحرك جابر فوق الأرض فى حشرجة وضيق ..

كان وكأن كل شىء فيه غير متماسك ، ساقاه نحيفتان تجدان داخل ساق سرواله مجالا لتخطوا فيه الى أمام ، فالسروال لايتحرك ساقا وراء ساق ، ولكنه يتحرك جملة ، وذراعاه مدلاتان فى لا مبالاة وكأنهما خرقتان بجانبه ، وجهه نحيف جامد كالصخر ، تبرز عظام وجنتيه بروزا شديدا ، وينحدر على جوانبهما لحم وجهه الرقيق الداكن ، ليكون ذقنا لاتدرك أن كانت حليقة أم نابتة ، فهى بين بين ، تبرز شعيراتها كالشوك فى غير نظام ، وتتناثر على صفحة وجهه غبراء حائلة اللون ..

قد يربد الجو وتتلاعب بالسفينة أمواج ثائرة ، وقد يهدأ فتنزلق السفينة فوق سطح رائق كالزيت ، قد يكون الأمر هذا أو ذاك ، وستجد

دائما جابر الصارى قابعا فى مكان ما ، أى مكان ، محملقا بعنين فارغتين فى لاشىء ، تفوح منه رائحة الخمر ، وتتصاعد من فمه وأنفه حلقات متتالية من دخان سيجارته التى لاتنطفىء أبدا ..

وقد تمر أيام لايراه فيها أحد ، قد ينام الليل ، أو ينام النهار ، وقد لاينام على الاطلاق ... قد يأكل ، وقد لا يأكل ... لايعرف أحد ، ولايعنى أحدا أن يعرف! .

تمر حياته راكدة وكأنه يعيش فى قبر ، فهو بلا أهل ، لايعنيه أن أبحرت السفينة شهورا أو رست سنوات ، قد يضربه الرجال ، وقد يسخرون منه وقد يسبونه وقد يضحكون عليه ... وهو هو دائما لايتغير ولايخرج عن صمته وهدوئه ، عيناه باهتتان ميتتان جامدتلان ، تحس وانت تنظر اليهما أن وراءهما فراغا أجوف يتردد فيه صدى أحداث ماضية ..

ويتحدث عنه الرجال ذوو الشوارب الكثة الرمادية والشعور البيضاء ، ويقول أحدهم : « كان له من زمن » ، ويهز آخر رأسه وهو لايزال يتساءل فى دهشة : « بقى وليه تعمل فى راجل كده ؟!» ... ويعتدل الباشريس بجسده العريض وتمتد يمناه لتفتل شاربه الكث الغليظ ثم يقول : « ياخسارة الرجالة ، خمستاشر سنة وهو بالشكل ده! » ..

أما الشباب فكانوا ينظرون اليه كأنه دمية ، ولايدرى أحد منهم لم يسخرون منه ، ولكنهم دائما قساه ، تمتد أكفهم اليه كثيرا فى صفعات هستيرية كأنهم يدفعون عن أنفسهم أشباحا مجنونة ، وينظر هو اليهم بعينيه الفارغتين دون أن يقول شيئا ، ويغيظهم صمته ، فيبالغون فى ايلامه ، ولكن أحدا لم يدر ان كان يتألم حقا !!

شىء واحد كان الرجال يحسون فيه بحاجتهم الى جابر .. عندما يكتمل المجلس وتنتصب الزجاجات وسط الرجال كالآلهة الصغيرة ، ويعد

الكأس الثانية لابد أن يصيح أحدهم ضاحكا :

« فين المزة ؟ ...ماينفعش الشرب من غير جابر!» .

والحياة فى البحر تحتاج دائما الى ابتسامة ، والكأس تحتاج الى ضحكة ، وكلاهما يحتاج الى جابر الصارى الذى يأتى مترنحا ، تنفرج شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة باهتة ، ويتوهج بين أصابعه النحيلة لهب سيجارته ، وتفوح من فمه رائحة الخمر ... وتتمايل الزجاجات ، وتقرع الكئوس ، ويدوّر الحديث خشنا فظا ، ويختلط صوت الرجال بحفيف المياه أو زمجرة الأمواج ، وترتفع الأكواب الى الأفواه ، ويعب جابر الكأس تلو الكأس ، ويفح بصوته المتحشرج الصدىء ، ثم يمسح شفتيه بظهر كفه ويجذب نفسا من سيجارته ، ويدور بعينيه الفارغتين فى الوجوه وكأنه يدور بهما فى الأفق ولايرى شيئا ... وينبثق صوت ماكر :

«والله مرحب ياجبورة!»

«ماتشرب ياصارى ... كبايتك فاضية!»

وتتصاعد الضحكات ، وتنعقد الكلمات فى رأس الصارى الفارغة فلا تعنيه فى كثير أو قليل !!

وفى البداية ــ منذ سنوات طويلة ــ كان حديثهم يبدو له حنونا ، وكلماتهم طيبة ، وكان ينطلق حاكيا كل شىء ، ثم أخذ يتلهف لكى يقص قصته ، ثم بدت له ابتساماتهم وكأن فيها شيئا يغضبه ، والكلمات ترسم فى رأسه خطوطا رفيعة ، خطوطا تتجاور لتصنع طريقا عريضا أملس يقود لسانه الى الانزلاق ، فيقص القصة من جديد ، وأخذ بعد ذلك يقصها مرات ومرات وظل يقصها خمسة عشر عاما دون أن يطلب أحدهم ذلك!!

والسنوات تمر كثيرة طويلة ، رجال يذهبون ورجال يأتون ، ولكنهم لايختلفون ، كلهم متشابهون ، نفس الوجوه القوية الصلدة ، ونفس

النظرات القاسية والأذرع المفتولة ، وهم يكبرون وهو يذوى ، وهم يضحكون ، وهو لايدرى سببا للضحك !

وما يكاد يبدأ فى سرد قصته حتى تتوالى التعليقات ، ساخرة ، حادة كنصل سكين ينغرس فى صدره ، ويقدمون له كأسا وكأسا وكئوسا فيشرب ويقول لهم : «دى مش أصول» ، ويقولون فى أصوات متضاربة : «عندك حق ... متزعلش!» ، وأصبحت أصواتهم مائعة ، وأصبح لايستطيع أن يعرف أن كانت جادة أم هى أكثر سخرية ، وحار فى البداية ثم أصبح الأمر لايعنيه ... وماتكاد كأسه الرابعة تختفى فى جوفه حتى يسمع صوتا :
«لسه بتدور عليها؟!»

ويهز رأسه ثم يقول وهو يضرب المنضدة بأصابعه النحيلة الطويلة :
«مش الحكاية بقى لها خمستاشر سنة يارجاله؟ ... لكن لسه وعزة الله باحبها!!»

وتدور عيناه على الوجوه وجها وجها ، ثم تفران الى الكوب ، وترتجف يده وهو يرفعها الى فمه :
«كنت باحبها ، وكانت بتحبنى!» .
«وايش عرفك؟»

وترتفع رأسه فى حذر ، ويبرز أنفه كنصل حاد ، وتبرق عيناه وتبدوان وكأنهما شحنتا بالحياة فجأة ، ثم يأتى صوته ضعيفا متكسرا :

«أنا عارف ... كنا . كنا أيامها فى مالطة ... وقعدنا هناك كتير ، هيه ، ثلاث سنين ، ستة وتلاتين شهر ، هيه . ستة وتلاتين ايه؟!»
ولايرد عليه أحد ..

ويستقيم صوته شيئا فشيئا ... وتستبين كلماته وتنطلق من فمه وكأن الحياة تدب فيها من جديد ، وتسيل سريعة متلاحقة ، ويجرع كأسا

ويضرب المنضدة بأصابعه ، ويدور بعينيه فى الوجوه ، ويجرع كأسا ، والرجال صامتون ، وصور زاهية تتراقص فى رءوسهم ، وعيونهم قد شدت اليه ، وآذانهم كأنها تستمع الى القصة لأول مرة ، ويجرع كأسا ، وتحيا «روزا» امام الجميع ، وتنزلق رءوسهم الى المنضدة لتجسدها كلمات جابر ، وتلتهمها آذن الرجال وتعيش معه السنوات الثلاثة . ويعرفون أباها الذى كان يحبه كابنه ، وعندما يقول أنها أخبرته أنّ فى أحشائها طفلا ... يبكى .

وقد تسقط دمعة تصنعها الخمر من عين رجل أو رجلين ، ويبتسم آخر فى سخرية والوجوه تميل الى أمام ، وقد تتلاصق فتصنع أمامه جدارا من العيون المحملقة والآذان المرهفة ، وهو يحكى ، ويجرع كأسا ، ويعود الى الوطن فجأة ويعد العدة لاحضارها ، وترسل له صورة الطفل الذى سماه سامى ، ويضحك وهو يقول : «الاسم من ده على ده ، مسلم على مسيحى!» ..

وتمتد يده الى صدره ويخرج صورة شاحبة تسرب اليها عرق غامق اللون فبدت وكأنها تتغذى بدمائه ، وتدور بها يده مرتجفة ، وتمتد العيون اليها ، وخطاباتها لاتزال معه ، تقول أنهما تحبه ، ويهيىء البيت ، وتمضى الشهور ... ويمر عامان .

«أعمل ايه ... ماهيتى كانت تلاتة جنيه ، يعملوا ايه ؟ ... بطلت السجاير ... بطلت الشاى والقهوة ... يدوبك اللقمة!»

وينفعل جابر الصارى ، وينفعل الرجال ، ويجرع كأسا ، ويجرع الرجال كئوسا أخرى ، وتميل الزجاجات ثم تعتدل وتنتصب أمامهم كتماثيل جوفاء خاوية ، وتتمايل السفينة وتضرب جوانبها الأمواج ، وتتراقص الأنوار ، وتتمايل رءوس الرجال ، وهو لايكف ... وصوته يأتى عميقا :

«وهوب ... انقطعت الجوابات!»

وتزداد حدته ، ويقول أن الحق معها ، ولابد أنها ظنت أنه يماطلها ، ويرسل الخطابات تلو الخطابات ، ويرد عليه الصمت والغموض ...

«ورحت مالطة ، مافيش فايدة ، أبوها قال لى ياابنى دى اتجوزت وسافرت مع جوزها ، على فين ، محدش يرد ، عملت المستحيل ، مافيش فايده ... مافيش فايده!» .

أصوات غريبة تتصاعد فى اذنى جابر فى تلك اللحظة ، وطنين يلح ، وعيناه لاتفارقان الكأس ، وتستبين الأصوات ، وتنطلق الضحكات مكتومة ، ساخرة ... ويطلق أحدهم نكتة يسرى بها عن نفسه ، وقد ينهره آخر ، والدخان قد غلف الوجوه والرءوس ، وانفاس جابر تتردد بصعوبة ، ويمضى ، وتزحف قدماه فوق سطح السفينة وتذرع الممرات فى الليل وفى النهار ، ويتراقص جسده الطويل كأنه صارى سفينة تتلاعب بها الأمواج ... وتمضى الأيام ... وهو هو لايتغير ، صامت ، عيناه فارغتان ليس فيهما شيء ، وجهه ضامر ناحل ، وجلده يرق ويرق ، وساقاه الطويلتان تنثنيان وتنفردان ثم تهبط القدم فوق الأرض لتزحف من جديد ، وترسو السفينة فى ميناء ، وينطلق الرجال يجوسون خلال الشوارع الضيقة ذات البلاط العريض بحثا عن ليلة .

وهو لايغادر السفينة ، وقد يغادرها الى أقرب حانة ، ويجلس طوال الوقت صامتا ، ويجرع الكأس تلو الكأس ثم ينهض مترنحا فى جوف الظلام ، وتأتيه أصوات الرجال الثملة ... «ياصاااارى» ... ويمضى ، ويزحف من جديد ...

وعندما رست السفينة فى الميناء الأسبانى الصغير ، لم يكن أحد ليعنى أن كان جابر سيغادرها أم لا ، كان يتسلل كالشبح عندما يزحف

الظلام ، يهبط السلم ، ثم يذوب فى البلدة ليعود فى جوف الليل .

وكان بعض الرجال قد غادر السفينة ، والبعض فى سبيله الى مغادرتها ، ولم يكن جابر الصارى هناك ... كان قد غادرها منذ وقت قصير هو الآخر . والسطح قد ركد وسكن تماما ، ثمة رجل هنا ورجل هناك ، وسكون الغروب قد ظلل كل شىء ... وطائر يحوم فوق السفينة وحيدا ، والعلم فى مؤخرتها تكاسل واستلقى فى استرخاء .

وفجأة ... تبدد السكون ، وتصاعدت أصوات ، وضجة ، وحديث ، وقسم ، وكلام ... ولم يكن غريبا أن يحدث مثل هذا الامر ، ونظر رجل فى الداخل الى زميله متسائلا :

«مش ده صوت الصارى؟!»

وابتسم زميله ساخرا :

«هو بيعرف يتكلم؟!»

وازداد الضجيج فى الخارج ، واقتربت الأصوات من السفينة ، وثمة رءوس تطل ، وتساؤل فى العيون ، ورجال يخرجون ، وصوت جابر يستبين ..

كان جسده الطويل منتصبا كالسيف ، وعيناه دبت فيهما الحياة ، وذراعاه تتحركان فى سرعة وقوة ، والرجال من حوله ، وشاب صغير ، صوته ملىء ، غريب ، فيه نشوة وحياة ...

«آه ... والنبى ... والله هوه ... هوه سامى ... سامى ابنى ، ريس عبده ، شايف سامى ؟ أيوه .. ابنى سامى ... ياقبطان ياقبطان ، ياحضرة القبطان ... سامى أهوه ... ابنى اللى كنت بأحكى لكم عنه ، آه ، آه والنبى ... هوه سامى وعزة الله ... شوف بقى عريس ازاى ... عريس ... ابنى كبر ، بقى عريس ، ابنى ، لقيتهم هنا ... روزا آهه ،

ياسلام ... عمر ، زمن ... سامى ابنى يارجالة ، ياسيد ياسيد ، سامئ أهه ... ابنى ... ابنى!»

كان يتكلم ويتكلم ويتكلم ، وعنياه تدوران فى الوجوه بدهشة ، ووجهه كله يبتسم ، ولحمه قد استرخى فى راحة ونشوة ، والشاب يقف ذاهلا ، وهو لايكف عن الحديث ، ولايكف عن النظر الى ولده ، ويده تمتد مرتجفة لتتلمس الجسد الفتى ، ويحتضن بنظره وجه ولده ... ويمسك بيده ، ويحدثه ، ويقول فى خجل فرح :

«مش فاهمنى ، مايعرفش عربى ، زمن ، والله زمن ، لكن ده بقى عريس!»

وترتفع كفاه لترسما كلمات واشارات ، والشاب يبتسم ويهز رأسه ، وروزا تقف على الرصيف ، ودموع تنحدر على وجهها وجابر يهبط اليها ، ويحدثها وتحدثه ، ويربت على كتفها ، ويبكى ، والشاب تلمع فى عينيه الحيرة ، والرجال فى ذهول ، والليل يهبط والظلام يبتلع جابر الصارى ولاأحد يعرف الى أين!

ووقع الرجال فى الحيرة ... ثمة أسى يهبط الى قلوبهم وثمة فرح غامر وكأن كلا منهم قد انجب طفلا ، والحديث لايكف ، وتهتز الرءوس ، وتتوالى التعليقات ..

ويوم وراء يوم .. وساعة وراء ساعة ، ويقترب يوم الرحيل ... وجابر لايظهر ... ويأتى يوم الرحيل ، وفى العيون تساؤل وقلق ، والساعات تنكمش وتصبح ساعة ، والساعة تتقلص وتصبح دقائق ، وتدوى صفارة السفينة ، والسطح كخلية نحل ، ولم يبق سوى دقائق ... ووقتها فقط ، ظهر جابر!

كان يسير ويده تمسك بيد ولده ، والشاب قد اختفت من عينيه تلك النظرة الحائرة ، والأم تتأبط ذراع زوجها ، أما جابر فكان يبدو صامتا ، على وجهه مسحه من حزن عميق ، ومسحه جديدة من فرحة طاغية ..

. بجوار سلم السفينة توقف الركب... واستدار جابر الصارى فاذا جسده مستقيم لايهتز ، وصافح الزوج ثم استدار الى الأم وصافحها ، وعندما واجه ولده توقف قليلا ، ثم مد يده وصافح ولده فى قوة ، وأشار بيديه أن «اكتب» ... ثم استدار نحو السلم وراح يصعده فى ثبات ...

ومنذ ذلك اليوم لم يسمع أحد من جابر قصة حبه ، وظل اسم «الصارى» لاصقا به لشهور أخرى ثم اختفى من أفواه الرجال ، واستقام جسده الطويل وامتلأ ، وكان كلما اختلى الى نفسه وجده الرجال يقرأ فى كتاب ... وعندما سألوه قال فى هدوء :

«باتعلم أسبانى!»

١٩٦٠

# البحار مندي

## وقصص من البحر

**• هذه القصص •**

عندما نشرت قصص الأستاذ صالح مرسى الأولى فى عام ١٩٥٦ ، وجدت ترحيباً حاراً من النقاد والقراء على السواء ... ولكن ، ولأن هذا الكاتب كان بحاراً من قبل ، فلقد جاءت قصصه عن البحر ، كزهرة جديدة أضيفت إلى الزهور القصصيه فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ... حتى اذا نشرت مجموعة قصصه الأولى « الخوف » فى عام ١٩٦٠ ، بدت وكأنها تحمل بشائر كاتب جديد ومتميز الأسلوب ، حتى لقد وصفه شيخ النقاد المرحوم الدكتور محمد مندور بأنه « جى دى موباسان » العرب ..

وهكذا ، وعلى مدى مايزيد على ربع قرن من الزمان ، كانت قصص صالح مرسى عن البحر ، أدباً ذا نكهة خاصة وطعم خاص ، ميز هذا الأديب وسط باقة الأدباء العرب بأنه كاتب « البحر » .

وفى هذا الكتاب ، جمع صالح مرسى كل ماكتبه من قصص قصيرة عن البحر ، والتى صدرت فى مجموعته الأولى « الخوف » ، وكتابه السادس « خطاب الى رجل ميت » ، ثم أضاف اليها تلك التحفه الطويله « مغامرات البحار مندى » .: وبهذا يأتى الكتاب جامعاً لتاريخ أديب من أكثر أدبائنا قدرة على كتابة القصة القصيرة ، ببراعة شهد له بها الكثيرون .